
محمود رضوان
رواية
كحّاله
" سيرة حب "
ساحر الكتب

إلى الذين نحبهم لا تجعلونا نحزن

إلى من جعلونا نحزن نحن لا نحبكم

«قلب المُريد لو صفا ينظر أوي لبعيد

والحب يحلى يا روحي ما دام على التوحيد»(1)

الفصل الأول

١

استقرَّ والدي على إحياء مولد سيدي «الكَحّال» هذا العام في قريتنا وقال لنا: هنجيب «يونس الصواف» المداح اللي طالع جديد، بيقولوا عنه صوته حلو والناس بتحبه، فتعجب الحاضرون الذين يرتادون بشكل يومي وكالة جدي لتجارة الحبوب والأعلاف؛ إما لقضاء حوائجهم، وإما للتمتع بشرب القهوة العربية التي يجلبها جدي من اليمن: بس دا بياخد فلوس كتير، لكنه أجابهم في إصرار:

- ندر بقى علينا ولازم نوفيه.

- طب إحنا لازم نساهم معاك بأي حاجة.

- وما له الليلة هتبقى كبيرة وناس كتير هتيجي تسمع من العِزَب والكفور اللي حوالينا، هنعشّيهم ونضايفهم، ومش مهم بقى أي تكاليف، إحنا ما صدقنا إن «مروان» خف وبقى كويس. وأضاف والدي: الحمى الروماتيزمية دي حاجة صعبة أوي، ربنا ما يكتبها على حد من ولادكم.

فردَّ الجميع: آمين.

كنت أنا ذلك المريض الذي أحيا من أجله الشيخ «يونس الصواف» أول حفلاته في قريتنا قبل أن يذيع صيته في البلاد المجاورة لنا في وفي الوجه البحري كله، حتى إنه أصبح من علامات الموالد الكبرى في الحسين، والسيدة زينب، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي شبل.

فانتبهت والدتي إلى الحديث: نزل «يونس الصواف» في بيتنا ليلتها، وطلب أن يستريح قليلًا في «مندرة» الضيوف، حتى يحين موعد السهرة، كانت البلد كلها على قدم وساق، الكل في انتظار هذا «الصيِّيت» الجديد الذين سمعوا عنه، والملقب «بكروان المداحين»، التفَّ البائعون حول ساحة الجُرن الكبير يبيعون للأطفال الحلوى وفاكهة الصيف، وجاء إلى القرية أهل السيرك والغوازي والأغراب، وأصحاب عربات «فتّح عينك تاكل ملبن»، ثم قامت النساء بفرش ساحة الجُرن بالحصير، وقام أهل الله(2) الذين يرتدون العمائم الخضراء بدقِّ الطبول واللف بالبيارق والأعلام الصوفية على البيوت؛ لجمع ما نذرته بيوت القرية من فتة ولحم وطيور

في صوان مستديرة ستكون العشاء لهم وللضيوف من البلاد المجاورة، قالت أمي إن جدك رحمه الله الشيخ سيد الكَحّال، كان غير راض عما يحدث، ويظل ينادي على «يونس الصواف» الذي كان نائمًا ويطالبه بأن ينزل للناس وإحياء الليلة، وأنه تأخر عليهم وهذا لا يصح، وكان «الصواف» لا يعيره أي اهتمام، وظل مسترخيًا حتى العاشرة، ثم نهض وطلب عشاءً خفيفًا، وبعده شرب شايًا بالنعناع، وقال لجدي الذي ما زال مستَفزًّا من تأخره، بعد أن تجاوزه بخطوات: «الصبر أحسن دوا» يا حاج يا كَحّال يا كبير.

أخبرتني أمي أن الناس ظلّت تنتظره أمام البيت بفارغ الصبر حتى نزل، فزفُّوه بالطبول فوق فرسة الأغراب الكاحلة إلى الساحة حتى اعتلى مصطبتها الكبيرة، والتي زيَّنوها له بالسجاجيد الحمراء، ووضعوا عليها الكراسي المذهبة التي أحضروها خصيصًا من سراي العمدة.

جلس «الصواف» في زِيّه الأزهري المعتاد (الجبة والقفطان والعمامة الحمراء) في صدر ما بدا وكأنه مسرح، وبدأ في تلاوة الآيات القرآنية التي اعتادها في بداية كل حفل، ثم شرعت الفرقة في الدخول أحدهم تلو الآخر، وكان مُقدِّم الحفل وهو أحد أعضاء الفريق يقدِّم ويقول: نسمع العود مع

الأستاذ فلان، ثم نسمع الكمان مع الأستاذ فلان، والناي مع الأستاذ فلان... إلى آخر الفرقة، ثم يقف «يونس الصواف» ممسكًا بالميكرفون، ويبدأ في الغناء:

«الليلة ليلة النبي، وفيها المدح يحلالي.. أنا سألت ع الدوا لقيت الدوا غالي.. حبوب إخلاص بابا الكَحّال (كان يغيرها حسب اسم الولي صاحب الليلة) كتبهالي.. وحقن توحيد أبويا الرفاعي وصفهالي، يا تاجر الصبر لا تشفق على الشاري، درهم من الصبر يسوى ألف ديناري، عاشق ومدَّاح تلومني ليه يا خالي، خليك في حالك وخليني أنا في حالي، مدح الحبيب النبي ذخري وراسمالي.. وداري على بلوتك يا اللي ابتليت داري.. وازاي أداري ونور المصطفي جاري.

وأضافت أمي أن ليلتها قدَّم «يونس الصواف» قصة «ليلة والمداح»، وهي قصة من ضمن قصصه التي تمتزج فيها الحكمة بالإيمان بالقدر، والخير بالشر الذي دائمًا ما يخسر في النهاية.

في آخر الليلة تهدأ الموسيقى، ويقول يونس الصواف: «الساحة راحة»، وتكون هذه إشارته للحاضرين، حيث يصطفُّ الجميع في صفوف منتظمة، ثم يبدأون «طَبَقَة

الذكر»، حيث التمايل، وترديد «الله حي» مع العلوّ بالموسيقى والمدح بالتدريج؛ لتحقيق الانجذاب والوجد التام، وما يعقبه من نشوة وارتقاء، بعدها تنتهي الليلة على أمل اللقاء في ليلة جديدة أو مولد قادم.

واستكملت أمي بنبرة حانية أنه: عندما نظر إليك في آخر الحفل كنتَ ليلتها يقظًا لم تنم، حيث نام كل أطفال القرية إلاك أنت و«ريما» ابنة حليمة، وكنا قد أجلسناك بالقرب منه، فنادى عليك في الاستراحة وقبّلك، وقال لك: سمعتَني؟ يعني غنيت كويس؟ وجلس يتحدث إليك، والناس تراقب من بعيد، بعدها قال لوالدك: ابنك ده هيبقى كويس أوي يا شيخ علي يا كَحّال، خلي بالك منه وعلّمه كويس، واوعى تعمل زي البخيل بتاع القصة.

واستكملت: في اليوم التالي لليلة الكبيرة وجدناك معمَّمًا بشال جدك الأبيض، وتقف وسط أطفال الشارع أمام الوكالة بعد أن جمعتهم كلهم وتغني لهم:

«بحثت شرق البلد والغرب عن عطار

عشان أجيب الدوا ولا الصبر للمحتار

مالقيتش إلا دوا زوّد حدايا نار

والصبر أحسن دوا لأهل الهوى الأبرار»

حكى لي جدي الشيخ سيد الكَحّال أنه أحب هذا المداح بعدما سمع حكايته، والتي تداولها أهل القرية، بعد تلك الليلة التي استفزّه فيها، سألته: وما هي حكايته يا جدي؟ فردّ قائلًا: بيقولوا ياعم مروان (كان جدي يخاطبني هكذا عندما يحكي لي شيئاً يرى أنني شغوف به): إن الصواف كان مسحور ببيت كبير بتاع واحد من الأعيان في بلدهم كان نفسه يشتريه ويسكن فيه، وقتها كان لسة في بداية حياته، فشافه صاحب البيت، وقاله بكل غرور أرجع يا «يونس» هو أنت تقدر على تمن البيت دا؟ دا محتاج فلوس كتير أوي وإنت «لامؤخذا» مش قد المقام، قال جدي إن «يونس الصواف» شعر بالحرج، لكنه ابتلع الإهانة، وذهب إلى زوجته التي سألته: ما لك يا أخويا؟ قال لها: مافيش، ودخل إلى حجرته ونام ودمعته الساخنة تسيل على خده، فأتاه في المنام سيدي الكَحّال، وأيقظه بعصا كانت في يده، وقال له: قوم انت لسه نايم؟ قوم اعمل المولد بتاعي، وغني فيه، ومن يومها ربنا فتحها عليه، واشترى بدل البيت بيتين، لكن فضل البيت دا «بالذات» روحه متعلقة بيه يا ولدي.

حكت لي أمي عندما مات جدك، جاء الشيخ «الصواف» إلى العزاء، وقرأ القرآن في مأتمه قرب مقام سيدي الكحال، ولم يأخذ ليلتها أي مقابل، لكن الغريبة أنه سأل عنك، فوجدناك ليلتها «يا حبة عيني» قد نمت من كثرة البكاء على جدك في بيت «حليمة» عند الأغراب.

يا هندي يا رندي يا ماسك المزمار

محلاك يا هندي لما تغني

وليلة ترقص على الطار

٢

لا تذهب إلى «الأغراب» يا مروان، هيسحرولك، ويأخدوك معاهم تسرح في الموالد ورا الغوازي.

هكذا كانت تقول أمي من وقت لآخر، ولم أكن أنصت إلى تعليماتها وأوامرها التي يأتمر بها الجميع بما فيهم أبي وجدي «سيد»، فهناك في عالم «الأغراب» كنت أحب خالتي «حليمة»، كانت طيبة جدًّا تأتيني بلبن عنزاتها اللذيذ، على الرغم من قرف فلاحي قريتنا منه؛ فقد كانوا يقولون عنه إنه «زفر»، ويفضِّلون عليه لبن أبقارهم، بينما كان جدي سيد الكَحَّال يرسل لها «مخصوصًا» لطلبه، خاصة في الصباح، وأخبرتني ذات مساء أنهم أسموها حليمة على اسم السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنها كانت تصلي وهى صغيرة وتحفظ القرآن، وتتعلم القراءة والكتابة في الكُتاب مثل بقية الأطفال، إلى أن تزوجت «عبده العاصي»، كبير الأغراب هؤلاء الذين يسكنون في باطن جسر(3) النيل، بجوار «الشمية» شرق قريتنا، قال لي عم عبده:

أنه يحب «يونس الصواف» منذ سنين، ويدور وراءه في الموالد، وفي كل نهاية مولد يهرع إلى سيارته ليسأله: الليلة القادمة هتكون فين يا سيدنا؟، يجيب الرجل أن هذا الصيِّيت روحه حلوة، وبيحب الناس، ويتركهم يقاطعونه وسط غنائه، لكنهم مهما أخرجوه يعود إلى نفس المقام الذي يرتكز عليه، قال لي «عبده» ذات ليلة إن الصواف كان «يحييه على جنب» بمبلغ معلوم كل ليلة مقابل حراسته هو للفرقة، هذا غير «التحديق».. سألته: ما «التحديق» يا عم «عبده»؟ فأجابني: ساعات فيه ليالي بتبقى باردة كده حتى لو في الصيف، والناس بتبقى واكلة ومريَّحة، ومش عايزين يتحركوا معاه، وهو يعلي ويوطي ويروح شمال ويروح يمين وهما ولا هنا، وهنا بقى ييجي دوري أقوم ماسك «المكرفون» وأسخَّنهم، وبعدها الليلة بتمشي سلطاني، كنت أراه فعلًا في بعض الليالي يمسك الميكروفون ويصرخ بصوت عالٍ أجش يا مجمع الدراويش يا شيخ «صواف»، وينادي يااااباااااا مدد يا سيدي الكَحّال مدااااااااااد.. مدد يا سيد يا بدوي مدد.. يا ستنا الطاهرة مداااااااااد.

كان لعم «عبده» وخالتي «حليمة» ابنتان، «سميرة» و«ريما» كانتا تكبراني بعدة أعوام، لكن «ريما» كانت الأصغر، والأقرب لقلبي، ورغم أنها بلغت وشبّت وبدت عليها علامات

الأنوثة، كانت لا تزال تلعب معي، وتغني لي بصوتها الحلو ما تيسَّر من «يونس الصواف» ومواويله وشطحاته العشقية التي أولع بها مثل موال:

«كواتينى يا ليلة وفايتاني عليل على مين؟

قالت أداويك يا حبيبي بس حق الدوا على مين؟»

قالت لي «ريما» إن «ليلة» التي يتغنى بها «الصواف» في هذا الموال كانت خالتها، وهي من الأغراب أيضًا، وأنها سافرت منذ سنين ولم تعد، قلت لها أكملي الموال، فاستكملت:

«سهرت أناجى القمر وأقوله إنت مين؟

قال لي دا أنا المصطفى وإنت يا عاشق مين؟»

كانت «ريما» تقف في هذا الجملة على جذع النخلة المقطوعة منذ سنين، وتشير وكأنها «يونس الصواف»:

«قبل وجود «آدم» كان ربك يخاطب مين؟

ذاته تكلم صفاته بالحق والتمكين

دا الذات واحدة لكين الصفة عشرين»

ثم تتمايل وهي مغمضة العينين وشعرها المموج يتبعها يمنة ويسرة، وتغني بصوتها الناعم:

«يا مدّعي الكِبر هو الكِبر علّى مين؟»

أخذتُ «ريما» يومها في يدي، وذهبتُ بها إلى جدي كَحَّال، وكان نائمًا تحت شمس الشتوية الناعمة على «دكته» الخشبية أمام الوكالة، متدفئًا بعباءته الكشمير الحمراء، وطلبت منه أن يشرح لي هذا الكلام، وقلت إن «ريما» تقول إن «ليلة» التي يتغنى بها «الصواف» خالتها، يومها صاح جدي في «ريما» وطردها من المكان، وقال لي: لا تلعب مع الأغراب يا «مروان» دا مش مقامك، وبعدين هي مبقتش قدك يا واد إنت. ثم همس في أذني: البت بلغت و«صدرها» بقى قد اللمونة يا ابن الكلب إنت، ثم ضحك جدي ومدَّ يده نحو صدري وقال: وريني كده يا واد إنت بلغت و«الترمسة» طلعت لك إنت راخر ولا لسه؟

نظرت إليه في حسم، وأعدث سؤالي في حدَّة وغضب، وكان جدي يحبني، ويصبر على غضبي حتى أهدأ، هو يعرف أني غضبت لطرده «ريما» التي أحبها وأحب صحبتها، على الرغم من غضب أمي من ذلك، كان جدي يقول لي أحيانًا عندما يجدني ساهمًا أو مبتعدًا: روح العب مع بنت حليمة، وكان يعطيني نقودًا أشتري لها بعض الحلوى.

احتضنني جدي يومها، وسألني: هي كانت بتغني إيه؟ ثم جلس يشرح لي، «ليلة» فعلًا تبقى خالتها، بس مش دي «ليلة» اللي حبيبك «يونس» بيغني لها، والمثل بيقول يا عم مروان «كل واحد بيغني على ليلاه»، «يونس» بيغني لليلة اللي هي المدد كله، النور اللي نازل من السما على الأرض، وهي بتغني لخالتها.

- ومين هي «ليلة» وحكايتها إيه؟

تنهد جدي تنهيدة طويلة، وهو يشرع في الحديث:

- ليلة كانت بنت واحد من الأغراب، وكانت أخت «حليمة» الصغيرة، كانت جميلة أوي زي القمر في السما، كان شعرها سلاسل دهب أصفر، وخدودها بلون شقّ الرمان، وكانت

طويلة وجسمها ريان، وكان الكل يتمنى لها الرضا، لحد ما واحد ابن حرام غواها وخدها في ليلة من الليالي وهرب معاها، الأغراب ماسكتوش، فضلوا يطاردوها من بلد للتانية لحد ما لقوها، ولما جابوها هنا في البلد، قتلوها في ليلة سودة، ورموها في «الشمية»، وبعد كام يوم ظهرت جثتها، والموضوع اتعرف وخدوهم على المركز حبسوهم كام يوم وسابوهم لما قالوا إنهم غسلوا عارهم بإديهم ما عدا ابن عمها وكان اسمه «مرعي»، سجنوه بعد ما اعترف.

بعدها الأغراب رحلوا الرحيل الأولاني، ورجعوا تاني بعد الحكاية دي ما كانت اتنست.

سألته:

- هما الناس عشان كدة بيسموها «شمية ليلة» وبيخافوا منها؟

- كمان عشان غويطة، واللي بينزل فيها مابيطلعش.

«الشمية» تلك البقعة التي تمرّدت على النيل، فحفرت لنفسها تجويفًا في باطن الجسر، واستمدت رهبتها من شجرة

الجميز العتيقة التي تخيم عليها لتبقى جزءًا من موروث الخوف في قريتنا، وازداد هذا الخوف بعد حادثة قتل «ليلة» الغرباتية الحسناء، التي كانت أمي تذكرها دائمًا وهي تقول: «ليلة» كانت واخدة الجمال من أخت الملك فاروق، وكانت تقول أحيانًا إنها بنت ملوك فعلًا، وكانت تصف «ريما» أيضًا بنفس الوصف وهي تحذرني ألا أذهب إليها.

حبسني جدي في البيت حتى لا أذهب إلى «ريما»، فعاودتني آلام الحمى الروماتيزمية وما صاحبها من صمت وعزلة فرضتها على نفسي، احتار جدي لحالي حتى زاره سيدي الكَحّال في المنام وقال: خدوه يزور المقامات العالية في مصر، فطار بي جدي إلى الحسين، وعند مقامه العالي سألته وفي عيني دموع: ليه حبستني يا جدي ومش عايزني ألعب مع «ريما»؟

قال لي وقد فرح لأني أخيرًا تكلمت وانفكّت عقدة لساني:

- عيب إنت كبرت وهي كبرت.

وضحك قائلًا: بقى هو دا اللي مزعلك طب وحياة مقام الغالي، اللي جبر بخاطري وهيخليني أرجع بيك «طيب»

لأخيلك تلعب معاها، بس على شرط يا «مروان أفندي».

قلت له: فرحًا:

- إيه هو الشرط؟

- إنك تذاكر وتنجح وتفرحني وأشوفك حاجة كبيرة أوي، ودايمًا تيجي هنا تصلّي في المقام، ولما أموت تبقى تقرالي الفاتحة وتدعي لي.

قلت له وأنا أحتضنه بشدة:

- على شرط إنت كمان يا جدي.

- إيه؟

- أوعى تموت وتسيبني.

قال وهو يواري وجهه حتى لا ألمح دمعة عينيه:

- موافق.

قضينا الليلة في لوكاندة «الكلوب الزينبي»، وصلينا الفجر في السيدة زينب، واتجهنا مباشرةً إلى البلد، نزلت من السيارة وقد دبّت في جسدي العافية، وتناسيت آلام المفاصل وحرقان الأعصاب، مسرعًا نحو «ريما» التي اشترى لها جدي عروسة كبيرة وقال: ابقى اديها دي، وقلّها ماتزعليش من جدي عشان زعق لك.

كبرت «ريما» وصارت تركب فرستهم الكاحلة وحدها، وترمح بها فيرمح شعرها الغجري في موجات سحرية من خلفها، أما صدرها فقد صار مثل رُمانتين تسبقانها دائمًا في مواجهة الريح.

كبرت «ريما» وصارت تنزل إلى النهر؛ لتستحمَّ في الصيف قرب الشمية بقميصها التحتاني، بينما تضمُّ ذراعيها على صدرها عند الخروج من الماء؛ حتى لا يلمح أحد صدرها المكبل خلف طيات القميص الستان، وهي تجري كغزال لتتوارى خلف شجرة لتغيير ملابسها.

كبرت «ريما» وأصبحت أخاف أن أحتضنها ونحن نلعب، وباتت خالتي «حليمة» تخاف عليها أيضًا من اللعب معي أو من ركوبي الفرسة خلفها وهي ذاهبة لقضاء بعض حاجاتهم

من السوق.

حاصرنا الكبار؛ لأننا كبرنا مثلهم، ودبّت في أجسامنا الغضة، شهوةٌ تشبه شهوتهم المسعورة.

انطويث على نفسي أكثر بعد وفاة جدي، ولم أعد أذهب إلى «الشمية»، لكن خالتي «حليمة» كانت ترسل لي ما تعودت أن ترسله لجدي من حليب العنزات الصابح، وكانت أمي تقول: مش عارفة بتشربه ازاي دا يا «مروان»! «زفر» يا ابني، الله يرحمه جدك هو اللي شرّبك اللبن دا، ومن يومها وإنت دماغك ناشفة، وما بتعملش غير اللي على مزاجك زي جدك الله يرحمه.

مرّت الأيام سريعًا، وانتقلت للمرحلة الثانوية، ومن حجرتي الصغيرة في بيت جدي كَحّال إلى شقة مشتركة لدى سيدة طيبة في المركز قرب المدرسة الثانوية العسكرية، كانت الأيام الأولى في المدينة طويلة ومرهقة، كنت أقضيها في الدراسة والمذاكرة، ولا يقطعها سوى الذهاب للمستشفى؛ لأخذ حقنة البنسلين طويل المدى كل أسبوع، ثم كل شهر كما أمر الطبيب، وسماع «الصواف» ثم «نديم الراوي» الذي تعرفت عليه مؤخرًا من أحد أصدقائي على الغداء في مطعم

«المغربي» في الشارع التجاري بالمركز، والذي كان يقدِّم وجبة الخضار المشكَّل أو الكفتة مع الأرز، مقابل مبلغ خمسين قرشًا، أخبرني صديقي أنه طلب شريطًا لأحد المطربين من بائع الأشرطة، فأتاه الرجل بواحد لـ«نديم الراوي»، كان صديقي حزينًا للغاية؛ لأن الرجل «غالطه»، وقال له بحدة:

أنت طلبت «نديم الراوي» وأنا جبته زي ما طلبت.

قلت لصديقي حلًا للمشكلة: سوف أشتري منك أنا الشريط، وأعطيك ثمنه؛ لتشتري أنت شريط مطربك المفضل، بشرط أن تُقرضني جهاز الكاسيت من وقت لآخر؛ لأسمع «نديم»، كنت أحب لـ«نديم» وقتها أغانيه عن المدينة والقمر والليل والسفر، وكل هذه الأغاني كتبها شاعر واحد.

تذكرت وقتها «يونس الصواف» الذي أتعامل مع كلماته بميزان حساس، وكنت أسأل جدي عن بعض الكلمات والرموز في المواويل الصوفية، إلا أنني ورغم رداءة تسجيلاته وقتها وندرتها كنت أطلب من بعض أهل البلد من سمِّيعته أن يفسروا بعض الكلمات غير الواضحة، وكان عم «عبده» و«ريما» من مصادري، فـ«ريما» وحدها كانت تحفظ الموال

فور سماعه من أول مرة، كانت ذكية ونجيبة مثل عيونها السوداء، فسَّرت لي «ريما» يومًا معنى «وآل البيت عملوني برق لامع أخطف النني» في موال لغة العيون، وقالت لي إن اللي يمدح النبي وآل البيت بيبقى زي النجم في السما بيخطف الأنظار، وقالت: فيه شيوخ كتير زي «يونس»، وكل واحد بيبقى نِفسه أكتر الناس يروحوا يسمعوه، خاصة في الموالد الكبيرة.

كنت أحسد «ريما» أنها حضرت معه موالد كبيرة مثل «السيد البدوي» و«الحسين» و«سيدي إبراهيم الدسوقي» و«السيدة زينب»، حيث يقيم كل مداح خيمةً خاصةً به، ويتنافس الجميع في محبة آل البيت وضيوفهم من جميع أنحاء المحروسة.

هكذا وبعد «الصواف» الذي يحتل مكانة كبيرة توطدت علاقتي بصوت «نديم الراوي» الوافد الجديد على قلبي وسمعي، والغريب بصوته وإحساسه وكلماته التي تختلف عن السائد، والغريب أيضًا بمنتجه الفني الذي أسمعه الآن وأجنُّ به.

أخذني عالمي الجديد، فانشغلت تمامًا ولم أعد أرى «ريما»

كل صباح كما كنت، حتى كانت ليلة مولد سيدي «الكَحَّال»، وجدتُها تنتظرني بلباسها المطرز بالورود الحمراء والخضراء، وحلقها الطارة، وشالها الحرير، وطابع حسنها الفتان، وغمازات خدودها الحريفة الحلوة، قالت لي بعتب شديد:

- كدة يا مروان ماعدناش نخطر على بالك؟

- لا يا «ريما» بس الدراسة خدتني.

- الدراسة ولا بنات المركز الحلوين؟ أنا ساعات بروح مع أبويا وأشوفهم ماشيين «يتقصعوا» في الطريق وهما رايحين المدرسة.

- إنتي أحلى منهم كلهم.

- والنبي؟ طيب الله يجبر بخاطرك.

ثم قالت في دلال أعهده:

- طب تعالى أشوفك زي زمان، هستناك مع طلعة الشمس عند الجميزة في «الشمية» نفسي أتكلم معاك.

ظل «يونس الصواف» يغني في هذه الليلة حتى مطلع الصبح، لكنه طالعني وأنا جالس أمامه كالعادة وأشار لي من بعيد كعادته: اسمع يا هذا: خمورجي سهران وطول الليل في إيده الكاس

ولما شرب انطرب حصل في جسمه ماس(4)
لبس الخيش ضحكوا عليه الدروايش

بعتت له الرئيسة أم هاشم عشرة الحراس

واتنين دكاترة في علم الحب والإخلاص

ولما عرف الحقيقة داس على الدنيا بمداس(5)
قام صلى فرض الإله وبعد عن كلام الناس

بقى نايم في بيته وفي الكعبة يشوفوه الناس

بعد الحفل سألني «الصواف»:

- عامل إيه في الدراسة يا كَحّال يا صغير؟

- ماشية الأمور.

- شد حيلك عايزينك تشرّفنا.

- إن شاء الله، بس تعمل لي ليلة كبيرة لو نجحت في الثانوية العامة.

أشار إلى عينيه وقال:

- من العين دي قبل العين دي.

ودّعث الشيخ عند سيارته «البيجو» مع شروق الشمس، واتجهت إلى «الشمية»، كنت أشتاق إلى «ريما» جدًا، وجدتُها جالسةً تحت الجميزة العتيقة التي تلقي بأغصانها على الشمية، فتزيد من غموضها ورهبتها، أشارت بيدها:

- تعالى هنا جنبي.

اقتربتُ منها حيث كانت جالسة مسدلةً شعرها الكاحل كله على جسمها والشعر الطويل المموج واصل إلى الأرض، ترمي إلى الماء ببعض الحصى في وتيرة متكررة، جلست إلى

جوارها في صمت أيضًا، واتخذت بعض الحصى، وجعلت ألقي الواحدة تلو الأخرى، قالت:

- سمعت الحتة الجديدة اللي قالها «الصواف» امبارح؟

- إيه؟

وقفت وغنت بطفولة كنت أفتقدها:

يا بنت خديني جنبك عشان ارتاح

قالت لي حاسب ورايا عسكري وف إيده سلاح

قلت لها اسمك إيه؟

اسمك سكينة ولا رقية ولا ماما سماح(6)؟

قالت لي مش هقول لك على اسمي لترتاح

هو انت شغال موظف يا وله ولا انت فلاح؟

قلت لها فلاح بفاسي والصبر مني راح

الناس نايمة في بيوتها

وأنا اللي ماشي.. في البلاد سواح.

جلست «ريما» بعد أن تهدّج صوتها في مقطع «في البلاد سواح»، وطلت من عينيها دمعة، وقالت: كلها كام يوم ونرحل من بلدكم، صاحب الأرض قال خلاص إنه عايزها، ومش هيأجرلنا تاني، يعنى كدة خلاص يا مروان ممكن مانشوفكش تاني؟

- ماتخافيش يعنى هتروحوا فين؟ أكيد أي بلد هنا جنبنا، ويمكن ماتمشوش خالص من البلد.

قالت بحزن: شوفت «سميرة» امبارح وهي بترقص مع الغوازي؟ أبويا خلاها تعمل كده وأخد منهم فلوس، وأمي بتقول: إن بكرة أنا كمان ييجي عليّ الدور وأبقى غزية، أبويا خلاص ما بقاش يهمه إلا الفلوس.

- معلش يا «ريما» مين عارف بكرة فيه إيه.

- وإنت كمان بكرة تروح الجامعة في مصر، ومتبقاش فاضي تبص وراك حتى.

- ياه الجامعة، تصدقي عمري ما فكرت في الحكاية دي، أنا نَفسي مش عارف نِفسي أبقى إيه؟ على العموم لما يحين أوانها أبقى أقولك.

- يا عالم هشوفك تاني ولا لأ؟

- طول ما «يونس الصواف» عايش هشوفك، أبوكي مضروب بـ«يونس» زيي وزيك تمام.

- يعني هتلف وراه في الموالد عشان تشوفنا؟

- لو حكمت هلفّ.

- ولو محكمتش؟

- هتفضلي جوايا لحد مانتقابل تاني.

ثم قلت لها وأنا أخلع ملابسي وسط صمت المكان ورهبته:

- أنا هنزل الشمية.

قالت وهي متشبثة بذراعي العاري:

- لا بلاش يا روح أمك دي مسكونة(7) أخاف عليك يحصل لك حاجة.

- حاجة زي إيه؟

قفزت في الماء دون تردد، وسبحت في سعادة غامرة.

صاحت:

- أنا هنزل معاك لاحسن تغرق، يعني هعمل إيه لو حصلك حاجة دلوقتي؟ وأقول لأمك إيه؟

وألقت بنفسها خلفي في قميصها الشفاف الأخضر، الذي ما أن لامس الماء حتى تكشفت أمامي مكنونات جسمها الفائر، اقتربت «ريما» مني وهمست: تعالى نطلع لنغرق ولا الجنية تاخدنا.

ضحكت بصوت عالٍ ثم غُصت في تحدٍّ لتلك الأساطير، وكان الجميع يغطون في نومهم بعد ليلة «الصواف» الطويلة، وكأن الدنيا قد منحتنا هذا الساعة الصباحية لنكتشف فيها أنفسنا، ولنقهر ما استبد في قلوبنا من رعب من فزاعة الشمية وأسطورتها المرعبة، فقد كانت المياه صافية وراكدة خالية من التيارات، تشبه لبركة ملكية كانت تستحم فيها ابنة الفرعون قلت لـ«ريما»: أمي بتقول عليكي بنت ملوك.

- ملوك! لو كنا بنات ملوك مكناش انطردنا، إحنا ماشيين في البلاد سواحين، إحنا غرباتية يا «مروان».

اقتربت منها محاولًا طمس هذا الحزن في عينيها وتكحيلها بالفرحة حتى ولو للحظة قبل الرحيل الحزين، قبّلت عينيها وجبينها، ومسدت شعرها الناعم، فقبّلت خدي برفق، ثم وجهي وشفتي، ثم تمادت في اجتياح رهيب، ما جعلني أستسلم لقبلاتها في فمي وخدي وجبيني ورقبتي، فكانت بالفعل بين ذراعي، لكنها هي من تحتويني، كنت كالمسحور في يديها، كالمحموم الذي ينازع في طلب الرحمة من حمًى نهديها الساخنين، لم أكن أفيق إلا على ارتعاشة من جسدها أو هزة عنيفة من جسدي، في تواصل غاب عنه الزمن، فلم

نكن نسمع فيه سوى آهاتنا وأنفاسنا المحمومة مع صوت العصافير وغناها، بعدها صعدنا إلى الشاطئ، تركتني وراحت ترتدي ثوبها المطرز خلف شجرة، ثم جاءت وفي يدها سلّة بها بعض التمر والفاكهة والفول السوداني، جلسنا نأكل في صمت، حتى غافلتني ودست في فمي قرنًا حاميًا من الفلفل الأحمر قطعته من شجيرته، صرخت كالأطفال:

- حرام عليكي يا «ريما» لهلبتي بُقي.

ضحكت وهي تسخر مني وتقول:

- يا بنوتة.

ثم جرت مسرعة، وحلبت إحدى العنزات، وجاءتني بالحليب، وأنا جالس أصرخ ما زلت، صبّته صبًا في فمي كطفل صغير، وقالت بحنية لا أنساها:

- فديتك يا عين أمك، يا روح قلبي من جوه.

قلت لها وأنا أمسح دموعي:

- إيه الكلام الحلو دا؟

ثبتت نظرها في الأرض وكأنها تكلم الحصى مرة أخرى، وقالت:

- لما كنت تيجي عندنا وتنام وإنت صغير، كانت «سميرة» تحطك في حجرها، وأنا كنت آجي جنب راسك وأحط وشي في وشك عشان أتنفس من نفسك اللي طالع، وكانت أمك تيجي تدوَّر عليك بالليل، ولما تاخدك كنت أنام مكانك في حجر «سميرة» اللي لسه دفيان مطرح نومتك الهادية، ولما كنت تمسك المشط وتسرح لي شعري بعد ما نطلع من المية وكانوا العيال يتريقوا عليك ويقولوا لك يا بنوتة، كنت أبص في عينيك وألاقيك مركز معايا، ومش داير بالك لكلامهم، وأقول مفيش حد في حنيتك عليا، كنت تسيبهم يتكلموا وتروح جنينة «زهران» تجيب لي زهر اللمون، وترشقه في شعري وتفركه في كفوفي وتقولي شمي الريحة، كنت آخد نفَسي وأملى صدري من ريحة الزهر، وأقول ربنا ما يحرمني من قلبك الحلو، وقالت أيضًا: عندي ليك كلام كتير كل ما أشوفك هقولك منه حبة، عشان حاسة إنه هييجي يوم والكلام دا هيخلص، ولو ماتقابلناش تاني هتلاقيني في الحلم اللي في عيونك، وفي العيون اللي بتحبك، والقلوب

اللي بتشيلك جواها.

ودلوقتي قوم خد الشال دا وخليه معاك عشان تفضل فاكرني، وروح لأمك زمانها قلقانة عليك لو عرفت أنك هنا معايا هتحصل حريقة، وإحنا خلاص ماشيين وسايبين البلد.

ودّعتها بقبلة فوق جبينها وكفَّيها، ومضيت عاجزًا عن فعل شيء، ونظرتُ إليها من أعلى الجسر القديم، كانت لا تزال جالسةً ترمي الحصى في الشمية، وتغني وكأنها تعدِّد:

«يا خوفي من أمك لتدوَّر عليك

لاحطك في عيني واتكحّل عليك

يا خوفي من أمك لتدوَّر عليك

لاحطك في شعري يا عيني وأضفر عليك

يا خوفي من أمك لتدوَّر عليك

لاحطك في صدري يا روحي واللولي عليك»

تمنّيتُ يومها لو أن لي بيتًا ملكي وحدي، وأعطيتها مفتاحه تأوي إليه وقتما تريد.

بعد أيام رحلت «ريما» ومعها جزء كبير من قلبي وجزء مهم من عمري، ورحل الأغراب بعنزاتهم وفرستهم الكاحلة التي تمنيت يومًا أن أمتطيها لو لمرة واحدة، و«ريما» جالسة خلفي ممسكة بي.

وقف أهل البلد يبكون لرحيلهم، ويسلّمون عليهم في ألم بالغ، ووقفت أتابع «سميرة» و«ريما» وخالتي «حليمة» وهم ينتحبون من البكاء، وكان صوت «الصواف» وحده هو من يؤنسني في هذه اللحظة، ويأتينى من سيارة النقل الكبيرة التي تقلُّهم كما تقلُّ عمال التراحيل، وهو يقول:

«أنا عيان خدوني معاكم «أحديلكم ورا البلي»(8)
من كتر شوقي لقيت نور النبي بانلي

قالوا لي إنت عيان ومالكش شوق ويانا

وأعزل بقى مطياك لتعدي مطايانا

وحياة مقام النبي وعيونه نعسانة

ما يعمر القلب إلا ذكر مولانا»

مرّت الأيام سريعًا، وحصلت على الثانوية العامة، وأقام لي الشيخ «يونس» ليلة كبيرة، بحثت فيها عن «ريما» التي خالفت الوعد، ولم أرها في تلك الليلة ولا في كل الليالي التي تلت ليلتي، وكأن ما حدث معي يوم الشمية كان الوداع الأخير، يوم أن منحتني كل ما تملك من مشاعر فاضت بها روحًا وجسدًا، حتى أغرقتني في سحر شميتها، فمضيت أردد كلما تذكَّرتها:

«كواتيني يا «ريما» وفايتاني عليل على مين؟

قالت أداويك يا حبيبي بس حق الدوا على مين؟»

«يا بنت يا محيرة قلوب الناس

يا سلك بيضرب خطر عمل حداهم ماس»



٣

كنا نسير جنبًا إلى جنب أنا و«فريدة» لأول مرة بين جنبات المعهد، وكانت «فريدة» ابنة حي الزيتون ترتدي الجينز والتي شيرت في راحة وحرية، بينما كنت وقتها الوافد الريفي بمظهره البسيط وحلمه القادم إلى القاهرة؛ ليداعب عالم الشهرة والانطلاق للوصول لصوت «نديم الراوي» الذي أعشقه، حتى إن أمي كانت قد لاحظت وقتها تغيرًا كبيرًا في شخصيتي، فكانت عندما تجلس أمام منزلنا في جلسة صباح عائلية كانت تقول بكل فخر الواد بتاع «يونس الصواف» والموالد واللف ورا الغوازي ما بقاش يحب يسمع غير الناس اللي «مبتضحكش»، وكانت تقصد أولئك الجادين في وقفتهم على المسرح من أصحاب المشاريع.

كنت أسير بجانبها أسترق بعض النظرات، وأحلم بأول كلمة حب لقصة بادئة للتو، على الأقل من جهتي، كان المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بحي القللي وقتها شديد الزحام، قبل أن ينقلوه إلى مقره الحالي بمدينة نصر، والزحام كان مُربكًا والمحاضرات كانت ثقيلة على النفس في بدايتها، عالم جديد دخلته لإكمال مشروع تعليمي غير مُقنع، فقد كانت

الثقافة العامة بالنسبة لي هي الحلم الذي أسعى إليه، وكنت أردد وقتها: إحنا بنتعلم عشان المجتمع يقول دول اتعلموا، أما الثقافة فكانت حاجة تانية.

في ساحة المعهد الخارجية أخرجت «فريدة» من حقيبة يدها جهاز «الووكمان»، وبدأت تُسمعني بعض أغانيها المفضلة في شريط «كوكتيل» من اختيارها، لم أجد بينهم أغنية واحدة لصوتي المفضل.

- مفيش غنوة لـ«نديم الراوي»؟

- ياه.. إنت من بتوع «نديم الراوي»؟

- أيوه.

كنت مشغولًا وقتها بحكاية «نديم» الذي كان يعاني تهميشًا إعلاميًا فجًا، وهجومًا متتاليًا من «خالد الجارحي» الشاعر المعروف الذي يدير حفنة من النقاد؛ لتشويه «نديم» وتجربته المختلفة، وكنت أنا وقتها أسمع الأغاني بشغف، وأدوِّنها، وأحاول أن أقلِّد أسلوبها، كنت منبهرًا بـ«طه القاضي» ورفاقه، وكنت أراه النموذج الأمثل والحي لكتابة

الأغنية الحديثة، وإلى حد كبير ظلَّ هذا رأيي لفترة طويلة، شغفت ببدايته وحكايته المعروفة في منافسة الشعراء الكبار وحكاية «ليديا»(9) تلك الحبيبة التي تنافس على حبها مع «خالد الجارحي» الذي سعى بكل ما لديه من حيل أن يتزوجها؛ نكايةً فيه، لكنه فشل حين أصرَّت هي على اختيار طه.

تأثر «طه» بوالدته صعيدية الأصل وأغانيها الفلكلورية فوق سطوح بيتهم في الجيزة، وخدمته الصدفة حين التقى «نديم» في الإسكندرية، وحلما معًا بمشروع غنائي كبير، كان «نديم» عنوانًا له بالطبع؛ لكونه الأكثر حضورًا في التجربة، فمثلما كانت أغاني الأم الملهم الأول لـ«طه»، كانت دعواتها سببًا في اكتشافه فيما بعدُ على يد الشاعر «حمدي شريف» شاعر الفصحى المعروف الذي تعثرت قدماه في موهبة «طه» في أحد مقاهي الجيزة، وقال له عندما رآه يومها: أنا كمان بكتب شعر (كان يقصد مثل «خالد الجارحي») وبكتب أغاني، لتكون مجلة «حديث الصباح» محطته فيما بعدُ للانطلاق والصعود.

في لقائي التالي بـ«فريدة» أحضرت معها شريطًا قديمًا لـ«نديم»، وبدأنا نسمع بالووكمان مرة ثانية، وكان هذا

الشريط بمثابة الاكتشاف، حيث استقبلت أذني كلمات جديدة بجرعة مكثفة شديدة الحضور، ما جعلني فيما بعد أبحث عن «طه» بعمق وأتمنى أن أقابله.

يومها خرجنا من المعهد إلى الكورنيش، كانت القاهرة في بداية التسعينيات مدينة مُرهَقة لا تعرف النوم، وكانت الموضة وقتها البنطلون الباجي، وهو بنطلون يشبه إلى حد كبير الجينز، وكانت ظاهرة الكوتشي والبلوفرات المنفوشة والبنطلونات ذات الكُسر عالية الوسط، وقصات الشعر على طريقة «البانكي» تنتشر بين معظم الطلاب، هواء الكورنيش عند ماسبيرو في ذلك الصباح كان منعشًا، والشمس ساطعة إلى حد كبير، نظرت بعمق لأول مرة في عيونها الغريبة، والتي أجمع الكل داخل مدرّج المحاضرات في جلسة «ذكورية» على أنها غريبة، فكانت تجمع بين اللون الأخضر والعسلي والبنفسجي، وتحيط بدائرة العيون هالة بنية كعيون القطط، كانت واسعة ومتغيرة حسب درجات الإضاءة، لدرجة أن أحد الزملاء وقتها أراد أن يثير غيرتي فقال: إنت بتبص في عينيها إزاي يا كحّال؟ أنا بدوخ لو ركزت معاها دقيقة! فقلت باستهزاء:

- خلاص ماتركّزش.

وغنّيت ليلتها مع «يونس الصواف» في مولد سيدي الكَحّال في بلدنا: «فيه عين تعز وعين توز وعين تهز الهلال مني، وعين جمال وعين دلال، وعين تهنني، وعين تلبِّي وعين تربِّي وعين تخبِّي، وعين تكلمني، وعين فيها النني والنني كلمني، بقى مني، جرح الهوا نني، وآل البيت عملوني «برق لامع» أخطف النني، وعين حريقة وعين جريئة وعين تهمِّلني، عين تشرَّق وعين تغرَّق يا رب سلِّمني».

«يا لايم المبالي في الحال تعالى زورهم

لو شوفت حالهم على حالهم هتعذرهم»

٤

حكيت لأول مرة لـ«فريدة» عن بدايات «نديم»، وكيف استقبله «طه» في بيتهم بالجيزة، وأقام عنده، وكان «طه» يصحبه ويدور به على الملحنين والشعراء؛ ليلتقط منهم بعض الأغنيات، وكيف كانت بداياته، وكيف ثبَّت قدميه في عالم الأغنية مع رفاقه من الملحنين الذين التقاهم لأول مرة في بيت والد «ليديا» بالجيزة، ولأن «طه» كان مهمومًا بالغنوة أكثر من القصيدة، لم ينشر إلا عددًا محدودًا من الدواوين.

كان «طه» قد قدَّم وقتها الكثير من الأغاني لكبار المطربين والمطربات، وظهر اسمه بجلاء، وتغنى بها أشهر المطربين والمطربات.

سألتني «فريدة» في شغف لمحته في عيونها: هما ازاي قدروا يقدِّموا «الراوي» بعد مرحلة «عبد الحليم» والعمالقة من الجيل دا؟ وكانت «فريدة» عاشقة لـ«حليم» إلى حد الوله، كانت تحب مرحلة «بليغ حمدي» و«محمد حمزة»، وترى أن أغنية «أي دمعة حزن لا» هي الأغنية المُكتملة في

تاريخ «حليم»، وكنت أشفق عليها من هذا الرأي وأردد: إنك تقرأين «حليم» من على السطح، وكانت بطيبة تستوعب غرور معلوماتي وآرائي التي كانت صادمة في هذا التوقيت.

اكتملت الصورة في مخيلة «نديم» و«القاضي»، الذي أدرك أن مصر بعد «عبد الحليم» كانت تعاني من سيادة اللون «السعودي»، نعم اللون السعودي في الغناء، قبل أن يسمى خليجي، جلبه المصريون معهم من غربتهم هناك، فأصبح منتشرًا جدًّا في الكباريهات وشارع الهرم وسوق الكاسيت، يغنيه من كل هبَّ ودبّ، وكان المجتمع وقتها يبحث عن شكل جديد في الغناء، وكانت هذه فرصة لظهور عدد من الفرق الغنائية التي مالت في موجتها الأولى إلى التغريب، وخاصة الغناء الأمريكي، وبشكل خاص «الغناء العبثي».

كان نجم «نديم» قد بدأ في البزوغ وسط هذا الحشد من الذاهبين في اتجاه تجديد المزاج العام في الغناء المصري، من السعودي إلى المصري، ومن الأغاني طويلة الزمن إلى أغنية لا تتجاوز الخمس دقائق.

استسلمت «فريدة» لكتفي تمامًا عند الكورنيش وهي تسمع مني حكايات «نديم» و«طه» و«ليديا»، فتسللت خلسةً،

محاولًا لمس خدها الناعم، الذي تورّد حمرةً مع أشعة الشمس.. كانت لمسة لا أنساها، وقتها ابتسمت، وقالت في هدوء:

- أنا صاحية، بس سرحت في كلامك، ثم فجأة قالت: تعرف يا «مروان» إن أغنية «علميني الصبر» اللي سمّعتها لي من كام يوم تنفع لـ«نديم»؟ ضحكتُ وقلتُ لها:

- أنا فين وهو فين بس؟

- في يوم من الأيام هاسمعه وهو بيغني لك، وهستنى المذيع بعد الغنوة وهو بيقول من ألحانه وكلمات «مروان الكحال»، غنى «نديم الراوي» أغنية كذا، وهتشوف.

- يسمع منك ربنا.

لم تكن تفصلني عن عالم «نديم» السحري أية مسافة، إلا مسافة كبيرة كانت بداخلي، كنت لم أقرر عبورها بعدُ، وكنت لا أعرف الطريق ولا الطريقة، والحكاية كلها مجرد خواطر وأحلام مرتبكة، ستأخذ وقتها للنضج والصعود خطوةً بخطوة، وكنت أظن أن أول خطوة في ذلك الوقت هي

الوصول لقلب «فريدة» ملهمتي التي من أجلها سأكتب الأغاني.

لم تستقبل القاهرة «نديم» في أعماله الأولى بقلب رحيم، فانطلق من محطات أخرى متعددة؛ منها المسرح، وضمَّ إلى «طه» شعراء جددًا كان «طه» يعتمدهم بنفسه، ويرحّب بهم في التجربة بروح صافية، وعمل «طه» طوال الوقت من أجل توصيل «نديم» إلى الصفوة الثقافية التي كانت لا تزال ترضخ لسطوة «حليم»، رغم انسحابه من الساحة ووفاته التي أحدثت ألمًا شديدًا لعدد كبير ممن كانوا يعيشون على ضفاف حنجرته.

كان «نديم» -ابن الإسكندرية المولود في منتصف الخمسينات لأب مصري وأم يونانية، الوافد إلى القاهرة- يعرف خطواته جيدًا، يبحث فقط عن نفسه، ويسأل سؤالًا واحدًا طوال الوقت: هل أنا مغنٍّ أم فتى وسيم بشعر أصفر وعيون خضراء؟ كانت الإجابة دائمًا تأتيه من «طه» صديق البدايات:

- مغنٍّ وتعرف طريقك للوصول للناس، وتدرك تمامًا أن الكلمة هي مفتاح الوصول، كل ذلك أكد أن لقاءه بـ«طه

القاضي» كان إعلانًا صريحًا بأن السماء راضية عنه، وأن السيدة اليونانية العجوز ذات القلب النابض بالحياة قد دعت له ذات ليلة دعوة فُتِحت لها أبواب السماء.

بدأت «فريدة» تبادلني الجنون والشغف بصوت «نديم»، والعمل على الكتابة له، فأهدتني فجأة عددًا خاصًا من مجلة «حديث الصباح» به حوار طويل معه، وكان الحوار بتحريض من «حمدي شريف» الذي كان يشغل وقتها منصب رئيس التحرير، والذي التقى «نديم» في بيت والد «ليديا»، حيث وجد فيه ثورة جديدة على من أسماهم فيما بعد «العالقين بحنجرة حليم».

«حالي فيك يا صاحب الحال هو حال ولا محال؟

ولّا الحب بيغيّر الأحوال؟»

٥

مع الوقت أصبحت حكايتي مع «فريدة» مثار غيرة وشك وإعجاب بعض الزملاء داخل المعهد، حتى إن إحداهم (مريم) راقبتنا، وتتبعت أثرنا ذات صباح في رحلتنا اليومية إلى الكورنيش بين المحاضرات، رأتنا «مريم» ولم تتكلم، ولمحتُها ولم أخبر «فريدة» بشيء عنها.

كانت هذه أول مرة أمسك بيدها الناعمة ذات الأصابع الطويلة الحلوة، التي كنت أتغزَّل فيها كثيرًا، وأنا أحكي لها قصة «فؤاد المهندس» مع الأصابع، قال الرجل مرةً في حوار له، إنه كان من أشدِّ المعجبين بـ«فاتن حمامة»، وبجمالها منقطع النظير، وخاصة بأصابعها وبيدها البيضاء، التي أقسم أنه لم يرَ مثلها، وكان للأمانة غزلًا عفيفًا في إطار الحوار، لكنه تغزَّل صراحة «في حوار آخر في جمال ساقي زوجته (وقتها) «شويكار»، تضحك «فريدة» كثيرًا من مثل هذه الحكايات، وتناديني «سبعاوي» نسبةً إلى دوره العظيم في فيلم «عيلة زيزي»، فكنت لا أحدثها إلا في الشعر أو الأغاني أو عن «الصواف «أو «نديم الراوي» مستمتعًا بلعبة «سبعاوي» لأضحكها حتى بات هذا السبعاوي رفيقًا لي.

كان إعجابي بـ«نديم» مثل أعجاب أغلب الشعراء به، كنا نحب فيه أنفسنا، ونرى أنه الوحيد القادر على توصيل بعض أفكارنا، والتي تحمل أبعادًا مختلفة لا يتحمَّلها إلا صوته، وكان الوحيد ومعه القليل التي تقبل أصواتهم تلك المساحة المبهرة من تعددية الأفكار.

قالت لي «فريدة» فجأة: تعرف إن اسمك حلو؟

- «مروان»؟!

- لا.. «كَحَّال».

- دا اسم جدي، وهو امتداد لاسم عارف بالله اسمه سيدي «الكَحَّال، له مقام كبير في بلدنا، وقد حاولت لأكثر مرة أن أبحث عن أصل كلمة «الكَحَّال»، وعرفت أن الكَحَّال طبيب كان يداوي العيون بالكحل، ومهنته تسمى «الكِحَالَة»، ومن الجائز أن يكون جدي الكبير قد عمل بتجارة «الكُحل»، لما كان الكحل يأتي من بلاد الحجاز، ثم ابتسمت قائلًا: ويمكن عشان كده أنا بحب «الكُحل»، وبكتب عنه كتير في أشعاري، هو والعيون الحلوة، مشيرًا إلى عينيها.

فقالت وكأنها تستطعم الاسم: «كَحَّال»، ثم تنغمه: «كَحَّالي»، ثم قالت وهي تشير إلى نفسها: «كَحالي» قلت:

- دا معنى صوفي دا!

- مش عارفة.

فقلت مُطالعًا حلاوة عينيها:

- «حالي فيك يا صاحب الحال.. هو حال ولا مُحال؟ ولا الحب بيغير الأحوال؟

- أنا برضه اللي صوفي؟

- الكلام دا لـ«يونس الصواف» مداح مشهور بيغني في البلد عندنا في الموالد، وأنا من عشاقه.

كتبت لي «فريدة» يومها في كشكول المحاضرات: «حالي كَحَّالك».

سألتها مباشرة وأنا أشير إلى قلبها: فيه حد هنا؟

احمرَّت البنت الشقراء ذات العيون المرحة شديدة الجذب وقالت بخفة روح وخجل:

- مش عارفة، بخاف من الحب بشكل عام.

- وأنا مش بخاف.. وبحبك يا «فريدة».

ابتسمت ووضعت وجهها في كفَّيْها، ولم تجِبني، فقط تكلمت بصفة عامة عن الحب، لكن كان في العيون وحمرة الخجل ما يفضح مكنون المشاعر تلك، فلم أغضب من مواراتها، فقد كنا وقتها صغارًا في العشرين، وكان بعضنا لا يزال يجهل المعنى الحقيقي للحب.

كان لي عالمي الخاص، في شقتي التي انتقلت إليها منذ بداية الدراسة بدوران شبرا، والتي استأجرتها لتكون قريبة من المعهد، غارقًا في القراءة، ومولعًا بجيل كامل من الكتاب والمفكرين بينهم «حمدي شريف» الذي أحبه شاعرًا ومفكرًا وداعمًا للمواهب الشابة، فكانت القراءة والراديو هما سلوتي الوحيدة، وقلت في نفسي: لماذا لا أراسل «حمدي شريف» على الأقل أطلعه على بعض أشعاري.

رحبت «فريدة» بالفكرة، وتحمَّست لها، لكنها ظلت كلما صارحتها بحبي تتهرب، ولا أعرف لماذا كانت خائفة؟ كنت أطمئنها بكل الطرق، وأبعث لها كثيرًا من الرسائل في أشعاري، ناقلًا ما تفيض به روحي، أغني لها كما لو أن الأغاني قد صُنِعت لها بصوت «نديم الراوي» الذي أحبه، وكانت الأفكار وقتها تتدفق من مجرد نظرة عتاب أو شجن بسيط، سببته لي هذه العيون الرائقة أو تسببت فيه.

قلت لها مرة أن «عبد الوهاب» كان يتغزل في عيون «نهلة القدسي» (زوجته)، عندما سأله أحدهم في حوار قال: «لم أر سوادًا كلّله النور كسواد عيني زوجتي «نهلة» وكان يقصد أن عينيها كانت رائقة كعيونك يا «فريدة».

- تعرف إن عيوني دي عاملة لي مشاكل كتير.

- عارف.

فقالت لي بدلال: إنت نصاب يا كَحّال.

غنَّيت لها كـ«الصواف»، وأنا أتمايل مثل المجاذيب في حلقات الذكر:

الناس بيقولوا علينا خمورجية وشوارعية ونصابين

خمورجية: شربنا الكاس من إيد زين العابدين

شوارعية: عرفنا الشرع وأصول الدين

ونصابين: نصبنا خيامنا وع الأرض أهو احنا نايمين.

قالت مندهشة وهي تضحك من حركاتي: يا سيدي.

أرسلت عددًا من القصائد لـ«حمدي شريف» على عنوان مراسلات المجلة وجلست أراقب كل أسبوع عددًا وراء عدد، حتى قلت في يأس يبدو إنني لم أرقَ بعدُ لهذا العالم، حتى فوجئت بـ«فريدة» قادمة إلى المعهد ذات صباح بابتسامة عريضة لا أنساها، تحمل معها المجلة، وبها صورتي، وعدد من القصائد، وكتب «حمدي شريف» وقتها: «كحال.. شاعر جديد يحلم بالوصول للقمر»، وقفت وقتها في بهو المعهد أصرخ كالمجنون: وصلت يا ناس أسمى نزل في المجلة. وظل الطلاب يتبادلون المجلة؛ للتحقق منها، وكنت أنا و«فريدة» نبادلهم نظرات الفرح.

ليلتها لم أنم، وسافرت إلى أمي، وأخذت معي أعدادًا من المجلة، وكانت أمي تدور بها لتُطلع الجيران عليها في فخر عظيم، يومها أحضرت الشال الذي تركته لي «ريما» وأهديته لـ«فريدة»، وقلت لها: هذا الشال أغلى ما أمتلك، فرحت به «فريدة» جدًّا وبتطريزاته المصنوعة بحرفية عالية، وبدت في عيونها الأسئلة، فقلت لها: يومًا ما سأحكي لكِ قصَّته.

كانت «فريدة» تعرف أنى أحب الضفائر وأكتبها كثيرًا في شعري، فكانت عندما تكون راضية عني تجدل شعرها في ضفيرة ثلاثية كنت أقول لها: حلوة الضفيرة وحلوة العيون، فتُغيب وجهها بين كفيها تارة، ثم في صدري لأظل أبحث عنها، وأرصد تلك الفرحة الخجلى التي أرادت أن تواريها.

ربما كانت «فريدة» تخفي سرًّا لا أعرفه؟

مرَّ عامنا الأول بالمعهد، وخرجنا أنا و«فريدة» بملحق صيفي في مادة علم النفس، وكانت أول تجربة رسوب لي ولها في مادة، أخفيت الخبر عن أمي وقلت لها: نجحت، استمرت سنة مذاكرتي للصيف متعللًا بأني أقرأ، ما جعل الاتصال بيني وبينها مستمرًّا ومتوهجًا، كنت أسافر إلى القاهرة مرة أو مرتين في الشهر؛ لأقابلها، أو أمر أمام بيتها

لأراها من بعيد، أو أجلس على المقهى المقابل لشباك حجرتها علّها تظهر.

كان ذلك على عكس السنة الثانية لنا بالمعهد حيث ساد هدوء نسبي، وكانت الرؤية قد بدأت في الظهور، وكنت قد صالحت مع الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وبدأ الشغف بكل ما أدرسه، وكنت أحيط كل ما أدرس بقراءات متخصصة لكُتّاب أحبهم، أهديت «فريدة» مرة كتابًا رائعًا عن الزواج، كان كل ما في هذا الكتاب تقريبًا مقررًا علينا في مادة تحمل اسم «الأسرة»، كانت علاقتي بالكتب الجامعية علاقة جافة، وأحيانًا كنت لا أقرأ الكتاب إلا مرة واحدة طوال العام، قد تكون ليلة الامتحان.

«على باب سيدنا الحسين ولد مدبوح ودمه فيه

مدبوح بذكر الجلالة والروح لسه فيه»

٦

فاجئتني «فريدة» يومًا بغلق بعض أبواب حكايتها في وجهي، وفتحت لقصتي معها باب الغموض وباب العذاب وباب الابتعاد، بعد أن حذرتني من الاتصال بها في البيت؛ حتى لا يغضب والدها، وقالت: سأتصل أنا بك. وقتها بحثث عن سبب فلم أجد، فكنت أتسلل يوميًا من المعهد إلى معهد الموسيقى العربية الذي يبعد عنّا ببضع خطوات، أدخل لأسمع والتقي بالدارسين هناك، كانت تدور بيني وبينهم حوارات طويلة نتجت عنها صداقات، بدأت بـ«مدحت كامل رؤوف» الذي سيصبح فيما بعدُ رفيق مشواري، تعلمث معه هواية التسكُّع في شوارع القاهرة، تذكرت «ريما» وعبارتها الطيبة: فديتك يا عين أمك، يا روح قلبي من جوه، وتذكّرت الشال.

اختفت «فريدة» لشهر كامل، عرفت بعدها أنها كانت مريضة في أحد المستشفيات، زارها الجميع في بيتها إلا أنا، حتى جاءتني «مريم» -تلك الطالبة التي كانت تراقبنا- وبعض زملائها وقالت: لازم تيجي معانا نزورها، وفي بيتها بالزيتون كانت الجلسة ودِّية، رحّبَت بنا جدّتها التي كانت تلازمها أثناء الأزمة، حيث كان والداها ما زالا في العمل، وكانت زيارتنا في

وقت مبكر من اليوم، خرج الجميع بعد أن سلّموا عليها، واستبقتني جدتها وأخبرتني بأنها تريدني، فبقيتُ لدقائق، خرجت السيدة الطيبة وتركتني مع «فريدة» التي أمسكت يدي بقوة وقالت: ماتزعلش مني، ثم تركت في يدي ورقةً صغيرةً مكتوب فيها: «عايزة أشوفك.. ووقّعتها بـ«ديدا».

كان دلع «ديدا» سرًّا بيننا، فلم أكن أجرؤ على أن أناديها به أمام الزملاء، وكانت تعرف أنني من المغرمين بـ«فريدة فهمي» بطلة «فرقة رضا» وفيلم «غرام في الكرنك» وبقصتها الملهمة مع الفرقة، فأهدتني يومًا بوستر كبيرًا نادرًا لفيلم «غرام في الكرنك»، كان والدها قد اشتراه لها من بائع يفترش الرصيف عند مقهى «الأمريكين» بشارع «سليمان باشا»، وكتبت عليه: «فريدة بتحب الفرقة.. والفرقة هي البطلة».

بعد أيام تماثلت «فريدة» للشفاء، وعادت إليها ابتسامتها رغم الشحوب، وكنت أنا قد قررت الانسحاب والخروج من تلك العلاقة غاضبًا من تجاهلها لي في تلك الأيام، غبت عن المعهد لأكثر من أسبوعين، ففاجأتني بزيارة مباغتة في شقتي بشبرا، ارتبكتُ حين ارتمت في حضني كطفل صغير وبكت، كنتُ في قرارة نفسي أشعر بأن ثمة سرًّا وراء هذا

التحول، وراء هذه الزيارة الغريبة، وكانت عيناي يومها حيرى ومليئة بالأسئلة، وأخشى أن أصارحها بما في نفسي، لكن وجودها في حضني لأول مرة أنساني كل شيء، مسحت دموعها بشال «ريما» الذي كانت ترتديه لتصالحني، ثم انهمرتُ عليها بقبلات محمومة أفرغت فيها كل عذابات الفترة الفائتة، حتى انسحبت مني بخفة غزال، وهي تتنقل في شقتي لأول مرة، وتعلّق على بوسترها وعلى صورة «فريدة فهمي»، وتقول وهي تشير إلى الصورة: أنا كدة متطمنة عليك، إنت كدة بتعرف تحب وبتعرف تختار كمان، قلت لها: سبعاوي بقى، فقالت: تعرف إني بقيت أحب سبعاوي أكتر منك، فكان ردّي عليها: يا بخته، حتى قالت بدلال: وحشني المشي معاك، تعالى نخرج، خرجنا إلى الشارع، ومشينا مجددًا، أخذتها إلى معهد الموسيقى العربية، وهناك سمعنا «رؤوف» الذي فهم بذكاء ما نحن عليه، فسحب العود وغنى: «جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح»؟، وكانت نظراتنا تغني معه، وكان السؤال طارحًا نفسه بقوة على المشهد دون جواب.

بعد أيام سألتني «مريم» زميلتنا بجرأة شديدة: بتحبها يا «كَحّال»؟

كان السؤال مباغتًا، خطفني منها، وسألت نفسي وأنا أحاول أن أبتعد عنها، بعد أن تركتها بلا إجابة، ماذا لو كانت «فريدة» تخفي قصةً لا أعرفها؟ وما سرُّ مرضها المفاجئ؟ وما سرُّ لهفة اللقاء بعد هجران أوجع قلبي وجعلني أدور شريدًا في شوارع العاصمة لأيام؟

في اليوم التالي جاءتني «مريم» ثانيةً، تلقي في حجري ما عرفته من معلومات بعد سؤالها الغريب أمس وقالت: تعرف إيه اللي حصل مع «فريدة» اليومين بتوع مرضها دول؟، قلت في غضب:

- لا.

وقبل أن أغادر المكان أمسكت بذراعي وقالت: اسمعني بس، واستكملت: «فريدة» لها ابن خال بيشتغل في الخليج، وهي كانت بتحبه من صغرها، وشايفاه فارس أحلامها المنتظر، وقالت له إنها بتحبه مرة في رسالة، بس هو فجأة طلب من طنط سامية والدة «فريدة» إنها تساعده في الجواز من بنت تانية من العيلة مش «فريدة» اللي قال وقتها إنه بيعتبرها زي أخته.

فغضبت قائلًا: وأنا ما لي بقى بالحكاية دي؟

قالت «مريم» بطيبة كانت بادية في صوتها وعينيها:

- يا «مروان» أنت زي أخويا وأنا فلاحة زيك، يصعب عليا إني أشوفك كدة أيام وأنت بقالك فترة مرهق ومش متابع جدولك ولا تدريبك، أنت هتزعل مني أنا عارفة، بس إحنا خلاص في بكالوريوس، وكمان صعب أوي اتنين زمايل يتجوزوا بعض في الزمن دا، أنت مشروع شاعر مهم، واسمك بقى ينزل في المجلات، سيبها تروح لحالها وبص لمستقبلك، أنا نفسي يبقى لي أخ شاعر كبير وأفتخر بيه اسمه «مروان الكَحّال».

كنت وقتها قد اشتهرت في المعهد بشاعر «الكشاكيل»، فكان العشاق من الزملاء يكتبون أشعاري في كشاكيلهم، ويتناقلونها بالنسخ من بعضهم، وهو ما جعلني أقول: متي يا كَحّال يكون لك ديوان مقروء؟

شكرت لـ«مريم» هذا الإحساس النبيل، وفعلًا نبهني كلامها رغم الغضب، والتمست العذر لـ«فريدة» وقتها، لكني لم أغفر لها كتمانها، وكنت رحيمًا جدًّا معها، ولم أفاتحها في

الموضوع، وبدأت الانتظام في الدراسة مجددًا بروح أخرى، أكلِّمها أحيانًا، أشجِّعها وأسمع منها عبارات الغزل التي كانت تُسقطها برشاقة على «سبعاوي»، بينما كانت تتهرَّب منها في واقع الأمر.

دخلنا الامتحانات، وأنهيناها، كنت واثقًا من نجاحنا وحدث ما تمنَّيته، يومها بكيتُ بشدة، فلم أكن أتوقع النجاح رغم الألم، في الأيام التالية باءت محاولات «فريدة» بالفشل في معرفة سرِّ ابتعادي وصمتي وغموضي، وكنت أنا قد أغلقت ما تبقى من أبواب الأمل في وجه قصتنا، مُستقبلًا حياتي في كتابة الأغاني مع «رؤوف» قبل أيام من بدء حياتي العسكرية في صمت.

«سيب المبالي في حالها إيش م المبالي هتعوز

دا اللي ابتلى وصبر ع البلا هيروح النعيم ويفوز»

٧

لملمتُ بقايا قصتي مع «فريدة»، وانطلقت إلى صحراء شرق القاهرة، جنديًا في إحدى الكتائب التي كانت تستعد للمشاركة بقوات حفظ السلام الدولية بالبوسنة والهرسك، كان خيالي وقتها يسبقني إلى تلك البلاد الجميلة التي كانت مجلات القاهرة تنقل لنا صورًا من طبيعتها الخلابة قبل أن تدمرها الحرب، تمنيتُ لو أنهم رشَّحوني لأكون ضمن القوات المسافرة، لكني للأسف لم أرشَّح، واختاروا زميل دفعتي «فارس»، ذلك الفتى الأسمر فارع الطول المولود في إحدى قرى الجيزة، والذي لم يتلقَّ تعليمه، كان يعمل في طفولته كمزارع باليومية، وكانت بدايته بيومية جنيهًا وربع الجنيه، في جمع الفاكهة وتغليفها.

حكى لي «فارس» ذات خدمة ليلية على الحد الغربي للكتيبة أنه كان يحب الفراولة، ويعتبر الموسم الخاص بها عيدًا ينتظره كل عام، على الرغم من عمله طوال العام في جمع وتعبئة فواكه متعددة، وعندما سألته: لماذا الفراولة يا «فارس»؟ أجاب: كنت أحبها، وكانت أمي لا تستطيع أن تشتريها؟

شبّ «فارس» ليجد نفسه محملًا بمسؤولية أسرة مكونة من خمسة أفراد وأم رحل عنها زوجها مبكرًا، تحمّل «فارس» الحمل وتفرد في مسئوليته، زوّج أختين، وقدم شابين أحدهما لكلية الطب والثاني لكلية الهندسة، توأمان كانا، «علي» و«عبد الرحمن»، كان الاثنان قرة عين لـ«فارس» لا يتحدث عنهما إلا مبتسمًا.

في راحة الخدمة، جلسنا نغني «نديم الراوي»، كان «فارس» فرحًا جدًّا، وكان معنا «زياد» طباخ الكتيبة، و«إبراهيم الأسمر» ابن عزبة الصعايدة بإمبابة، والذي كان يجيد الضرب على الدف، وكان دفه وقتها «صفيحة» الماء التي تلازمنا في الخدمة! جلسنا نغني وأخذنا الليل، بكى «فارس» عندما غنينا «موال حنين» إحدى أغانيه الحزينة، وقتها طلب مني أن أكتب له قصيدة عن فتاة أحبها، ثم فوجئ بخطبتها من ابن الجيران في القرية، لم ترِقّ البنت لحال «فارس» اليتيم الذي يربي أيتامًا، والغريب أنها طلبت منه أن يتقدَّم لها لتثير غيرة صاحبها، انفطر قلب «فارس» من البكاء عندما حكيتُ له حكاية «بيجماليون»(10).

حكيت له أيضًا كيف أثَّرت الحكاية في الأدب والمسرح

العالمي، وظللت حتى الصباح أحكي لهم حكاية قصيدة «لا تكذبي»، وكيف كانت تشبه هذه القصة، وقصة «سارة العقاد»، وحكايات أخرى أبرزها «كارمن» و«تمرحنة».

يومها احتضنني «فارس» وهو يتمتم: وحياة أبوك وأمك الغاليين يا شيخ، لما تخرج من الجيش ما تنساني.

هزَّتني دموع «فارس»، وتذكرت وقتها «ريما» التي كنت أحكي لهم عنها كل ليلة، كنت أصفها كملكة، فقد تشابهات لحظات الفراق، وتذكرت «فريدة» التي لم تتشوَّه بداخلي، فكانت لا تزال تزقزق في صدري كعصفور صغير، وكانت في ليالي الجندية الأولى تسهر معي في الخدمة «الشنجية» ذات الأربع ساعات، كنت آخذها من يدي، ونطرق باب «نديم» في شقته بالزمالك، ونعرض الأغاني التي لحّنها «رؤوف»، كانت متحمسة ومقنعة، وكان «الراوي» يسمع منها في شغف، كان عطوفًا جدًّا معنا في كل مرة نذهب إليه، كان يأخذ كل الأعمال دون مناقشة، يطير بها، يدعو الملحنين الآخرين، ونقوم بعمل الألحان، ثم نوزِّع الأغاني موسيقيًّا، وفي كل مرحلة كانت «فريدة» معي، وكانت عيناها تلمعان من فرط سعادتها، اشترينا البيت الذي سنسكنه، بعد أن تعاقدت معنا شركة الإنتاج، واشترينا كل الأجهزة والفرش، أعددنا فرحًا

صغيرًا في شقتنا، وحضره «فارس» و«رؤوف» و«زياد» وجلس «نديم الراوي» يغني للعروسة، وكأنه يغني لمصر.

كنت أصحو دائمًا من تلك الأحلام التي كنت أخترعها لقضاء الوقت على صوت لا يتغير هو صوت الصول «سلامة» الأجش وهيئته العسكرية المتجبرة: إنت بتحلم وإنت ماشي يا عسكري؟!

فأردُّ بصوت عالي: لا وأنا صاحي يا أفندااام.

ذات صباح وبالقرب من حد الكتيبة الشمالي، حيث كنت أقف في الخدمة الشنجية بصحبة «فارس» ممسكًا بسلاحي، نشيطًا في مشيتي بمحاذة السلك الشائك وجدت فتاة تسير خلف قطيع من الأغنام كانت ترتدي ملابس سوداء مطرزة بورود كبير بالأحمر والأخضر، قلت في نفسي: ربما تكون خيالات صباحية، حتى اقتربت الفتاة من السلك، تساءلت: كيف وصلت هذه البنت لهذه المنطقة؟ ثم سمعت صوت «فارس» يأتي من خلفي: سيبها تعدي وما تتكلمش معاها، سألته: ليه؟ قال: ساعات بيكون فخّ لسرقة سلاح العساكر، قلت له: إزاي دي بنت شكلها مسالمة وطالعة على باب الله بشوية غنم تسرح بيهم، فسارع «فارس» مؤكدًا:

- متآمنش لحد متعرفوش.

- استنى عايز حاجة منها.

قال «فارس» بصوت حادّ:

- يا عسكري بقولك سيبها تعدي.

لم أستجب لعسكرية «فارس» التي تلبّسته فجأة، فتناسى ما بيننا من صداقة لحظتها، وتقمَّص شخصية الصول «سلامة»، فناديت عليها:

- يا «ريما».. يا «ريما».

وكانت الفتاة قد اقتربت تمامًا حتى أصبحت في مواجهتي، فقالت في قلق بدا على وجهها الحنون فجأة:

- فيه حاجة يا دفعة؟

- ممكن شوية لبن؟

- إحنا لسه «على الله»، لو كان فيه كنت سقيتك، غنماتنا «ناشفين».

ومضت في طريقها لم تلتفت، قال «فارس»:

- هتودي نفسك في داهية يا عسكري «كَحّال» لو حد عرف.

- حصل إيه يعني يا صول «فارس»؟

في الليل سألني بروح مختلفة:

- ليه ناديتها باسم «ريما» يا شاعر؟

- لأنها تشبهها.

- الله يهديك ويرجعك لعقلك يا شيخ.

في الأيام التالية ودّعنا «فارس» بعد أن أقمنا له سهرة على سطح الكتيبة ليلتها، حيث كانت الخدمة هادئة، قام «زياد» بتحضير عشاء فاخر من الفول والسردين والجبن الأبيض،

وأعدَّ لنا كيكة البرتقال، فيما أعدَّ «إبراهيم» الشاي بالنعناع، ودَّعنا «فارس» ليلتها بالغناء، وحضرة الذكر بناءً على طلبه، سمعنا على جهاز الكاسيت الخاص بالكتيبة «نديم الراوي» و«يونس الصواف» الذي كان «فارس» يعرفه ويحبه مثلي تمامًا، وقلت أنا القصيدة التي ألَّفتها له خصيصًا، بكى «فارس» في نهايتها، ودخل بسرعة إلى العنبر ليحضر ورقة وقلمًا وتأثر قائلًا: اكتبها لي وحياة أمك الغالية، كتبتها لـ«فارس»، وسلمنا عليه، وبدأ كل منا في إعطائه تذكارًا، لم يكن معي وقتها سوى ألبوم «وعد قديم» لـ«نديم»، وقلت له: تذكَّرني في كل مرة تسمعه.

كان «وعد قديم» هو إثبات الوجود الثاني لـ«نديم» الذي شبَّ عن الطوق، وتخلى لأول مرة عن «طه القاضي» رفيقه الأول بعد عشرين سنة من النجاح، كأنما أراد أن يقول للجميع أنا هنا، ووحدي، البعض فسَّرها أنانية، والبعض فسَّرها نكرانًا وانسلاخًا عن «القاضي»، أراد «نديم» في هذا العمل أن يطرح نفسه كمحتكٍّ بالثقافة العالمية، ومدَّ بساطه على الخريطة العربية، بحيث يصبح الكل في واحد، كل ذلك بعد أن سطعت نجوميته واعتلى عرش الأغنية في نهاية الثمانينيات، وكانت هذه الفترة هي الأهم والأشهر في حياة «طه القاضي» الذي توَّج التجربة بأغانٍ متعددة كان بعضها

يناقش في رمزية شديدة العذوبة وقائع اعتقاله، وبعض رموز الجيل في عهد السادات، فجاءت الأغاني مزيجًا بين ما هو سياسي وما هو عشق رهيف.

بعد سفر «فارس» كنت في معظم خدماتي أنتظر تلك الفتاة التي ترعى غنماتها قرب حدود الكتيبة، لكنها لم تأتِ أبدًا، ولم تروِ عطشي القديم، مما جعلني أعتقد أنها روح «ريما» التي تحاوطني من آن لآخر حيث أفتقدها، إلى أن ابتعدت عن الخدمات تمامًا، ولم أعد أراها، فكنت قد لفتُّ نظر القائد الذي أسند لي إلى جانب عملي الإداري مهمة إدارة الإذاعة المعدة في الأصل للنداء على الجنود وقادة السرايا، والتنبيهات والنوبات العسكرية، وكنت أنا بالطبع المنادي، كنت أختار الأغاني، ومنها طبعًا «نديم» و «يونس الصواف» في أوقات الترفيه، والتي تكون قبل طابور الصباح، وتبدأ بتلاوة قرآنية، بعدها يتم إذاعة أغانٍ مناسبة للصباح، وفي المساء كنا نشغّل «أم كلثوم»، وكان القائد يحب أن يسمع المطربة الشعبية «رشيدة» التي ذاع صيتها في هذه الأثناء، وأظن أنه أراد أن يكسر حالة التعالي التي أبث بها بعض الأغاني؛ لأنه قال لي ذات يوم: مش كل الناس بتحب اللي إنت بتحبه، وظل الوضع هكذا إلى أن انتهت خدمتي العسكرية.

«اتنين في الغيب لا يعلم بيهم كاتب ولا قاري

الرزق والعمر عند الله متداري»

٨

في بداية أيامي المدنية تحسَّست أخبار «فريدة»، فعلمت أن جدَّتها قد فارقت الحياة، وكنت أحبها جدًا، كانت تعرف كل الحكاية، وترعاها، وكانت تحبني، ذهبت لتعزيتهم في حضور والدتها السيدة «سامية الإدريسي»، بكت «فريدة» في أول اللقاء، سرعان ما تبدلت الدموع لابتسامات عندما تذكّرنا جدتها الطيبة، وعن مواقفها معي في الردّ على التليفون، والتحقيق: «عايزها ليه؟ طب ما تقولها الكلام دا لما تشوفها في المعهد؟»... وأشياء من هذا القبيل، لكني لا أنسى لها أول مرة أتصل فيها بـ«فريدة» عندما قالت لي بطيبة: «فريدة» بتاخد «شاور». فلم أسمع جيدًا الكلمة، وقلت: إيه؟ قالت «بتستحمى يعني بتستحمى»، وضحكنا معًا.

كانت جدتها تشبه «جدتي» لأمي بيضاء تركية شقراء سمينة الجسد ذات عيون خضراء، ولها نفس الطيبة ونفس رائحة الجدات، أهدتني «فريدة» صورةً رائعة لها في شبابها في الصعيد بالأبيض والأسود، وقالت: طبعنا منها كام نسخة.

وقتها قالت طنط «سامية»: بقولكم إيه يا ولاد، أنا عازماكم

على الغدا في أي مكان تحبوه، عشان أنا مش طابخة، قلت لها: شكرًا أنا متغدي من شوية، أشارت لـ«فريدة» روحي البسي ثم وشوشتني: خدها واخرجوا شوية، واقبل عزومتي بمناسبة خروجك من الجيش بالسلامة، وكمان هي طول اليوم قاعدة تعيط، وأنا خايفة عليها.

خرجت «ديدة» كالبدر في فستانها الأسود، رابطةً شعرها «ذيل حصان» بدون ماكياج، على السلَّم عبرت لي عن استغرابها في دلال: شوفت ماما بتعمل إيه؟ بتظبط لنا مواعيد، حبتك يا عم الست دي والله، ثم بكت مرة ثانية وقالت: بقيت خايفة من الموت عليها، أمي تعبانة هي كمان، وعندها «السكر»، وساعات بتتعب في الشغل وبتدوخ، قلت لها: اطمّني ماما لسه صغيرة ما تخافيش عليها.

ثم ضحكنا من فكرة موتها، ونحن نتخيل والدها وقد جلب لها زوجة أب مفترية، تقوم بطرد «فريدة» من البيت، وتتشرّد هي بالتبعية في الشوارع في أنصاف الليالي، وبعدها بسنوات أقابلها في بار في أحد فنادق جامعة الدول، سكران؛ لأن حبيبتي تركتني، وتكون هي قد أصبحت «خبرة وبتفتح للزباين»، ضحكت «فريدة» هذه المرة بصوت عالٍ وقالت: وحشتني، ثم استوقفتني فجأة: ها يا سبعاوي أفندي

هتحكي لي عن مين النهارده بشعرك القصير دا اللي الجيش بوظهولك؟

قلت: ياه إنتي لسه فاكرة حكاياتي؟ قالت: وعمري ما هنساها، وللوهلة الأولي قفز إلى ذهني «خالد الجارحي» الذي استغلَّ غيبة «القاضي»، وحاول ركوب التجربة الناجحة التي عاداها في البدايات، حتى إن «نديم» عاني من هجومه المتكرر عليه في جلساته الخاصة كتصفية حسابات بينه وبين القاضي الذي كان قد أوشك أن يمتلك ناصية الساحة الفنية لولا «غدرة» «نديم» الأخيرة التي أمرضته وطرحت به أرضًا، بعد أن خلا ألبومه الأخير من اسمه لأول مرة، بالطبع حلَّ «خالد الجارحي» مكانه في صفقة كان يتمناها «نديم» على الأقل؛ ليتجنب من خلالها ضربات «الجارحي» التي توالت من تحت حزامه ومآرب أخرى حلم بها ليخرج من عباءة «القاضي» الذي سيطر تمامًا على مجرياته في البدايات.

شعرت يومها وأنا أحكي أن «فريدة» تجاوزت المرحلة السابقة بكل ما فيها، وتجاوزتُها أنا ضعفًا ومحبةً، لكني لست على ثقة تامة من أني قد شفيت.

قلت لها إن «خالد الجارحي» الموهوب الفذ وعبقري جيله هبط على كوكب «نديم الراوي»؛ ليستعيد ثقته بنفسه، ويغسل ماضيه في الوسط الفني كله بجلساته وصالوناته من قصته القديمة مع «ليديا»، وقصة تمرُّد زوجته عليه وخيانتها له، وظهورها مع مخرج شاب في عدد من الأماكن، وازدادت العلاقة سخونة أثناء وجوده في المعتقل، وهو ما دفعها لمواجهته بحبها للمخرج الشاب، وطلب الطلاق منه صراحةً.

قاطعتني «فريدة» فجأة، وكأن الأمر لا يعنيها وقالت: «مروان» وحياة أغلى حاجة عندك لتقولي ما لك؟ وإيه اللي مغيّرك من ناحيتي وبُعدك عني طول الفترة اللي فاتت؟

قلت لها: مفيش حاجة، ثم سألتها في برود قاسٍ لمث نفسي عليه لفترات طويلة: إنتي مش عايزة تقولي لي أي حاجة أنا مش عارفها؟

لا أعرف لماذا لم أصارحها، فربما يكون ما قالته «مريم» محض وشاية ألَّفَتها، فقلت لو أنها حقًّا مغرضة، لماذا لم تأتِ لتستفيد مني بأية غنيمة؟ كأن تزيح «فريدة» عن طريقي، وتكون بديلة لها، والحقيقة أنني لم أجد في «مريم» التي سمعت أنها تزوجت من ابن عم لها، أية نية لإفشال تلك

العلاقة.

حاولت التخفيف من حدة الموقف، لكن «فريدة» لم تصدق وسألتني: إنت لسه بتحبني؟

قلت دون تردُّد:

- طبعًا.

لكن حماسي كان قد خانني في الرد، حاولت أن أمزج الجد بالهزل، مواريًا ذلك الفتور الذي كسا وجهي، فأمسكت بيدها وضغطتُها في حنوٍّ، وبنبرة حادة طلبت مني:

- «مروان» من فضلك، خليني أرجع البيت.

- مش هنخرج؟

- مرة تانية.

وأشارت بيدها، وأوقفت تاكسي فجأة، وودَّعتني، حاولت أن أستبقيها، لكنها أبت، بعد أيام من القطيعة اتصلت فجأة،

وقالت وكأنها تثأر مني: بارك لي يا «مروان» أنا اتخطبت.

الفصل الثاني

«يا عطارين كلكم هو فين بس الاقيه

الصبر كان عندكم يا مين يقولي عليه»

٩

مرّت أيام صدمتي في «فريدة» بصعوبة، عُدت إلى قريتي باديًا عليّ التعب، كنت أذهب كل صباح إلى مقام سيدي الكَحّال، وأجلس لفترات طويلة هناك حيث السكينة والهدوء، وفي المساء كنت أذهب إلى «شمية ليلة» أجلس بالساعات أرمي بالحصى في الماء، وأنا أكلم «ريما» وأناجيها، أعرف أنها الآن تعاتبني وهي تقول: لماذا لم تبحث عني طيلة هذه الفترة؟ أراني خذلت هذه الفتاة التي ربما تكون قد أصبحت من الغوازي، مثل «سميرة» أختها التي سبقتها إلى هذا العالم، ترى كيف أصبح حالهما الآن؟، قالت لي أمي يومًا: بطّل تسأل على ناس مايستاهلوش سؤالك، وبطّل تعيش في الأوهام، كفاية عليك «فريدة» اللي قلبت حياتك.

كانت أمي تعرف حكايتي مع «فريدة»، وتعرف أني أحببتها طيلة أيام الدراسة، وكانت تحلم باللحظة التي آخذها فيها لزيارتهم وخطبتها، وتعرف أيضًا أنها أنهت العلاقة معي فجأة دون سابق إنذار، وأنها الآن في بلد غريب مع زوجها، وربما تكون في أسعد أيام حياتها، ولم ينقذني من لوم أمي الصباحي طيلة وجودي في البلد سوى تسلّمي لعملي في

إحدى الوكالات الإعلانية بالقاهرة، أخذني العمل في البداية، وكنت مشدودًا طوال الوقت، أعمل لساعات طويلة؛ حتى أتمكن من جمع مهارات متعددة، قدّمت أوراقي مع أول فرصة للدراسات العليا بكلية الإعلام، كانت المحاضرات بعد الخروج من العمل غايةً في الإرهاق، إلا أن الدراسة الاختيارية كانت ممتعة أكثر من دراسة فُرِضت عليّ نتيجة للتنسيق، صحيح أنني قد أحببت الدراسات الإنسانية، واستفدت منها في بناء شخصيتي وقدرتي على استيعاب الآخر، لكن العمل بالمجال نفسه كان صعبًا للغاية ويحتاج إلى أنبياء، وليس بشرًا عاديين، اندمجت في العمل والدراسة لشوشتي، ثم قررث الانتقال للسكن مع «رؤوف» في شقته بحي المنيل، وكان «رؤوف» قد بدأ العمل صحفيًا تحت التمرين بمؤسسة «المدينة» الصحفية، لكنه كان يقول: مستقبلي الموسيقي أهم، قال لي في أول ليلة في الشقة الجديدة إنه ينوي تكوين فريق غنائي، ثم بدأنا في العمل على اختيار الأغاني التي سنخرج بها للنور من أعمالنا السابقة، وكانت ألحان «رؤوف» تليق على صوت «نديم»، فطلبث من «رؤوف» أن نعرضها عليه، في البداية تردّد: أنا بحلم بمشروع خاص، شفت الفرق اللي طالعة دلوقتي؟

قلت له: لا

- لازم آخدك الهناجر.

- فين الهناجر دي؟

- دا مكان في الأوبرا بيتجمع فيه شباب من كل الاتجاهات بيعملوا فن مستقل، كان اصطلاح «فن مستقل» جديدًا على أذني تمامًا، فلم أسمعه من قبل.

كان لجيلي من الشعراء والموسيقيين العوض الكبير في ظهور الفرق الموسيقية في موجة جديدة في بداية الألفية الجديدة، والتي يبدو أن قدرها -الفرق- إعادة ضبط المزاج العام للغناء في مصر مرة ثانية، بعد هبوط مرحلي في الأغنية المصرية مع تفريغ السوق من نجومه بدخول شركات خليجية ضخمة لسوق الأغنية، وكأن الغناء الخليجي بظهوره وحظوته كان قادرًا أن يوقد جذوة التغيير في الأغنية المصرية من جديد.

وكان «نديم» واحدًا من الذين تعاملوا مع هذه الشركات، وكان لـ«الجارحي» الدور الكبير في ذلك، وظهرت وقتها في مصر عدة تجارب لفرق جديدة سيستقبلها سوق الغناء

المصري فيما بعدُ بجفوة رهيبة، حتى إن «نديم» نفسه سيهاجمهم ويردد في جلساته: «العيال اللي بيغنوا تحت الكباري».

في اليوم التالي، اصطحبني «رؤوف» للهناجر، كان المكان يشبه أماكن الفنون التي نسمع عنها في أوروبا، قال «رؤوف» إنه كان في الأصل مخازن لتشوين معدات شركة «كاجيما» اليابانية التي قامت بإنشاء دار الأوبرا كمنحة من اليابان لمصر، وبعد تسليم الأوبرا قامت الشركة بتسليم المخازن أو الهناجر كهدية لمصر، وكانت عبارة عن معرض للفن التشكيلي الحديث، ومسرح كبير، وكافيتريا واسعة، وأطلق عليه وقتها مركز الهناجر للفنون.

كانت ليلة لا تُنسى دفعني «رؤوف» فيها دفعًا وسط مجموعة من شعراء القاهرة، وقال لهم: «كَحَّال» شاعر مهم، نبَّهته بقدمي من تحت الطاولة، وكنت لا أنوي تقديم نفسي بهذه الطريقة، كنت أحتاج إلى وقت لأستوعب هذا العالم، على الأقل في أول يوم، باغتني «رؤوف» وقال أمامهم: إيه يا عم إنت مش شاعر ولا إيه؟ قول القصيدة التي كتبتها لـ«فارس» زميلك في الجيش أو قصيدة «ريما»، قلت: الله يمسيك بالخير يا «فارس». ثم حكيت حكاية «فارس» وأين

هو الآن وماذا يفعل، ثم بدأت في عرض القصيدة، صاحت «ليلى»: دي «جالاتيا»! فضحكت، عرفت فيما بعد أن «ليلى» هي ابنة الشاعر «حمدي شريف» الذي قدّمني من قبلُ في مقالاته، وتعمل مقدمة برامج في إحدى القنوات الثقافية في باقة المدينة الإعلامية التي تضم الجريدة التي يعمل بها «رؤوف»، ثم تابعت في حماس: أيوه أيوه هي «جالاتيا»، بس إيه دا كتبتها ازاي دي؟ كنت في قمة الخجل، أبتلع ريقي بصعوبة، فأثنى عليّ «صبري علام» الممثل المسرحي: تسلم إيدك يا «كَحّال»، حلوة أوي، وعملت صورة جديدة للأسطورة بلغة مدهشة وبسيطة.

بعدها تمشينا أنا و«رؤوف» إلى المنيل من ناحية الجيزة، وكنا نمشي كثيرًا رغم وجود سيارة لدى «رؤوف»، بدأنا بكوبري قصر النيل، ثم مررنا من أمام بيت السادات، ثم وصلنا لكوبري الجامعة، ثم لشارع عبد العزيز آل سعود حيث نقيم، مارين على مطعم محسن للمشويات لتناول العشاء.

ترددت بعدها كثيرًا على الهناجر، حتى أصبح لي ركن أستذكر فيه محاضراتي، كما أصبح لي أصدقاء ينتظرون حضوري؛ منهم «ليلى شريف» التي قالت ذات مساء:

- تعرف مين هنا؟

- مين؟

- «عيسى الشرقاوي». قالتها بفرحة عارمة.

- فين؟

- ثواني هيخرج دلوقتي هو بيحضر معرض فن تشكيلي وهيطلع حالًا.

- وأنا لسه هستنى؟

دخلت إلى المعرض، فوجدت «الشرقاوي» بشحمه ولحمه وجلبابه البلدي الأبيض الأنيق، سلم عليّ بعد ما عرَّفتني «ليلى» عليه: وقال: عارفك يا «كَحَّال»!

كان «الشرقاوي» يجاملني، وربما يكون قد قرأ عني فيما ينشره لي «حمدي شريف» من وقت لآخر، وربما قال ذلك ليقرب المسافات، على العموم كانت لفتة ذكية منه شجَّعتني على التقرب منه فيما بعدُ، وزيارته في بيته بشارع فيصل،

لاحظتُ أنه انشغل عني في السلام على ضيوف المعرض، ثم وجدته يقترب مرة ثانية ويسألني مباشرة: ها بقى بتعمل إيه يا هُمام؟

- لسه على باب الله، بعمل غنا مع أصدقاء ليّ وهنعمل فرقة.

- صح كده، ابقوا اعزموني آجي أسمع وأتصور معاكم.

تمنيت في هذا اللحظة لو أن «فريدة» كانت معي، كنت ما زلت على اتصال بوالدتها طنط «سامية» من وقت لآخر؛ لأطمئن عليها في وحدتها بعد سفر «فريدة» يدفعني في ذلك شعور عظيم بالذنب تجاه هذه السيدة، وتجاه «فريدة»، متخيلًا لو أنني قد تزوجت منها، لكانت الآن في حضنها، ولم تفارقها.

مشيتُ وحدي إلى المنيل، وحكيت كعادتي لـ«فريدة» عن «الشرقاوي»، نعم لـ«فريدة» كانت هي الوحيدة التي تسمعني كماكينة خياطة قديمة ولا تمل، وأنا أضحك وأقول لها: طلّعت قماش يا «ديدة»، طلّعت قمااااش.

تمنيت لو حكيت لها مشواره كاملًا منذ الميلاد والطفولة إلى تجربة سجنه الأولى، والتي حكاها لي في زياراتي المتعددة له يرافقني فيها دائمًا «رؤوف» و«ليلى»، قال لنا شاتمًا مرة عندما سألناه لماذا توقف مشروعه الغنائي واتجه للشعر فقط: دول أغبيا يا ولاد، وكان يقصد نجوم الأغنية بييجوا يخطفوا ويجروا ومحدش بيشوفهم تاني، كان حزينًا؛ لأنهم لم ينهلوا من شعره وتجربته التحريضية، على الرغم من غناء عدد كبير منهم لعلامات من أغانيه.

وحده «نديم» الذي جرب أن يغني له منذ البدايات بعد أن اصطحبه «القاضي» ليعرِّفه به، غنى له عددًا كبيرًا من الأغنيات التي عُرِفت فيما بعد بالأغاني يسارية اللون.

حكيت لـ«رؤوف» حكاية «الشرقاوي» منبهرًا بهذه المقابلة القصيرة، وقصة «أنا عارفك يا كَحّال» التي أوقعتني في حب هذا الرجل، ففاجأني «رؤوف» بلحن من كلماته، وقال لي: «الشرقاوي» حتى الآن لم يسمعه، سمعتُ ليلتها لحنًا من أجمل الألحان، فقلت لـ«رؤوف»: دي لازم تبقى معانا في مشروعنا الجديد، وفرقتنا التي لم نسمِّها إلى الآن، سألني «رؤوف» فجأة: إزاي نعمل شغل مع «خالد الجارحي» زي شغله مع «نديم الراوي»؟

قلت له: بسيطة نعمل غنوة ونروح نسمعه.

ضحك من سذاجتي وقال:

- مش «خالد الجارحي» اللي يتعمل معاه كده، هاخدك مرة ونروح نقابله.

أنهيت كلامي مع «رؤوف»، وخرجت للصالة، وتذكّرت كيف تأخر لقاء «نديم» بـ«خالد الجارحي» قرابة عشرين سنة منذ بدايته، على الرغم من أنهما كما يشيع «الجارحي» لمن حوله إنهما ابنان بارّان لحضارة واحدة، فقد وُلِد «خالد» أيضًا في الإسكندرية، وعاش فيها طيلة حياته، رغم امتلاكه شقة كبيرة في المهندسين كان قد طلبها من «السادات» في عيد الفن، ولم تخفَ الحكاية على الوسط الفني كله.

دارت أغلب تفسيرات تأخُّر لقائه بـ«نديم» حول تلاصق «القاضي» بـ«نديم» في البدايات، وهو ما جعل «خالد الجارحي» يشيع عنه أنه لا يكتب أغانيه، وأن «نديم» هو من يكتبها، ومرات يقول إنهما و«ليديا» يترجمون معًا أفكارًا غريبة تدور حول الكون والإنسان والحرية، وما إن جاءت كتابات «القاضي» الشعبية لـ«رشيدة» وغيرها من مطربي

هذا اللون حتى استغلّها في تشويه «طه»، لكنه أبدًا لا ينسى أن «نديم» كان يطارده بسؤاله الدائم:

- إمتى هغنيلك يا «خالد»؟

وكان الردُّ المتوقع:

- هو إنت ناقصني.. مانت عندك اللي بيكتبولك.

رغم ذلك حدث اللقاء في البوم «وعد قديم»، وأصر «خالد الجارحي» على تسمية الألبوم بهذا الاسم؛ ليؤكد لذاته المنتفخة أنه انتصر على «القاضي» الذي أصبح يعيش في ممرات وسط البلد، وانحدر به الحال للكتابة الشعبية التي عُرِفت فيما بعد بالموجات المسفة للأغنية المصرية، أو هكذا كان نقاد «الجارحي» يسمُّونها فيما ينشرون عنها.

تمكّن «خالد» في البداية من محو «القاضي» من ذاكرة «نديم» تدريجيًا، ثم سيطر بكل جهوده على جلسات «نديم» الخاصة، كان لديه شبكة علاقات مع عدد من سيدات المجتمع الراقي، فكان يصطحب «نديم» كل ليلة في بيت من بيوتهن، وفي كل ليلة كانت تتولد فرص لأعمال جديدة تزيد

من رصيده لدى «الراوي»، وسخَّر عبقريته في أن ينافس تاريخ «القاضي» مع ذلك المغني السكندري ابن الحضارتين كما كان يسميه، في البداية حاول أن يدمجه مع أفكاره المتصالحة سياسيًا، وطالبه بتخفيف حدة أغانيه السياسية، وكانت مفاجأته له أن رضيت عنه الإذاعة والتلفزيون، وبدأت في إدراج أغانيه بكثافة على كل الموجات الإذاعية، وبالطبع كانت معظم الأغاني مما سطرها له «خالد الجارحي».

«الصبر عقبه فرج يا رب ترضيني

والليل عليا طويل يا مين يسليني»

١٠

ذات صباح غير مألوف تلقيت مكالمةً من طنط «سامية». قالت السيدة بصوت لا يخلو من ألم: «فريدة» رجعت من السفر بعد خلاف مع جوزها، كلِّمها يا «مروان» وعقلها، أكيد هتسمع كلامك.

لم تكن هناك أية معلومات عن «فريدة» سوى أنها لم تكمل عامها الثاني في الزواج، لم أكن أسأل أبدًا طنط «سامية» عنها -متعمدًا- بعد يوم الوداع الحزين، وإخبارها لي بعناد أنها «اتخطبت»، ثم علمت أنها تزوجت وسافرت للخارج، ثم مضت الأيام بسرعة، ولم أكن أتوقع أن تتلاقى الوجوه مرة ثانية.

في المساء التقيت بـ«رؤوف» في الشقة، ثم طلبنا الغداء من مطعم «محسن» كالعادة؛ فكلانا لا علاقة له بالطبخ، وقال لي «رؤوف»: ما لك فيه حاجة حصلت؟

قلت له: «فريدة» اختلفت مع جوزها، ورجعت من خارج مصر وأنا مش متطمن.

- عرفت منين؟

- مامتها كلمتني.

- طب هتعمل إيه؟

- مش عارف.

لم أنم في تلك الليلة، فقط أدرت الكاسيت على أغنية «وعد قديم» سمعتها أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة كنت أقول سأتصل بـ«فريدة» الآن، ثم أتراجع؛ خشية أن يردَّ والدها، وأسبب لها مشكلة ثانية.

رأيتني أغنى معها: في عينيكي وعد قديم كان نفسي يتحقق.

والحقيقة أن «فريدة» كانت ما زالت ساكنة في القلب والروح، أمشي معها كل ليلة من الهناجر إلى المنيل، أسافر معها وحدي إلى أبعد مكان، أجلس معها على البحر، في المساء أصحبها للعشاء في مطعم فقير على البحر، لرجل

وامرأة لهما قصة عشق معروفة تركا العالم وراءهما ليطبخا لزبائنهما بحب.

آه لو كانت معي الآن، كنت سأقول لها: يا «فريدة» هذه الأغنية التي تعد أبدع ما كتب «الجارحي» هي أنتِ، كأنه كتبها على لساني.

هكذا كانت «فريدة» تتخلل لحمي ودمي.

اتصلت صباح اليوم التالي بها وقبل أن أكمل تحيتها قالت: «مروان»؟

قلت مازحًا:

- لا سبعاوي.

قالت بهدوئها المعهود:

- ياااااه إنت لسه فاكر؟

- عمري ما نسيت، ارتاحي، هخلص امتحانات ونتقابل.

- حاضر.

انتهت المكالمة سريعًا، فلم يكن هناك كلام يقال، عدت بعدها إلى عملي ودراستي كانت امتحانات نهاية الدبلومة قد أوشكت.

عاودت اتصالي بها أكثر من مرة في الصباحات التالية، وكانت قد جلبت معها هاتفًا محمولًا، وهو ما مكّنني من الاتصال دون حرج، كانت تدعو لي وتشجعني طوال فترة الامتحانات، وأرسلت لي عبر طنط «سامية» ومع ساعي مكتبها محشي ورق العنب الذي حُرِمت منه لفترة طويلة، فكان من دواعي بهجتي، وفرحت به جدًّا وقتها أنا و«رؤوف» الذي قال بخبث: لا دا الموضوع شكله كبير، وهما عارفين غالبًا إن الرجالة بتحب المحشي.

ولم يكن الموضوع كبيرًا فقط، بل كان هو الموضوع الوحيد.

بعد أيام كنت قد أنهيت امتحاناتي، وكان «رؤوف» و«صبري» قد أعدًّا لي مفاجأة حلوة، حيث قاما بدعوتي أنا و«فريدة» وطنط «سامية» لمسرحية «نديم الراوي»

الجديدة على مسرح الهناجر، وهي المسرحية الوحيدة التي قدَّمها في حياته، كانت الدعوة ولقائي بـ«فريدة» بمثابة الحلم الذي لم أكن أتوقعه، حيث سأكون أنا وهي و«نديم» وسط دائرة واحدة من القرب لأول مرة.

قبل المسرح أخذنا قهوتنا على كافيتريا الهناجر، تحدثنا في شئوننا العامة والامتحانات والعمل، بينما كسر «رؤوف» كعادته دبلوماسية الحوار وعموميته، وسأل مباشرة «فريدة»: عاملة إيه وإيه أخبارك بعد السفر؟ نبَّهته مجددًا من تحت الطاولة، كنت أعرف أن «فريدة» وضعت قناعًا من الثلج حول وجهها الدافئ، وتركتُ أنا مساحة للحالة المسرحية لإذابة هذه الثلوج وجفوة المسافة، كانت زائدة الوزن عن المعهود، وترتدي بعناية لونًا رماديًا، وما لا أعرف مما تعانيه، كانت ما زالت محتفظة بخاتم الزواج، ولكنها مع ذلك ارتدت قلادة نوبية كنتُ قد اشتريتُها لها من أحد معسكراتنا بالمعهد، وكانت طنط «سامية» في غاية الودّ، مرتدية فستانًا أسودًا بسيطًا، ذكَّرني وجهها بخالتي «حليمة» ذات الوجه الطيب، تذكرت عبارة أمي عندما كانت تقول عن «حليمة» إنها بنت ملوك.

بعد قليل، رُفعت الستارة وبدأت المسرحية كان «نديم

الراوي» يجلس أمامي على مقربة مترين، بجانب المسرح بهيئته الأوروبية وعينيه الخضراوين اللامعتين يتنقل بين أبطال العرض في خفة، وهو يغني «في عينيكي وعد قديم كان نفسي يتحقق»، بينما كانت «فريدة» قد أمسكت بيدي دون أن أشعر، فقد كنت مأخوذ العقل والروح، حتى وقفنا جميعًا نصفِّق من فرط نشوتنا.

بعد العرض قابلنا «نديم»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقابله فيها وجهًا لوجه، أخذنا «صبري علام» إلى حجرته في الكواليس، سلَّمنا عليه، وقدَّمنا له، في حضرة «الجارحي» الذي كان يلازمه أيام العرض، «ساد الود» في اللقاء، فقال «صبري»: هما كمان بيعملوا غنا حلو، «كَحَّال» بيكتب و«رؤوف» بيلحَّن، لحقه «رؤوف»: بنجهِّز لفرقة كده نقول من خلالها أفكارنا، فاقترح «الراوي»: طب ما تجولي بكرة بس بدري شوية نقعد ونسمع؟ انتهى اللقاء وخرجنا ومعنا «فريدة» وطنط «سامية»، وكلنا طاقة وأمل في القادم القريب.

لولا نداء «خالد الجارحي» على «رؤوف» بعد أن تبعنا عند الباب وسأل «رؤوف»: إنت لحَّنت لحد قبل كدة؟ فقال «رؤوف»: لسه بجهز أعمال، ونفسي أشتغل مع حضرتك،

ابتسم «الجارحي» ابتسامة مغرورة، وقال لـ«رؤوف»: بكرة لما تيجي لـ«نديم» نتكلم.

لم أتقبل هذا الشخص منذ رأيته ونحن نسلِّم على «نديم» بعد المسرحية، وخاصة بعد أن علقت عيناه بـ«فريدة»، وظل يتفحص ملامحها وجسدها، كأنه لم يرَ سيدةً من قبل.

تلكأنا قليلًا أنا و«فريدة»، لم أكلمها عن نظرة «الجارحي»، كنا ننظر لبعضنا البعض بعيون زائغة، وكلانا يحمل شوقًا عارمًا للآخر، وصمتًا مكلومًا، كانت «فريدة» قد قصَّت شعرها بشكل أضاف لوجهها رونقًا جديدًا.

قمنا بتوصيلهما بعد المسرح، وعدنا إلى المنيل. قلت لـ«رؤوف»: كما أني أحب حي المنيل، فأنا أجد راحة أيضاً في حي الزيتون، الحيان قريبان جدًّا إلى نفسي. قال «رؤوف» يفند ما أقول:

- طب المنيل عشان بتشوف منه نفس النيل اللي بيعدي على أبوك وأمك في البلد، وبتحمِّله بمراسيلك كل يوم الصبح لهم، ولسيدي «الكحال».. الزيتون بقى فيه إيه؟

- فيه قلبي.

لم تخلُ الليلة من نقاش حول «نديم» والطيران بما حدث، وكان «الشرقاوي» و«الجارحي» و«القاضي» محور حوارنا، وسألني «رؤوف» فجأة:

- هنروح لـ«نديم» بكرة الساعة كام؟

قلت بلا تردُّد:

- مش عارف، أنا مش عايز أروح.

- إنت مجنون يا جدع إنت؟ مش هو دا «نديم» اللي إنت داوشنا بيه ليل نهار؟!

- روح انت.

- لا رجلي على رجلك.

في اليوم التالي ذهبنا إلى المسرح، حيث كان «نديم» يأتي مبكرًا قبل العرض بساعات، ومن هناك كان يدير أعماله،

ويلتقي بأصدقائه وبفريق عمله الجديد، جلسنا وبدأ «رؤوف» في الدندنة التي أطربته، وجعلته يطير بكل جملة يسمعها، تغيرت ملامحه، فصار كطفل، وكان يطلب الإعادة من «رؤوف»، وفي كل مرة كنت أندهش من ذلك البريق في عينيه. قلت لـ«رؤوف» ليلتها: هذا الرجل به سرّ غريب.

بعد قليل دخل علينا «خالد»، سلَّم عليه، وتجاهلني أنا و«رؤوف» كأنه لم يرَنا أمس.

هتف «نديم»: اسمع الغنوة دي كده يا «خالد».

فبدأ «رؤوف» في ترديد اللحن، وكان «رؤوف» يعلو بأدائه، فيبهر «نديم» أكثر من المرة التي قبلها، استمر «رؤوف» في غنائه، وانشغلت أنا بملامح «الجارحي»، كنت أريد أن أقرأه من خلال ما سمعت عنه، ظل صامتًا مغمض العينين يتصنَّع الإنصات، قال لـ«نديم» حلوة وفيها ريحة الستينات، هنا ابتسم «رؤوف»، فطلب «الراوي» أن نترك له الأعمال على شريط كاسيت، قلت لـ«نديم» فجأة: لماذا توقف تعاونك مع «طه القاضي»؟ ناس كتير مستغربة.. تغيرت ملامح «الجارحي» وأخرج سيجارة ليدخِّن في توتر حاول أن يخفيه، فقال «نديم»: مفيش توقُّف ولا حاجة، بس هو

مشغول شوية بالشعبي، هنا ضحك «خالد الجارحي» ضحكة صفراء، وعلَّق وهو يواجهني: بيعمل أغاني لـ«رشيدة»، قلت له بتحدٍّ: بس أغاني حلوة وهتعيش، أنا شخصيًا بحب أسمعها.

فرد بغرور:

- إنت؟ إنت مين؟

- أنا واحد من الناس بسمع وليا رأي.

- اتكلم بأدب.

- أنا مؤدب وعارف بقول إيه.

ثم علا صوته فتدخل «نديم»: اهدى يا «خالد»، تعالوا يا شباب عايزكم بره.

خرجنا من الحجرة، وأنا أبادله نظرات الغضب، قال «نديم» في طرقة الكواليس: سيبك من «خالد الجارحي»، غنوتكم حلوة أوي بس لازم نشتغل سوا عليها، خلال أيام هشوفكم

تاني، ودَّعناه وخرجنا.

ضحك «رؤوف» وقال: مش دا «خالد الجارحي» اللي كنت عايزني ألحّن له غنوة، وأروح أسمَّعه، ضحكنا معًا وقتها، وقلت لـ«رؤوف»: أنا مش «هطاطي» لشاعر عشان أشتغل مع مطرب، حتى لو كان «نديم»، شوف نفسك يا «رؤوف» لو تحب تشتغل معاه اتفضل. فقال:

- أنا قلت لك هركز في الفرقة.

فرحَّبت قائلًا:

- شاطر يا ابني.

«عاشق جمالك يا نبي بعين اللطف راعيني

خلفت لي جرح جوا القلب راعي لي»

١١

وصلنا المنيل، وقبل أن نكمل نقاشنا حول الفرقة وحول «الجارحي» و«نديم» تلقيت مكالمة من «زياد» دفعتي في الجيش، والذي اتصل بوالدتي؛ في محاولة منه للبحث عني بأي شكل، أعطته والدتي رقم هاتف شقتي بالمنيل؛ لينقل لي خبر استشهاد «فارس» زميلنا البطل في سراييفو في عملية قتالية عالية المستوى نفَّذتها سرية مصرية بنجاح، وكتبت عنها الصحف هناك ملقبين «فارس» بالبطل الفريد الذي ضحى بنفسه لإنقاذ أسرة كاملة.

قال «زياد»: إن الجثمان سيصل إلى القاهرة غدًا في التاسعة صباحًا، وسيتم تشييع الجنازة عسكريًا من قريته بالجيزة.

في الصباح كنت أنا و«رؤوف» و«فريدة» التي أصرَّت أن تكون معنا بعد محادثتي لها في استقبال جثمان الشهيد في قريته، حيث كان المشهد مهيبًا، تقدَّم الجنازة الموشاة بعلم مصر عدد من القيادات العسكرية، ومحافظ الجيزة، والأهالي الذين كانت ملامحهم ما زالت متحجِّرة من هول الصدمة، ثم

بدأت مراسم الجنازة العسكرية تجوب الشوارع، ويتبعها أكثر من خمسة آلاف شخص من القرية والقرى المجاورة لها، كانت الصدمة عارمة، بكاء وعويل، والأم كانت تزغرد تارة، وتبكي تارة أخرى، مرددة في عويل: بيزفوك يا عريس؟ بيزفوك يا «فارس» مع السلامة يا ولدي، مع السلامة يا نور عيني، كنا نبكي في انهيار تام، تساندنا فرحة الشهادة، قبل أن تهوي بنا دموع الوداع.

تذكرت «فارس» ليلة أن احتضنني قبل سفره وهو يوصيني بألا أنساه، كانت كلمات «فارس» ترنُّ في أذني كلما حاولت الهروب من الموقف متوكئًا على أخويه التوأم «علي» و«عبد الرحمن»، اللذين كانا يبكين بحرقة، وكان «عبد الرحمن» يصرخ ويقول: أبويا مات النهارده يا «علي»، أبويا مات يا أستاذ «مروان».

في الطريق توقفت الجنازة عند أحد بيوت القرية، كان البيت يبدو عليه الثراء، وكانت هناك سيدة شابة تطل من إحدى بلكوناته، قلت في سري: علها تكون من كسرت قلب «فارس» من قبل.

أودعنا «فارس» أمانةً بين يدي ربِّه، وهناك جلسنا أمام

بيتهم في صمت، وأنا أطالع الوجوه التي طالما حكى لي «فارس» عنها، كانت والدته تشبه والدتي إلى حد كبير، وكان «علي» أخوه شديد الشبه به، لكن المفاجأة أني لم أكن أعرف أن لـ«فارس» أخًا أكبر من الأب، والمفاجأة الأغرب أنه كان يعتبر «فارس» أباه أو أخاه الكبير المسئول عنه وعن أولاده، وكان «فارس» فعلًا هكذا مسئولًا بمعنى الكلمة عن عائلة، ترى يا «فارس» من لهم من بعدك يا صديقي غير الله؟ وكيف سيكون الحال؟

بعد ساعتين تقريبًا ودَّعناهم، احتضنت «فريدة» الخالة الثكلى، وبكت معها «فارس» الذي لم تره، فقط سمعت مني عنه في الطريق، سلَّمت على الأم المكلومة على أمل أن أعاود زيارتها مرة ثانية، فقالت: انتظر، ثم مدَّت يدها في صدرها، وأخرجت ورقة مخضبة بالدماء، وأعطتني إياها، وقالت: عثروا عليها في جيبه بعد استشهاده، فتحت الورقة، فوجدت القصيدة التي كتبتُها لـ«فارس» وتحمل توقيعي، وتاريخ ليلة الوداع، وهنا انهرت وارتميت في حضن السيدة وأنا أنهنه كالأطفال، غير قادر على الوقوف على قدمي العاجزتين عن حملي.

عُدنا إلى المنيل بعد أن ودَّعناهم، لا يجمعنا إلا الصمت

والدموع المكتومة، أنزلنا «رؤوف» بسيارته أنا و«فريدة» عند «توسكانيني» بشارع المنيل، جلسنا صامتين، طلبنا قهوتنا إلى أن قالت «فريدة» في محاولة لكسر الصمت: معلش أمره لله وهو إن شاء الله شهيد عند ربنا.

قلت لها وأنا أحدق في عينيها الحبيبتين:

- عايز أسمعك، قولي حاجة.

فأجابتني ببساطة:

- أنا اتجوزت شخص ما اعرفوش كويس، جواز عِند ومكابرة وكرامة، وسافرت معاه بلد غريبة، حسيت هناك إنه مش بني آدم معايا، وإني مجرد خدامة وست بتلبي رغباته.

قلت أواسيها:

- حقك عليّا، عارف إني مهما اعتذرت مش كفاية.

بكت «فريدة» مجددًا، ثم خلعت خاتم زواجها أمامي، وقالت: أنا من النهارده حرة، مش هكون تاني على ذمة

الشخص دا.

عافرت «فريدة» في الشهور القليلة التالية في أن تسترد ما تبقى لها من روح فقدتها في زيجة فاشلة، لم أحاول الاقتراب من التفاصيل بقدر ما كان همي أن أكفِّر عن ذنبي القديم، بعد حصولها على الطلاق، طلبتُ منها أن تسافر إلى المعمورة التي تعشقها، وأن تنسى كل شيء وتعود بروح جديدة، قلت إنها في حاجة إلى الراحة، وبالفعل سافرت «فريدة» إلى شقتهم بالمعمورة طوال شهور الصيف، وكنت أهاتفها بين وقت وآخر.

إلى أن اتصلت بي وأخبرتني: النهارده فيه ندوة لـ«عيسى الشرقاوي»، نفسي أشوفه معاك.

فقلت لها: تعرفي إني ياما حكيت لك عنه وأنا بتمشى وبكلمك كل ليلة، ضحكت وقالت: وحشتني يا «سبعاوي» تعالى بسرعة.

بعد ساعات كنت أعانق «فريدة» عناقًا حارًّا عند شاطئ المعمورة.

عادت «فريدة» من جديد، منحتني خاتمًا فضِّيًا مكتوب عليه «فريدة» بحروف انجليزية قلت لها: إنتي كدة بتخطبيني رسمي.

قالت في دلال أفتقده من أيام دراستنا: وانتي تستاهلي يا بيضا.

في المساء حضرنا ندوة «الشرقاوي»، قبَّلتني «فريدة» على خدي عقب الندوة، كانت قبلتها حلوة مثلها، وفي رقة قبلة طفل وديع يضع كل حمله على كتفك، وهو يقول: لا تتركني وحدي مرة ثانية فأضيع، قبّلت رأسها، وتماديت في شمِّها كأني أملأ رئتي بها، فقالت بهمس: بتشمِّني؟!

قلت: آه.

خرجنا بعد أن سلَّمنا على الشرقاوي الذي طارت «فريدة» بقصائده وبالأغاني أيضًا، وعدته أن نشرب القهوة، ونكمل سهرتنا الليلة معًا، ومشيت معها على الكورنيش، وهاتفنا «رؤوف» على تليفونها المحمول، ومازحني كالعادة، وقال إنهم خلاص بكرة أول بروفة لفرقتنا التي اقترح أن نسميها «مواعيد» على اسم غنوة قديمة لنا، وستكون البروفة في

استديو Double Vision بالمنيل على أغنياتي مع غنوة «الشرقاوي»، فقلت له: أنا هشوف «الشرقاوي» النهارده، وأقوله الخبر، عندي ثقة إنه هيفرح.

بعدها قلت لـ«فريدة»: تتعشي فين؟

مدّت يدها إلى قلبي وتركت كفَّها هناك، وقالت: هنا.

ابتسمت وقلت لها: فيه طلبات صعب الواحد يرفضها.

حضنّا بعضنا على الكورنيش كالمجانين لمرة ثانية وثالثة، كانت الساعة تقترب من العاشرة و«فريدة» يجب أن تعود إلى أمها التي كانت تنتظرها في شقة المعمورة، قلت لها: تعالي نروح مطعم «حسني»(11) ومنها أوصلك المعمورة، أكلنا ليلتها بنهم، كل شيء كان مريحًا وهادئًا ولطيفًا في ليل الإسكندرية الساحر، بعد أن عادت أجمل عيون للمعان من جديد بعد انطفاء.

مثَّل حصول «فريدة» على الطلاق انتصارًا على الظروف، قلت لها مرة: في الطلاق الكل مظلوم والظالم حقًّا هو قسوة الظروف.

في طريق العودة قلت لها:

- تعالي نلعب.

- نلعب إيه؟

- نلعب لعبة ملهاش اسم بس سمِّيها مؤقتًا -ثم تماهيت تمامًا مع شخصية سبعاوي وأنا أقول بأداء تمثيلي- «جمل شعرية منمقة»، ضحكت حتى فاضت عيناها بالدموع، وقالت: «سبعاوي» مفيش فايدة فيك أقسم بالله.

ضحكت وأنا أقلّد مشية سبعاوي في مشهد أنا المدير، وقلت لها: هي تافهة بس هتعجبك، هبدأ أنا، ثم قلت: أشوف الشمس في عيونك أموت م الخوف.

وأشرت لها: دورك هتقولي سطر على نفس الوزن والقافية.

- يرق القلب لسلامك.. إيه؟.. إيه؟ يروح مخطوف.

- أنادي عليكي في الزحمة يحن الشوف

- ألاقي في قلبك الكعبة.. مممممم.. ألاقي في قلبك الكعبة أصلي وأطوف.

قلت لها ضاحكًا: معلش نغيَّر القافية دي، ونجيب واحدة أسهل قبل مالاقي نفسي في الآخر «حلوف أو متلوف أو مهفوف»، ثم قلت: سابتني عنيكي وأنا بغرق في بحر حنين، ردّت بسرعة في هذه الجولة: وجيتلك تاني من الأول بقلب جنين.

- معاكي العمر بيطوّل يا نن العين.

تحمّست وقالت بصوت عال:

- يا رب الليلة دي تطوّل كمان ساعتين.

قلت لها فجأة.. «وأمك»؟ ضحكت بصوت عال، آه صح لازم أروّح حالًا.

وصلنا إلى شقتهم في المعمورة، فقالت وهي تحتضنني عند المدخل الشجري تصبح على خير، هكلمك في الفندق الصبح تكون صحيت، سلام.

من جديد عادت «فريدة» وقد استردَّت شيئًا غاليًا أهمَّ من الحب، وهو الثقة بالنفس وضحكتها المرحة، على الأقل بدأت تستجيب لرحلة الشفاء من أوجاع الطلاق المؤلمة.

في طريق العودة إلى فندق فلسطين، وكنت قد نزلث به، أعطيث سائق التاكسي شريطًا لـ«نديم» كان هدية لي من «فريدة» يجمع عددًا كبيرًا من أغانيه القديمة مع «القاضي» و«الشرقاوي»، خرج صوت «نديم» من كاسيت التاكسي؛ ليبهرني من جديد، كأنني أسمعه لأول مرة، ابتسمت وأنا أردد عبارة أمي: الواد بتاع الموالد مابقاش يسمع غير الناس الجادين.

بعدها التقيت الشرقاوي في جلسة مع شعراء سكندريين، وكانت ليلة رائعة، قال لي «شرقاوي» بعد أن انصرف الجميع: عملت إيه مع مسيلمة الكذاب؟ قلت: يبقى «رؤوف» كلّمك وحكى لك. قال: واستجدعتك، فاستكملت: عشان كدة قلت لـ«رؤوف» مش عايز أروح معاك، لكنه أصر، ثم سألته ليه بتسمّيه «مسيلمة»؟ قال: لأنه بيكذب طول الوقت حتى وهو بيغني، قلت له: اسمح لي أختلف معاك يا أستاذ، يمكن تكون دي الحتة النضيفة اللي فيه، قال لي: يا ابن الإيه، والله عندك

حق يا واد يا «كَحَّال»، رددت عليه: إنت بتحبه زي أنا ما أحبه، بس عارفين إنه كداب وفيه العبر، بس برضه بنحبه، ثم سألته: تفتكر إحنا كدة مرضى؟ ضحك وقال: لا إحنا أنانيين بنحب نفسنا في الحتة النضيفة اللي فيه، ابتسمت: نبقى مرضى، ضحك وقال: يا ابن الإيه تاني، قلت: نفسي أسمع منك عن فترة اعتقالك إنت و«القاضي» و«خالد الجارحي» و«حمدي شريف» في حملة ٣ سبتمبر١٩٨١م، قال مكناش مع بعض عشان كدة كل واحد فينا لو حكى الحكاية محدش هيقدر يكذبه، لكن تعالى أحكيلك حكاية اعتقال «طه»، وهو أطيب واحد فينا، لما اعتقلوه كان في بيت الجيزة مع «ليديا»، خطفوه من حضنها زي عيل صغير من أمه، الصدمة خلته اتخرس ومكانش مستوعب، وفضل على الحال دا أول أسبوع، مش قادر يتكلم، كان فيه توصية إن محدش يقرب له، طبعًا لأنه من شعراء أكتوبر، وفي الحقيقة «طه» مكانش معارض لكامب ديفيد ولا من الناصريين اللي بيستفزهم «السادات» طول والوقت، ولا الشيوعيين اللي بيتغاظوا من تصعيده للتيارات الدينية عشان ياكلوهم، كان في حاله بس اتحط ضمن القوايم اللي اتحطت في بيت السادات في ميت أبو الكوم، واتشدّ معانا بتهمة تأسيس حزب شيوعي، لكن تأثير الفترة دي عليه كان كبير، وأثرت فيه نفسيًا ومازالت تأثيراتها واضحة زي ما انت شايف؟ سألته تقصد إنه بيكتب

لـ«رشيدة»؟ قال: دي حاجة من حاجات كتير، بس للأمانة كتابته رغم سوداويتها لم تخلُ من حسه الإنساني المعهود، لكن تردي الحال في إنه يبعد عن «ليديا» ويعيش في شوارع وسط البلد ويهجرها طول الوقت، و«ليديا» دي ست عظيمة يا «كَحَّال» حاجة كدة من الستات اللي مش سهل تقابلها في الحياة غير مرة واحدة في العمر، ويمكن ماتقابلهاش أصلًا، لكن للأمانة هو ماتاجرش بالمعتقل زي غيره، ولا شحت بجرحه في الدول العربية، أو ادّعى النضال، كتم جرحه، وركّز في شغله، ثم سكت قليلًا وقال لي: بالمناسبة مبسوط عشان شفت في عينيك الحب إنت والبنوتة اللي كانت معاك، قلت له: دي «فريدة» حبيبة عمري، وحكيت له عنها وعن قصتي معاها، ليلتها قال لي «الشرقاوي»: إوعى تطلع خايب زي «طه» وتضيعها، قلت له مازحًا: لا هطلع شاطر زيك وأتجوز عليها، فقال: ضاحكًا: خليك على كيفك.

ضمّتني الإسكندرية في ذلك الصباح البهيج بـ«الشرقاوي» و«فريدة» وطنط «سامية» والبحر وصوت «نديم» وحكايات «ليديا» و«طه» الذي أحبه وأحب أغانيه حتى التي كتبها لـ«رشيدة»، ليته كان معي عندما كان العساكر في الكتيبة يطالبونني بالمزيد من أغاني «رشيدة»، ولم أكن أعلم وقتها أنه هو من يكتب تلك المواويل الشجية، والأغاني الراقصة

الدامعة في آن واحد.

وصلت الفندق، ونمت نومًا عميقًا لأول مرة منذ سنوات، بعد الظهر جاءني اتصال «فريدة» وهي تخبرني:

- عازمينك على الغدا أنا وماما بمناسبة خروجك من الجيش.

- ياه إنتي قلبك إسود أوي.

- لا والله.. بس قلبي له مواعيد.

- «قلبي له مواعيد» دي غنوتي.

- عارفة.

ارتديت ملابسي وخرجت، بحثت عن أرقى محل ورد في المدينة الساحرة، ليكون هذا البوكيه أول ورد أحمله لسيدة في حياتي أو لسيدة حياتي كلها «ديدة».

صافحت «طنط سامية» في أحد كافيهات المعمورة

المصمَّم على طريقة غابات أفريقيا، والتي قالت: إنت فين يا إبني ما بتسألش، كنت بتسأل عليا و«فريدة» مسافرة دلوقتي خلاص بقيت أعرف أخبارك «حصريًا» منها.

قلت لها: حد يبقى عنده وكالة أنباء قمر زي «فريدة» كدة ويسأل على «مروان» برضه؟

ابتسمت السيدة، فشعرت أني لم أرَ على وجهها ابتسامة صافية منذ سنين، قدمت الورد لـ«فريدة»، وقلت لطنط «سامية»: فين بقى الغدا اللي بقاله كام سنة دا؟ قالت «فريدة»: تعرف إني محتفظة بالفلوس بتاعة غدا ماما من ساعتها، قلت لها: فعلًا قلبك له مواعيد.

اقترحت طنط أن نتمشى قليلًا حتى يجهز لنا الشيف الغداء، حيث ستقوم هي باختيار الأسماك بنفسها.

شكرتني «فريدة» على الورد وعلى سهرة أمس، وكانت ترتدي فستانًا ستيناتيًا أبيض منقوطًا بالأسود ذا حزام أحمر عند الوسط قلت لها: إنتي أحلى وردة في الحياة. وسألتها: ينفع أكلم ماما عن مشروع جوازنا؟

توقفت فجأة عند الشاطئ وقالت: مش عارفة هيبقى صح ولا غلط، إننا نرتبط دلوقتي، قلت:

- على الأقل يبقى وجودي في حياتك واضح.

- حاسة إني لسه محتاجة وقت.

- خايف منقدرش نشوف بعض أكتر، ماما وإيجابيتها معانا ممكن مع الوقت تتغير، أو تحس بفتور، أنا شايف إني ع الأقل لازم أتكلم معاها.

التفتت «فريدة» ولأول مرة تقول كلامًا لأفهمه:

- بص يا «مروان» أنا مرضالكش إنك تتجوز واحدة «مُطلقة» حتى لو أنا عايزاك، وكمان أهلك في البلد أعتقد إنهم مش هيرضوا.

- واضح إنك لسه تعبانة، ارتاحي وبعدين نتكلم، المهم إنك حلوة أوي النهارده.

استقبلت «فريدة» جملتي الأخيرة بفتور واضح، وكأني

ألقيت عليها ماءً باردًا، اعتقدتُ وقتها أني لم أحسن اختيار كلماتي، وكان عليّ أن أؤكد لها أني متمسك بها أكثر، وأني سأقف ضد أي تدخُّل من أهلي، وأني قادر على إقناعهم بشتى الطرق، لكنني تصرَّفت بقناع العاقل الذي أكرهه، وينط في وجهي مع كل خيار مصيري مع «فريدة».

بعد الغداء تأبطت ذراع والدتها متمشيًا على البحر، وكانت هي تسير بجانبنا حاملةً وردها ومنتشية به، سرعان ما تأخرت قليلًا، قلت لطنط: أنا عايز أتجوز «فريدة»، ومش عارف أعمل إيه؟ ممكن تساعديني؟ هي خايفة أكيد من الخطوة دي.

- أساعدك ازاي؟

- طمّنيها، ومن ناحية أهلي ماعتقدش إنهم هيمانعوا في ارتباطنا.. أهلي ناس طيبين وهيفرحولنا.

- هي قالت لك إيه؟

- قالت إنها محتاجة وقت وخايفة من أهلي، وأنا مش حابب أضغط عليها، كمان خايف مقدرش أشوفها لو إحنا

مش مخطوبين.

قالت السيدة التي تمتلك جزءًا كبيرًا من قلبي:

- أنا عارفة بحكايتكم دي، اتطمن وسبها على الله، الأيام بتداوي كل حاجة.

في المساء جلست على الشاطئ تاركًا «فريدة» تقرأ، وجلست أجمع حبات الصدف وأنظفها، تمنَّيت لو قدَّمتها لها في عِقد ترتديه، في الثواني التالية، لمحت طفلةً صغيرةً تبيع عقود الصدف على الشاطئ، يا لها من أمنية تحققت سريعًا، فهل يا رب ستحقق أمنيتي الكبيرة في أن نكون معًا.

جريت على «فريدة» كالملهوف، وكانت منهمكة في القراءة، وحكيت لها حكاية الصدف، وألبستها العِقد، فقبَّلت يدي، قلت لها: آدي أمنية صغيرة اتحققت أهي، أنا عارف إن ربنا بيحبني وهيحقق لي أمنيتي الكبيرة، اتجوزيني ومتخافيش، هننجح صدقيني.

قالت في هدوء: يا رب.

كان الغروب قد كسا وجه السماء، وكان عليّ أن أعود إلى القاهرة لولا نظرتها، ويدها التي تشبّثت بيدي هو تقول: خليك النهارده كمان.

فاستمرّت جلستنا على الشاطئ حتى نزل الظلام.. اقتربت منها، واحتضنتها بقوة ولأول مرة تنام «فريدة» في حضني كطفلة مرهقة، بينما كنت منشغلًا بتقبيل وجهها وعيونها وشفتيها، نبّهنا تليفون «رؤوف»، ضحكنا سويًّا وقلت لـ«رؤوف»: سأعود غدًا صباحًا يا خنيق، فقالت: تعالَ نروح لماما بقى كفاية كده.

ليلتها جلسنا أنا و«فريدة» وطنط «سامية» في أحد مقاهي الكورنيش، وكان شاغلنا الشاغل هو موضوع إتمام الزواج، رجّحت السيدة الطيبة أن ننتظر -كام شهر- من باب جبر خاطر عائلة زوجها السابق، أو حتى يتزوج؛ اتقاءً لغضبتهم، وذلك على الرغم من أن موضوع الطلاق كان قد مرّ بصورة سلسة تنازلت هي فيه عن كل ما لها عنده من حقوق، وفي المقابل تغاضى هو عن خسائر الطلاق السريع.

قلت لها:

- تكفيني كلمة منكم على الأقل بيني وبينكم، أما الناس فسيتكلمون إن آجلًا أو عاجلًا.

قالت السيدة:

- من ناحيتي أنا معنديش مانع، بس الكلمة العليا لوالدها.

لم أكن على معرفة وثيقة بـ«حسين الجمال» والد «فريدة»، والذي تزوَّج من زميلته «سامية» بالشركة التي كان يعمل بها، وأنجبا ابنتهما الوحيدة «فريدة»، وسافرا إلى الخليج لعدة سنوات، لكنهما كانا ممن ضربتهم شركات توظيف الأموال في مقتل، لولا الراحلة جدة «فريدة» لما قامت لهم قائمة، فقد باعت السيدة التي سُمِّيَت «فريدة» على اسمها كل ما ورثته عن والدها في صعيد مصر من أطيان وعقار، وقالت لابنها «حسين» ذات مساء: خد يا ابني وماتزعَّلش نفسك.. كده كده أنا محيلتيش غيرك، ودا عوض ربنا ليك. ومنذ ذلك اليوم لم تفارق «حسين» لحظة، كان يقول: لديَّ طفلتان «فريدة» الكبيرة و«فريدة» الصغيرة.

«عاشق ومداح تلومني ليه يا خالي

خليك في حالك وخليني أنا ف حالي»

١٢

في مساء اليوم التالي كنت أقف في الاستديو مع «رؤوف»؛ لسماع الأغاني التي تم تنفيذها، وصلنا تقريبًا لأكثر من عشرة أغانٍ أضفت عليهما أغنيتين من الفلكلور الفلاحي، كنت قد حفظتهما عن أمي باللحن، وطوَّرهم «رؤوف» على موسيقى الروك والجاز أصبح لدينا رصيد معقول لحلفة أولى ستكون بالمسرح الصغير بالأوبرا.

في اليوم التالي وقَّعنا العقد مع إدارة الأوبرا، واخترت أنا يوم ١ سبتمبر ليكون يوم حفلتنا، وهو الموافق لعيد ميلاد «فريدة»؛ حتى أتمكن من الاحتفال بها، هاتفنا «الشرقاوي» للحصول على تصريح منه لأغنيته التي مزجها «رؤوف» بأغنية من الراي الجزائري، فبدا المزيج عبقريًّا لكل من سمعه، ذهبنا لـ«الشرقاوي» في المساء في منزله بفيصل، قال بعد أن سمعها: غنوها، ومش عايز منكم فلوس؛ إنتم لسه في الأول، بس لو سجّلتوها لشركة ترجعوا لي، هكذا كان «الشرقاوي» باختصار، وقتها وفي نفس الجلسة قال: عايز أسمعك يا كَحّال مسمعتكش في اسكندرية، كعادتي راوغت قلت له: كفاية الأغاني اللي إنت سمعتها، قال: سمعت إن عندك

قصايد، فتحت أنا على الرابع يومها، كرّر «الشرقاوي» حديثه مجددًا: خليك على كيفك، وكتبها لي على أحد دواوينه التي اصطحبتها معي للتوقيع، فكتب:

«إلى مروان الكَحّال الشاعر «مغربي الهوى».. خليك على كيفك».

أما حكاية مغربي الهوى فـ«رؤوف» وحده هو من كان يعرف تفاصيلها، وكذلك «صبري علام» الممثل.

اشتدّت البروفات في الأيام التالية، لكن كان عليّ أن أذهب إلى البلد؛ لأتحدث مع أبي وأمي في أمر «فريدة»، وكنت يومها قد اشتريت الموبايل، وأول مكالمة أجريها كانت لأمي؛ لأخبرها بقدومي، وبعدها «غازلت» «فريدة» التي قالت: «مبروك»، وكانت تمتلك «مبروك» رقيقة جدًّا تنغمها بنغمات الطفولة و«الأنوثة» في آن واحد، وكأنها تخاطب فيك طفلها القادم.

كانت أمي تعرف كل حكايتي معها، فقالت قبل أن أبدأ الحوار: مش دي اللي كسرت فرحتك زمان، وراحت اتجوزت؟ اتلمّت عليك هي وأمها تاني عشان تتجوزها بعد ما

سابتك زمان.

- لها كانت ظروف وأنا السبب.

- لا مش إنت السبب، إنت عملت إيه؟ وبعدين تتحمّل ليه غلطة غيرك وتتجوز واحد «مطلقة»؟

أشفقت وقتها على «فريدة» من غلطة ردّ أمي، وكنت أعرف أن هذا ما ينتظرني وما ينتظر «فريدة» من مجتمع قاسٍ يحمّل المرأة الكثير في مسألة الطلاق.

قلت لها مجددًا:

- يا أمي يا حبيبتي أنا بتجوز واحدة بحبها مش في دماغي بقى متجوزة قبل كدة والكلام الفارغ دا، أنا بحب الست دي وخلاص وعايز أتجوزها، وعايز رضاكم عن الموضوع.

فقال والدي:

- يعني بعد العمر دا مش عايزنا نفرح.

قلت له:

- إزاي؟ اعمل أحسن فرح، وهات «الصواف» يغني، وأنا أجيبها ونيجي نفرح معاكم، لكن سيبك من الناس مايفرقوش معايا.

- بس دي جرحتك؟ ومش بعيد تجرحك تاني.

طال الحديث طوال الليل، ولم تنم «فريدة» ليلتها حتى قلت لها في رسالة: «الحمد لله.. موافقين».

بعد ساعات من الجدال أصبحوا في غاية الطيبة معي، ورقّت أمي لفريدة، ونسيت الجرح القديم، فحكيت لها عن طنط «سامية» وتواصلي الدائم معها؛ فهي تعتبرني ابنها الآن.

بقيت أمامي عقبة واحدة، هي الوقت، ومقابلة والد «فريدة» الذي لم تشأ الظروف أن ألتقيه حتى الآن.

في صباح اليوم التالي كنت قد وصلت إلى القاهرة، ومن مكتبي في الوكالة تحدثت إلى «فريدة»، وطلبت منها أن

تنزل وسط البلد لأراها، وكانت قد عادت إلى القاهرة هي الأخرى بعد أن بقيت في الإسكندرية لأكثر من شهر.

تعللت «فريدة» أمام والدها بأنها تحتاج إلى بعض الملابس والأحذية الجديدة، وطلبت من والدتها أن تنزل معها، فرفضت بحجة التعب من علقة إسكندرية، وخاصة أنها هي من كانت تقود السيارة.

في مقهى الأمريكين بوسط البلد التقيت بـ«فريدة»، جلسنا قليلًا، نقلت لها ما دار بيني وبين أبي وأمي دون أن أتطرّق لما يعكر صفوها، قالت ممتنة: نفسي أروح أشوفهم، ممكن آجي يوم معاك؟

- طبعًا.. نعدّي بس الحفلة.

- أنا مستنية الحفلة دي بفارغ الصبر.

- وأنا كمان، هيكون أحلى يوم وأحلى عيد ميلاد.

تفاجأت «فريدة» من اختيار يوم عيد ميلادها مع الحفلة، وقالت: لا صدفة حلوة!

- مفيش حاجة مش معمول حسابها، إنتي بتشتغلي مع أعلى جهاز مخابرات في العالم يا هانم.

- آه لو تعرف إنت غالي عندي قد إيه؟

قلت لها في إنصات:

- أحب أعرف.

- وأنا في السفر (كانت «فريدة» دائمًا تصف تجربة زواجها الأولى بالسفر)، كنت بتلحّ عليّا طول اليوم، لدرجة إني كنت بكلمك طول الوقت وأنا في أصعب لحظاتي، كنت إنت اللي بتهوّن عليا اليوم، واليوم هناك كان طويل جدًّا، وأنا مكنتش باشتغل، حاولت أقرأ أو أخرج مع ستات من جيراني فلشت، الناس في الغربة بيكونوا جحيم، ومكانش فيه أي حاجة غير الأكل والشوبينج، وأنا كنت تعبت.

مرة اشتريت كام ألبوم لـ«نديم» وقعدت أسمع بطريقتك وأتخيلك بتقول إيه، وساعات كنت أدور على اسمك في الأسامي اللي بتكتب له، وساعات أقول: دي أكيد غنوة «مروان» هو بيكتب كده، وكنت بتمنى دا يحصل.

- إحنا أهو بنشق طريق جديد أصعب من طريق «نديم الراوي»، الحفلة دي هتكون بداية، وأوعدك تقري اسمي كتير الفترة الجاية.

كانت الحفلة تقترب، والأعصاب شبه تالفة، وأنا و«رؤوف» في غاية الإرهاق والقلق، كنا نمشي في الليل في شوارع وسط البلد نعلِّق بوسترات الحفل، ونضع الصغير منها على المقاهي والكافيهات والمحلات الكبيرة، وكان «صبري علام» و«ليلى شريف» يمارسان جنون الشوارع معنا، كنا خائفين من تعليق تلك البوسترات بشكل غير قانوني، ودعوت أنا كل زملائي في الوكالة وعزم «رؤوف» كل الصحفيين من أصدقائنا، أردنا أن نحشد أكبر عدد من الأصدقاء، كنا نخشى الغرباء أو المتطفلين، دعونا «الشرقاوي» ورفاقه، في صباح يوم الحفل كانت الأخبار والأهرام والجمهورية يسطرون أول أخبارنا في أبوابهم الثابتة المتعلقة بالحفلات، كان اسمي لأول مرة يأتي بعد اسم عيسى الشرقاوي، صحيح أني كنت قد نشرت عددًا من القصائد هنا وهناك، وكتب عني «حمدي شريف»، لكن فرحتي بأول خبر كانت عارمة.

دخل الليل سريعًا، وبدأ دخول الجمهور وكانت «فريدة»

في المقدمة، ومعها طنط «سامية»، والمفاجأة كانت في حضور والدها تلك المفاجأة التي أربكتني أكثر، بل شلَّت تفكيري، أرسلت لها رسالة: «فهّميني».

قالت: بابا تعب وجبناه يغيَّر جو.

كان عليَّ أن أتماسك، أنا لا طاقة لي بتلك المفاجآت، وكنت قد أعددت قصيدة لـ«فريدة»، ماذا سأفعل؟

على كل حال بدأ الحفل بغنوة «الشرقاوي» الذي حضر متأخرًا في جلبابه البلدي الذي كنت أحسده على أناقته، ثم بدأ «رؤوف» في التعريف بالفرقة عازفًا عازفًا، ثم تكلَّم عن الفرقة، وشكلها، وما تقدِّمه، وبدأ في غناء أغانينا معًا، كنت أقف في الكواليس أتابع ردة الفعل على الأغاني الواحدة تلو الأخرى، حتى طلب مني «رؤوف» الدخول للمسرح؛ لتقديم قصيدتي، والتي ستكون بعدها غنوة بعينها.

رحَّبت في البداية بـ«الشرقاوي» الأسطورة، والتجربة العظيمة والمهمة، وقلت: شرف لي أن أقدِّم نفسي أمام قامة كبيرة وتجربة حياتية لا تتكرر، وبهذه المناسبة اسمحوا لي أن أقدّم قصيدة اسمها «راجع شهيد»، صفَّق الجمهور بحرارة،

فقلت: لكن قبلها اسمحوا لي أن أدعوكم للوقوف دقيقة صمتًا على روح صديقي فارس صاحب القصيدة البطل الشهيد.. قلت القصيدة التي تفاجأ بها «رؤوف»، وتفاجأ بها الحضور، وتفاجأت أنا بردّة الفعل والدموع التي انهمرت من «فريدة» وطنط «سامية» والحضور، وطلبت أن أقول القصيدة الثانية المتفق عليها، وهي لـ«فريدة»: كنت أتعمد النظر في عينيها وسط الحضور، وجاءت الغنوة بعدي لتكمل الصورة، لمحتُ في عينيها لمعةً جديدةً بها شيء من الأمان هذه المرة، وكأن فرحتها اكتملت بحضور والدها، أعاد «رؤوف» غنوة «الشرقاوي»، ودعاه للصعود على المسرح، واصطحبته للصعود، قال «الشرقاوي» في مستهلّ كلامه: أدعوكم جميعًا لمساندة «الشباب دول» عندهم فن حلو ورؤية ومعاهم شاعر حلو ومتمكن، ومن ناحيتي شايف إنهم يستاهلوا تحضروا لهم تاني وتالت ورابع، وتدعوا لهم أصدقاءكم وحبايبكم، الفِرَق دايمًا بتظهر لما بيكون فيه ركود، ولما بيكون فيه سطحية وانحسار الغنوة في سكة العواطف بيخليها تبهت وتبقى صايصة، وبقول للولاد دول خدوا بالكم من بعضكم، وخدوا بالكم من مصر.. ختم «الشرقاوي» كلمته، وقوبل بعاصفة من التصفيق، فقلت لنفسي ساعتها: إحنا نجحنا.

ختم «رؤوف» بعدها بغنوتي الفلاحية، وكانت بعض الحاضرات تزغردن مع الغنوة، وهو ما أضفى عليها مزيدًا من البهجة، حيَّت الفرقة الجمهور، ونزل الجميع للسلام على الجمهور، والتقاط الصور معهم، وكنت أنا في غاية التوتر من السلام على والد «فريدة»، رغم أن الرجل بدا بشوشًا ومبتسمًا، تقدَّمت في خجل، وسلَّمت عليه وعلى طنط «سامية» وعلى «فريدة» التي قالت: معلش.. بس انت كنت حلو، وقلت حاجات حلوة.

كان علينا بعد ذلك التصوير مع برنامج «ليلى شريف» الذي حضر لتغطية الحفل، قلت لها: لا تنصرفوا، هنخلص ونرجع، هنأت «رؤوف» واحتضنته بشدة، وقلنا في صوت واحد: «توكلنا على الله».

مرَّت عائلة «فريدة» من أمامي أثناء التصوير مع «ليلى»، فلم أشأ أن أكلِّمها وزاد ذلك من تشتتي، بعد التصوير خرجت أبحث عنهم في ردهات الأوبرا فلم أجدهم.

حاولت الاتصال بـ«فريدة»، لكنها لم تُجِب، ما أضاع حلاوة الليلة ومفاجأة عيد الميلاد.

بعد أكثر من ساعة من القلق والتوتر أرسلت «فريدة» رسالة قصيرة: آسفة مشينا عشان بابا تعب.. خلي بالك من نفسك.

لحقت بـ«عيسى» الذي احتضنني عند باب الأوبرا، وقال: تعالى معايا نشرب، ونتكلم في النادي اليوناني، تعالى نتمشى الجو خريفي وحلو، ومررنا بكوبري قصر النيل ثم بميدان التحرير، ثم بشارع الأنتيكخانة إلى أن صعدنا للنادي اليوناني، كان «عيسى» يتكلم ويدخن بشراهة، ويسلِّم على المارة، فيستوقفه البعض ليذكِّره بنفسه أو ليسلِّم عليه، أو ليعلِّق على مقال أو قصيدة أو برنامج ظهر به «عيسى» مؤخرًا، سريعًا اتخذنا طاولة في أحد الأركان، فنزلت لنا المقبلات والمزات، ففهمت أن «عيسى» دائم التردد على النادي، بعد قليل اقتربت سيدة جميلة شقراء مشدودة القوام، بدا عليها أنها في نهاية الأربعينات من عمرها، عانقت «عيسى» بمودة وحيَّتني وقالت له: بقالك كتير مابتجيش، قال لها: ادعي لـ«كَحَّال» هو اللي خطفني النهارده ونزِّلني، ثم قدَّمني لها وقال: «مروان الكَحَّال» شاعر ونجم جديد في كتابة الأغنية، أنا فرحان بيه قوي يا «ليديا»، استوقفني الاسم لوهلة، ثم قلت في نفسي: أيعقل أن تكون هي؟ تفحص «الشرقاوي» ملامحي، وأدرك ما يدور برأسي، ثم اقترب وقال: أيوه هي، جلسنا بصحبتها، وكنت ما زلت واجمًا

أتأملها في صمت ولا أنطق بكلمة، أهذه هي السيدة التي اقترن التغزُّل فيها بالتغزُّل بالحبيبة الكبرى مصر، أهذه حقًّا هي «ليديا» ملهمة الشعراء وحارقة أكبادهم لجيل كامل هو جيل السبعينات، يا إلهي هذه ليست امرأة عادية، إنها إلهة من آلهة الأوليمب هربت عابثةً لتعيش بيننا وتُعلِّمنا فنَّ العشق، شدَّني «الشرقاوي» من شرودي بقوله: ها بقى تشرب إيه، أنا عارف إنك لسه مدووش بالحفلة وبـ«فريدة» وعيلتها اللي خرجوا وانت واقف بتسجّل، ضحكت وقلت له: إنت خطير على فكرة، أنا كدة هخاف منك، بعدها قالت «ليديا» في رقَّة متوقعة: آه طبعًا، هو فيه منه اتنين؟ دا أذكى خلق الله في الأرض، قالتها بعفوية شديدة، قلت له أجاريه: بيرة.. فلتكن ليلة من ليالي «الشرقاوي» يا سيدي، ضحك «عيسى» ثم توجَّه بسؤال لـ«ليديا»: هو عامل إيه دلوقتي؟ قالت: مابنتكلمش، هو بييجي ويدخل ويخرج من غير ما يقول ولا حتى كلمة، قال لها: سيبيه هيخرج من حالته دي قريب، فقالت: ولا مايخرجش بقى هو حر، المهم إنت صحتك عاملة إيه، فهمت أنهما يتحدثان عنه، ذلك الغائب الحاضر صاحب الحكاية الكبيرة التي تستحق أن تُعرف.

بعد قليل ودَّعتنا «ليديا» في طريقها لبيتها، قلت لـ«الشرقاوي»: هو ليه بيعمل كده في نفسه؟ قاصدًا «طه»،

قال: الموضوع كبير، وأنا شخصيًا متعاطف معاه؛ لأننا تقريبًا في بوتقة واحدة إحنا الاتنين، اتركنًا على الرفّ مع مطرب بنحبه لصالح شاعر واحد، والقصة يا «كَحّال» مش قصة غنا وعدّ أغاني؛ لأننا شبعنا من دا، لكن القصة هي سرقة مشروع، «طه» حس إن «خالد الجارحي» سرق مشروعه، أو سرق صوته، وعشان كده هو تقريبا قرر يموت، واللي بيحصل دا مقدمات للموت، أما أنا فموضوعي مختلف، لكن لا أنكر إن «نديم الراوي» كان بيغطي الحس الثوري في شغلي، وكنت مبسوط بيه، أما «طه» فشعر إن «نديم» طعنه في ضهره، مع معرفته بجذور الصراع القديم على قلب «ليديا»، وانتصار «طه» في معركة حسمتها هي لما اختارت «طه»؛ لأنه مخلوق وديع وعلى فطرته النقية، ولو كان ليك حظ وقابلت والدة «طه» هتلاقيه نسخة منها، «طه» هو الوحيد اللي فضل زي ما هو عنده نقاء شعري لم يتأثر بأي تيارات ثقافية متلونة، وحتى تكنيكات كتابته لم تتغير، وفضل عنده النظرة والرؤية السابقة لزمانها، قلت له: نفسي أشوفه وأتكلم معاه، قال: بس يرجع الأول.

إلى هنا كان عليّ أن أنسحب، فلم تكن ليلةً من ليالي العمر كما تصورت، ولم اشرب زجاجة البيرة التي طلبها لي عيسى، مكتفيا بلقاء ليديا تلك السيدة التي تمنيت لقاءها منذ عرفت

قصتها الأولى مع «طه»، مشيث ليلتها وحدي من وسط البلد حتى المنيل، مضروبًا بنشوة ليلتي وحزنها، كان الجو خريفيًا لطيفًا، وأنا أحب الخريف، وأسميه فصلي الوقور، يشبهني تمامًا، أنا الشيخ المسنُّ الكامن في ملابس الشاب الذي قارب الثلاثين، كان الكثير من الناس يسألونني - للوهلة الأولى - : ما لك؟ من كثرة تركيزي وصمتي ووجومي، وأنا لا أعرف لذلك سببًا.. أنا كائن خريفي بكل وقاري وغموضي وصمتي، حاولث تصنيف «فريدة»، فوجدتها تشبه الشتاء في ليله الطويل ودفء البيوت وريحة الشوارع بعد المطر وعبق القهوة، بينما وجدت «ريما» تشبه الربيع في جنونه وحيويته وتقلباته، ترى ماذا لو صنَّفت «طه»؟

وصلت الشقة وكنت أكثر إنهاكًا، ارتميث على سريري دون أن أفتح نور الحجرة، وقبل أن يأخذني النوم جاءتني مكالمة كنت أنتظرها من «فريدة» قالت بصوت خافت: آسفة لكل ما حدث اليوم من لخبطة، بابا مكانش جاي معانا بس جاتله مكالمة من الخارج رفعت له ضغطه، فمهانش علينا نسيبه لوحده، وماما قعدت تتدلع عليه لحد ما نزل معانا، بس إيه يا عم القصايد الحلوة دي، مش قادرة أقولك على قصيدة «فارس» عملت إيه فينا، ماما اتشحتفت عياط.

قلت لها:

- طب والقصيدة التانية؟

قالت بخبث:

- هو كان فيه قصيدة تانية؟

قلت مازحًا:

- طب مع السلامة.

- لا لا استنى.. حلوة تجنن والله، بجد دي أحلى هدية عيد ميلاد جاتلي، وماما طبعًا خدت بالها من حكاية «عقد الصدف».

- المهم بابا ميكونش خد باله.

- الأهم بقى إننا كلنا روحنا مبسوطين وبابا نسي المكالمة اللي ضايقته، وكان مبسوط إنه شاف «عيسى الشرقاوي»، وحكى لنا عنه، وإنه في مرة في السبعينات جالهم في الكلية

وقال شعر، سألتني فجأة:

- خدت بالك من الضفيرة؟

- ممممم حلوة.

- شعري بدأ يطول تاني، كنت حاسة إني عيل سنكوح من العيال اللي بيمشوا في وسط البلد.

- عيل سنكوح بس عسل.

- يلا روح نام، ونكمّل كلامنا بكرة.

- تصبحي على خير.

«إزاي أنا انضام وأنا ليا في حيكم عمين؟»

١٣

في اليوم التالي نمت طوال النهار، وأظن أن «رؤوف» فعل نفس الشيء، إلا أنه سبقني وخرج، حاولت الاتصال به فلم يردَّ، فتوجهت قاصدًا كافيه «توسكانيني» بشارع المنيل علِّي أجده هناك بصحبة «ليلى شريف»، فأرغي معهما، طلبت قهوتي، وجلست أطالع الوجوه، أرسلت لـ«فريدة» رسالةً أطمئن فيها عليها، فلما لم تتصل علمت أنها بالقرب من والدها أو ربما خرجا معًا لقضاء بعض الوقت بالخارج، سألت نفسي في ملل: ما الذي يجعل الإنسان يأوي بصفة عامة إلى المقهى؟ هل هو احتياج بشري عام؟ أم إن الأماكن تُعرف بأصحابها؟ ومن قاسموك الحلم والحزن والفرح والدموع؟ كان نجيب محفوظ يفضِّل الفيشاوي؛ لقربه من الجمالية، حيث مسقط رأسه، وهي مسرح أغلب رواياته، وكانت له طاولته المخصوصة يفضِّل الجلوس عليها، وكان المنيل قد أصبح بالنسبة لي كأنه الحي الذي وُلِدت به، أحبه وأحب ناسه، أمشي في الشارع الكبير أو الشوارع الجانبية، أغدو إلى سوق الغمراوي أشتري اللحم من جزارة دبشة، والعصير من أبوهمام، واللب والفول السوداني من مقلى المنيل، والسمك المشوي من عم بلبل، والأكلات المطبوخة الجاهزة

من مطعم عنتر، والأسماك الطازجة من عروس البحر، وساندوتش الفول بالطحينة والطماطم من فولي جود، والمشويات السريعة من عم محسن الذي يحلو لي أن آكل عنده أنا وشلة «رؤوف» المجانين، هناك التقيت «رشيدة» لأول مرة، وجلسنا نغنّي ونستمتع بحضورها وحكايتها، يومها طلبت منها أن تغني معنا في إحدى حفلات «مواعيد»، فقالت بكل ذوق: يشرفني، ولم يفُتني أن أذكر لها أنها كانت النجمة المحبوبة من عساكر الكتيبة.

هاتفتني «فريدة» فجأة، وقالت بفرح: إنت في التليفزيون! كانت إذاعة لبرنامج المجنونة «ليلى شريف»، والذي لم أكن أتصوَّر أن يُذاع بهذه السرعة، اتصلت بأمي، واتصلت بـ«رؤوف»، قلت: يا رب شكلنا يطلع حلو، فلم أكن أفرح أبدًا بأي لقاء تلفزيوني أجريته في أيامي التالية، وكنت أحب برامج الهواء؛ لأني لا أرى نفسي بعدها مباشرة أو حتى أسعى لتسجيلها.

هاتفتني «فريدة» ثانيةً، وقالت: شالوا كتير من كلامك! كنت قد غادرت «توسكانيني» للتسكُّع في شارع عبد العزيز آل سعود، تمنيت لو أنها كانت معي، نسير في هذا الجو المثالي على كوبري الجامعة نأكل الآيس كريم من لارين،

ونشرب حمص الشام في بدايته، أو نسترق السمع لعوّاد بائس جلس على الكورنيش يدندن على طريقة «الصواف» بلحن فريد: على الله تعود(12) على الله.. يا ضايع في بلاد الله.

تخيلت لو أن «نديم» هو من كان يغنيها، بالطبع ستختلف، وجال بخاطري لو أن الناس حمّلوها معنى سياسيًّا وليس المعنى الصوفي الذي ألفته من غناء «يونس الصواف» لها.

قلت لنفسي: ما الذي يجعل صوتًا كصوت «نديم الراوي» يجود بمثل هذه الأبعاد المتوازية من التأويلات في الغنوة الواحدة، لا بد أن هذا الرجل محفوف بعناية خاصة من السماء، أو أن والدته اليونانية كانت مستجابة الدعوة.

وصلت إلى ممر الأفترآيت بوسط القاهرة؛ بحثًا عن «طه» بعد أن علمت أنه يستقر به آخر الليل، اتخذت طاولةً في أول الممر، وطلبت عشاءً من سعد الحرامي(13)، كان الممر يعجُّ بفناني الفرق الجديدة أو من سيطلق عليهم فيما بعد فنانو «الأندرجراوند»، اقتربت من طاولة أحدهم وسألته: «طه القاضي» مظهرش النهارده؟ فقال: لسه، بس على وصول، ثم قال في ودّ: اتعشى وتعالى اشرب شاي.

جلست أنتظر «طه» حتى وصل في الثانية صباحًا، وعندما رأيته نظرت إليه طويلًا، ولم أشأ أن أتكلّم، قلت في نفسي: يكفيني أن أراه ولو من بعيد، دارت في جلسته عشرة الطاولة الأولى، وتعالت الأصوات، حتى إن عددًا كبيرًا من الجالسين اقتربوا يتابعون زهره الحراق وقرصاته ويضحكون، كنت أسمعه في كل مرة وأنا أراجع تاريخه كله: هب يك، دوبارة، دوسة، درجي، دبش، دوش، في نهاية الليلة انسحب «طه» في هدوء، فانفضّت جلسته، تابعت سيره في شوارع وسط البلد وهو سائر يدندن، ويطالع العمارات والوجوه حتى تلاشى عند مدخل ميدان التحرير.

وصلت إلى المنيل مع دخول الفجر، وكنت في قرارة نفسي قد تأهبت لمرحلتي الجديدة مع «فريدة»، فغدًا سيكون حفل تخرجي من الدبلومة.

في الصباح ذهبت إلى الكلية لتسلّم «الروب والشابوه»، وكنت قد هاتفت والدي ووالدتي وطلبت حضورهما، وبالطبع دعوت «فريدة» وعائلتها للحضور، حيث كان الاحتفال بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، وكان نجوم الحفل وقتها عددًا من الفرق الغنائية، وكان لذلك دلالة على مدى ترحيب

المجتمع بالفن المستقل، بدأ الحفل بالسلام الوطني، ثم الكلمات الترحيبية والتهاني، ثم الأغاني، ثم حانت لحظة تسلّم الشهادات، كانت المراسم طويلة جدًا، وكنت قد سلّمت والدي ووالدتي لـ«رؤوف»، وطالبته باستقبال «فريدة» والعائلة، حيث أجلسونا في المقدمة، أما الأهالي والمدعوّون فكانوا في آخر القاعة.

ترى كيف كان لقاء «فريدة» بأمي؟ قلبي معك الآن يا «رؤوف»، كيف ستواجه مثل هذه المشاعر وحدك ومسئولية تعريفهم ببعض؟

كل ما كنت أطمئن إليه أن «فريدة» كانت تحب أمي، وتتمنى أن تراها، وكذلك أمي كانت تحب طنط «سامية» قبل أن تراها.

ثم فجأة سمعت اسمي «مروان علي الكَحّال» الأول مكرر على الدفعة، ثم سمعت زغرودة طويلة عرفت أنها لأمي، بعدها ضحك الجميع، ثم صفّقوا.

خرجت أبحث عنهم في شغف مرتديًا ذلك الروب، كنت أبحث عن أمي حتى وجدت حضنها الدافئ ورائحتها الطيبة،

ثم وجدت أبي، وملت على يده أقبّلها، ثم «رؤوف»، وكان لحضنه في هذه الليلة معانٍ كثيرة، ثم سلمث بحرارة على والد «فريدة» الذي احتضنني وقال: مبروك يا ابني، ثم طنط «سامية» التي قبّلتني لأول مرة، ثم «فريدة» التي كانت في قمة الجمال والخجل في فستان رائع ارتدته من أجل اللقاء، وظلّت على خجلها طوال الليل، كان «حمدي» زميلي ومصور الوكالة قد حضر خصيصًا لتصوير هذه اللحظة، فكانت أول صورة تجمعني بها وبأهلنا معًا.

خرجنا جميعًا إلى أحد المراكب العائمة على النيل بصحبة «رؤوف» الذي رتّب لي كل شيء ببراعة، فكان العشاء فاخرًا، وكان الجو هادئًا ومثاليًا لمزيد من التعارف، بين والدي ووالد «فريدة»، ثم بين أمي و«فريدة» طوال الوقت، وكانت هناك ضحكات وغمزات، وبدا من أمرهم الكثير من الانسجام، وكنت أنا و«رؤوف» وطنط «سامية» نتبادل القفشات حول المحشي الذي تسبب في هذا النجاح، وأكل «رؤوف» أكثر من نصفه.

كنت أعلم أن والدي سيحتاج إلى الشيشة، فأوصيت «رؤوف» بأن يمارس هوايته، ويصطحب والدي ووالدها إلى روف المركب للشيشة، فكان ما طلبت، وظللت أنا وسط

دائرة الحنان الثلاثي الأبعاد أمي و«فريدة» وطنط «سامية»، قالت أمي قاطعةً هذا الصمت الشغوف: مش هتفرّحونا بقى؟ قلت: قريب أنا محتاج شوية وقت للبحث عن شقة كده، وأول ما أجيب شقة هنروح نطلب إيد «فريدة» اللي قاعدة مكسوفة دي.

قالت أمي: إنها عسل.

كان لأمي ابتسامة واحدة لا تتغير كنت أعرفها، وكانت ابتسامتها لـ«فريدة» ابتسامة فرح ومحبة، أمي دائمًا تكون في صفِّ قلبي، تحب من أحب، وتكره من أكره.

قالت أمي: طب قوم خد خطيبتك، وسيبني أتكلم مع طنطك «سامية» شوية.

كنت في لفهة إلى لقاء «فريدة» ولو لخمس دقائق وسط هذا الخضم من الأحداث، الحفلة وحفل تخرجي تذكرت فجأة عيد ميلادها، وأننا فشلنا في الاحتفال به يوم الأوبرا، لا بد أن نحتفل الليلة، بسرعة أرسلت رسالة لـ«رؤوف» ليعطيهم أوامر بتحضير تورتة، قلت لها، وأنا ألتصق تمامًا بجسدها الناعم: ينفع كده مش عارفين نتكلم، ولا نحب بعض

وسط الناس العظيمة دي.

- شوفت بقى مفيش أي اهتمام بينا ولا بمشاعرنا المتأججة (حلوة المتأججة صح؟).

- أموت في التأجُّج.

قبَّلت يدها فقالت:

- مبروك على الحفلة، ومبروك النجاح، ومبروك علينا رضا أهلينا عننا.

بعد قليل قلت لها: تعالي ننزل عشان فيه حاجة مهمة.

- إيه؟

- تعالي بس.

هاتفت «رؤوف» الذي قال: كله تمام يا ريس.

- طيب كفاية شيشة وتعالى بقى.

- أبوك دا عظيم إيه كمية الحكايات الحلوة اللي قالها دي، دا الراجل منبهر بيه.

- حلو دا.. انجز بقى.

نزل الجميع، وعدنا إلى طاولتنا الأولى، وقلت مفيش أحلى من اليوم دا عشان نحتفل فيه بعيد ميلاد «فريدة»، وأشرت بيدي، فدخل فريق من العاملين بالمركب، ومعهم تورتة توسطتها شمعة واحدة، وبدأوا في ترديد هابي بيرث داي.. كادت «فريدة» أن تدمع، وبالفعل دمعت عيناها، فأخذتها أمي في حضنها، واحتضنتني طنط «سامية» وهي تهمس: ربنا يفرّح قلبك من يوم ما شُفناك وأنت بتفرحنا.

ودَّعنا بعضنا عند بوابة المركب على وعد بزيارة قريبة.

أوصلنا «رؤوف» إلى شقة المنيل، ولم يصعد متعللًا: هبات عند «صبري علام» ابقى كلّمني.

لمست الفرحة في عيون أبي وأمي التي قالت وهي تبتسم: لا كان معاك حق تحبها.

قال أبي: يعني ماتكلمناش في حاجة.

قلت: أنا بدور على شقة، وخلال أيام هارسى على بر، ونروح نكلمهم رسمي، واللي حصل النهارده دا كان تعارف، وعشان إنتم كمان تتطمنوا.

فسألت أمي: وما لها الشقة دي؟

قلت لها: دي إيجار وبتاعة «رؤوف».

قالت: طب ما تكلمه أحسن ما يسيبها ويمشي ومحدش منكم ياخدها.

فعلًا كانت أمي ثاقبة الرؤية، فقد آلت إليّ شقة المنيل بعد أن قرر «رؤوف» أن يرحل إلى شقة أخرى عند أطراف المعادي، مع إعلان علاقته مع «ليلى شريف» بالقرب من فيلا والدها، وقتها لم أصدِّق، وقلت بفم مشدوه: «ليلى»؟، لكنه الحب كان ضرب قلب الفتى صاحب السيطرة على قراراته وانفعالاته صاحب الخطوات الثابتة الذي فاجأني يومًا أنا و«فريدة» بدعوة لخطوبة صغيرة في فيلا «شريف» بالمعادي لم يحضرها سوى عشرة أفراد على الأكثر هم

عائلته، وأنا و«فريدة» و«الشرقاوي» و«ليديا» و«صبري علام» الممثل، ليلتها تعرفت على «حمدي شريف» مباشرةً، وذكّرته بمقالاته عني ورسائلي، وكان الرجل وقتها في غاية السعادة بقربي من «رؤوف» و«ليلى».

ما جعل أمي تستعجل موعد خطوبتنا أنا و«فريدة» التي قالت ليلة الخطوبة: عقبالنا؟

قلت: يا ريت بقى، وآدي مشكلة الشقة خلاص خلصت، كلها كام يوم و«رؤوف» يمشي وتيجي تقولي هنعمل إيه في الشقة، ونجيب إيه؟

كانت «فريدة» تصمت كثيرًا حين أتكلم في جدية إتمام الزواج، وتسألني بعدها أسئلة من نوع: مش هتندم؟ متأكد؟ خلاص خدت قرارك؟ «مروان» إنت بتحبني بجد؟

كانت هذه الأسئلة تزعجني كثيرًا، وتثير حيرتي لوقت طويل، وما وصلني منها وقتها أنها ربما تشعر بما تشعر به امرأة خرجت لتوِّها من قصة فاشلة في مجتمع قاس بارد، أو ربما تكون هي نفسها غير متأكدة من مشاعرها أو خائفة من فشل يلحق بفشل التجربة الأولى، التي أثق تمامًا بأنها

خرجت منها بكامل اختيارها، ولم أكن أهتم بالتفاصيل، قال لي «رؤوف» يومًا: لا بد أن تعرف منها أسباب الطلاق؟

قلت له: لا أرغب في دخول هذه المنطقة الحرجة من حياتها، وكانت قناعتي وقتها أنني لو سألت لحظيت بإجابات من نوعية: (بخيل، أناني، خاين، واطي، بتاع نسوان)، وأشياء مثل هذه سيتحملها رجل آخر لا يستطيع الدفاع وقتها عن نفسه، وبالتأكيد لديه الكثير هو الآخر.

قال لي «رؤوف»: وقتها ماتبقاش سلبي كده؟

قلت له: مش عارف دي سلبية ولا ترفُّع؟، في حين أن النهاية واحدة، مين ساب أو اتساب أكيد الاتنين في ألم والاتنين حاسين بالظلم والوجع، ومين عارف ساعات بيبان إن حد ظالم وقاسي بس الحقيقة بتكون العكس.

كل ذلك دفعني لمراجعة بعض الكتب المتعلقة بالطلاق، فوجدت أمامي كل الإجابات، وما لم يدفعني ناحية سؤالها أو «استجوابها» على وجه الدقة.

على كل حال كنت أسمع «فريدة» أحيانًا بتعاطف المحب،

لكن لا أبدي رأيًا صريحًا في طرف غير موجود.

راودتني فكرة، ماذا لو قدَّم كل طرف إقرارًا عن حياته السابقة للطرف الثاني قبل الزواج، يتضمَّن بالتفصيل وبشهادة الشهود وبختم الدولة ما حدث له في الحياة السابقة على الزواج، قلت: أكيد كنا هنشوف العجب.

في مساء ليلة من ليالي الشتاء الذي دقَّ الأبواب بعد رحيل خريفي الوقور، طرقت جرس الباب لبيت «فريدة» في الزيتون، استقبلني والدها، ثم طنط «سامية» ذات الابتسامة الودود، ثم خرجت هي لتتحفني بابتسامة رائعة وتسريحة شعر على طريقة الشنيون مع الحلَق الطويل.

قلت للرجل بمنتهى الحسم: جئت طالبًا الموافقة على إتمام زواجنا، وهذه كل إمكانياتي.

تهلَّل وجه الرجل، وقال لي: بالتوفيق، ثم طلب أن ينفرد بي.

قال: لمست منك طيبة ومحبة وشايفك إنسان ناجح وماشي بخطوات ثابتة في حياتك، وأهلك كمان ناس

طيبين، كل ما أرجوه منك إنك ماتجرحش بنتي في يوم، أو تحسسها إنها أقل من أي بنت، ثم قال: أنا عارف إن عندكم في البلد صعب حد يتجوز من ست لها تجربة، بس حسيت من والدك إنك اخترت واحدة بتحبها ومقتنع، لكن كان لازم أقولك الكلام دا من اللي شفته من ناس دخلوا بيتي وماصانوش حتى العيش والملح.

قلت له: أنا بحبكم وبحسكم أهلى ودا بيتساوى عندي مع حبي لـ«فريدة» التي يعلم الله إني بحبها من أول مرة شافتها عيني في المعهد ومن يومها وهي ساكنة قلبي مابتفارقنيش لحظة واحدة حتى في غيابها، وأن كل اللي حصل ليا ولها هو قدر ومكتوب على قلوبنا، والحمد لله أنها جانبي دلوقت وبعد أيام هتكون في بيتي ولكم ولأهلي الفضل فى كل دا.

وقف الرجل، واحتضنني بشدة، وشعرت أن به رغبةً في البكاء، فتركته خارجًا إلى «فريدة» وطنط «سامية» في الصالة، وكان على وجهي ابتسامة رضا وفرحة كنت في أمسّ الحاجة إليها جعلت من المكان مكانًا آخر غير الذي دخلته منذ قليل.

لكن طنط «سامية» هي الأخرى كانت قد فعلتها وبكت، ثم

تلتها «فريدة»، فبكيت أنا الآخر، ثم ضحكنا جميعًا، حين قلت لـ«فريدة»: استني أتصل بالواد «رؤوف» ييجي يعيط معانا.

في تلك الليلة قررت «فريدة» أن تمنحني قُبلتها التي لن أنساها، وكان المكان قد خلا من الجميع سوانا، كانت قبلةً ساحرةً فاجأتني بها، على الرغم من أنني قبَّلتها من قبل أكثر من مرة، إلا أن لهذه القبلة بالذات حلاوة لا أنساها.

«مراكب الحب جابت طب للميت»

١٤

بات زواجي من «فريدة» وشيكًا، فقد حضر أهلي من البلد لخطبتها بشكل رسمي، وكان اليوم عائليًا بامتياز، سادته أجواء من الألفة والترحاب، بينما كنت أنا و«فريدة» نختلس بعض اللحظات الدافئة من آن لآخر.

في الأيام التالية بدأنا في نقل ما تبقى من متعلقات رؤوف من شقة المنيل إلى شقته الجديدة بالمعادي، حيث سبقنا «رؤوف» إلى شهر عسل في أوروبا هو و«ليلى»، بعد أن استغنى الاثنان عن ليلة الزفاف في أحد فنادق القاهرة، واكتفت «ليلى» بصور لها بالفستان الأبيض معه في فيلا «شريف»، وقالت «فريدة» ليلتها: ليه مانعملش نفس الفكرة؟

قلت لها: صعب، أهلي غير أهل «رؤوف»، ومع ذلك الوكالة عندنا كل سنة بتختار حد من شبابها في رحلة للخارج كنوع من التقدير؛ لاجتهاده، وبتسفَّره أوروبا ١٠ أيام، وأنا عندي أمل السنة دي أكون أنا صاحب النصيب، أنا بميل لفرح عائلي كدة، وبعده نسافر أسوان.

قالت «فريدة» بوجه يعتريه شيء من الغضب: المهم «إنك» تفرح.

قلت: المهم «إننا» نفرح، تحيرت ليلتها في قراءة مشاعر «فريدة»، وجلست أفنِّد الأمر بداخلي، هل هي غيرة نساء؟ أم إن حساسيتها ما زالت زائدة؟ أم إن إصراري على عمل ليلة زفاف يمثل لها نوعًا من المشاعر المربكة، هي لن تعيشها بنفس الروح الأولى التي عاشتها من قبل، ولا بنفس الشغف، على الأقل ستكون بعض الترتيبات ثقيلة جدًا على نفسها!

قلت وقتها عليّ أن أختصر هذه اللحظات المربكة.

بعد أيام تم الزفاف كما تصورت، في نفس المركب السياحي الذي احتفلنا فيه بعيد ميلاد «فريدة»، كنت حريصًا أن يمر اليوم دون بادرة إزعاج واحدة لـ«فريدة»، حتى إنني همست إلى المأذون قبل عقد القران وقلت له أن يغض الطرف عن كلمة «الثيب الرشيد»، وأن يقول اسمها فقط غير مصحوب بلقب «السيدة»، قال المأذون وقتها: على أن تكون أنت والشهود مدركين لهذه الحقيقة، قلت له: لا تقلق.

كنت أحب «فريدة»، وأريدها أن تشاركني لحظات حياتي

بعيدًا عن أية منازعات مع الشكل المجتمعي، تمنيث لو أنني كنت قادرًا على التفرغ للشعر والكتابة، وحبها فقط.

يا لها من ليلة ستبقى كثيرًا في الذاكرة، بدت هي فيها ملكةً وأنا تابع أمين، مسؤول فقط عن هذه العيون، أريدها أن تكون في غاية السعادة، ظللت أراقب طوال الليل عينيها وسحرها وتقلبها القديم مع الإضاءة والفلاشات، وكانت هي ترقص كالفراشة هائمة في ثوب أبيض يليق بعذرية قلبها، تمنيث لو أن «نديم الراوي» كان حاضرًا وغنى لها على لساني: مليون كاميرا.. صوبوا فلاشتهم ع القمرة.. القمرة إنتي.. إنتي حبيبتي.. نجمة قلبي.. وكل السهرة.

لم نحظَ في هذه الليلة سوى بغناء «رؤوف» وفرقتنا «مواعيد»، وبعض أصدقائنا من أصحاب فرق الأندرجراوند.

مضت الليلة مبهجة وخفيفة على الكل، كانت أمي تطوف على الحضور بابتسامتها الرائقة، وتعانق طنط «سامية» في ودٍّ، في حين جلس الآباء في جلسة هادئة آخر القاعة.

في ختام الليلة زفَّنا «رؤوف» وليلي بسيارتهم إلى شقة المنيل، والتي انبهر «رؤوف» من التغيرات التي اعترتها بعد

رحيله قلت له: أمال يا ابني إحنا بنلعب.

وكنا قد أحلنا الأمر برمته إلى «أحمد عرفان» مهندس الديكور وزميلي بالوكالة، وطلبنا منه طلبات محددة على الطراز المودرن، وكان الرجل كريمًا معنا.

أغلقت باب الشقة بعد أن رحل الجميع، أمي وحماتي و«رؤوف» و«ليلى»، وقتها كنت فقط أريد أن أحتضن «فريدة» حضن السنين الفائتة بكل مراراتها وعذاباتها واشتياقها، أريد أن أطفئ هذا الحنين دفعة واحدة.

دخلت عليها، وكانت في غاية الخجل، ترتدي روبًا أبيض، ما إن نظرت إليها حتى دخلت في حضني مخبئةً عينيها كعادتها، وعليّ دائمًا وكالعادة أن أبحث عن لمعة العيون التي تخبئها خلف كفيها كما توقعت، قلت لها: «نورتي بيت الشعر يا أمورة»(14).

قالت وصوتها يكاد يصلني بالكاد: إنت لسه بالبدلة؟ ثم أخذتني من يدي: تعالى شوف البيجاما اللي جبتهالك.

مدّت يدها إلى ضلفة دولابي أخرجت بيجاما من الستان

الأبيض يسمونها بيجامة العريس، أغلب الظن أنها تُلبس لليلة واحدة، وربما للعرض الأول، فقد اعتبرتها في الحقيقة «مسخرة»، لكنني لبستها من أجل خاطرها الغالي، وهممت أرفل فيها كسبعاوي في مشيته.

مضت ليلتنا الأولى كعروسين سعيدين، كانت «فريدة» تندهش من إنصاتي الباسم لها، كأني أراها لأول مرة، ومطالعتي تفاصيل جسدها، تتفاجأ من أفعالي الطفولية من شمِّي لرائحة جسدها، ودفن وجهي في صدرها، تقبيلي لبطنها، ومحاولتي تضفير شعرها وفكّه فيما بعد، والاختباء تحته بوجهي، ملاطفة شفتيها، ودقة ذقنها الساحرة، ودغدغة بطن قدميها، كنت أراقبها مثل جنين كبر في حضني، طوال الأيام الأولى حتى ونحن في أسوان، حيث نقضي شهر العسل.

«خمار سكر صاح قالوا له الرجال يا بيه

إنت مريد العرب ونلت المرتبة دي بإيه؟»



١٥

في أسوان كنا نسير في الشوارع كالأطفال، الناس هنا طيبون يملكون فطرة نقية تمنيت لو أننا عشنا هنا للأبد، الفندق، النيل، الابتسامة التي لا تفارق الوجوه، المعابد القديمة، أبو سمبل، وفيلة وجزيرة أجليكا، والمسلة الناقصة التي يرجح أنها نحتت في عهد حتشبسوت، وعندما ظهر بها شرخٌ تم التوقف عن إتمامها؛ لتظل أثرًا باقيًا هكذا على الأرض، ومتحف النوبة وكذلك متحف أسوان، ومعبد كوم أمبو، جزيرة الفنتين وجزيرة سهيل وجزيرة النباتات، ضريح الأغاخان وقصته الساحرة، ومعبد كلابشة، ودير الأنبا سمعان، وقبة «الهوا» وهي مقابر النبلاء في العصر القديم، والتي ترتفع بمسافة ١٨٠ مترًا، ثم كورنيش أسوان المبهر، وشارع السوق الذي سحرنا بروائح عطارته الذكية وبهاراته الشهيرة، ومنه اشتريت لـ«فريدة» الطاقية النوبية التي جعلتها تبدو كقمر جنوبي، بعد أن لفحتها شمس أسوان بسمرة خفيفة زادت من سحر عينيها ولمعانهما، مضت عشرة أيام رائعة في أسوان، حيث الأجواء والطعام النوبي والغناء في كل مكان.

قلت لـ«فريدة»:

- رغم الجو الحلو دا بيتنا وحشنا أوي نفسي نرجع بقى.

- خلاص العشرة أيام خلصوا بسرعة وهنرجع، أنا كمان وحشني البيت، وحشني النيل من شباكنا في المنيل.

قالت بدلال:

- بس؟

في المساء جلست أقصُّ على «فريدة» قصة «ليديا» وصراع «خالد الجارحي» و«طه» على قلبها والفوز به، وكيف سبب اختيارها لـ«طه» عقدة كبيرة وألمًا جمًّا في قلب وكبرياء «خالد الجارحي»، الوسيم الشهير المتحقق ماديًّا وفنيًّا وقتها من جراء تقرُّبه للسلطة.

كانت «ليديا» ابنةً وحيدةً للناقد المعروف في جيل الستينيات «حسنين عبد القادر موسى»، والذي كان بيته مأوى للشعراء والأدباء الشباب في وقتها، وكان مجلسه يعجُّ بتيار من شعراء العامية الجدد والملحنين الشباب، وبالطبع

كان أبرزهم «خالد الجارحي»، والذي أتى به من الإسكندرية الصحفي الشاب وقتها والشاعر «حمدي شريف»، وقدمه لـ«موسى» على أنه صوت جديد لم يعرفه شعر العامية من قبل، وبعد أيام فاجأه في المجلة شاب أسمر خجول وقال له: أنا «طه» اللي قابلتك في القهوة، كانت فرحة «حمدي شريف» بـ«طه» لا تقلُّ عن فرحته بـ«خالد الجارحي»، وكما كتب عن «خالد الجارحي» مقالًا بشَّر فيه بموهبته وبصوته الشعري الخاص، كتب في العدد الذي تلاه عن «طه»، وكيف أنه يمثل نوعًا من الكتابة الإنسانية الراقية وصفها وقتها بالبساطة والعمق الإنساني الفريد الذي يستحضر رؤية كونية عالية تظهر طوال الوقت في كل ملمح من ملامح قصيدته.

وبالطبع كانت «ليديا» تسمع وترى كل هذه الوجوه، لكن ما شدها في «طه» تواضعه الجم وصوته الخفيض وخجله المتزايد، فقد كان يجلس في صمت، يتابع ويسجِّل كل ما يقال، على العكس من «خالد» صاحب الحضور، ذي الأنا العالية والصوت الذي لا يهدأ، والمشاكسة طوال الوقت، فضلًا عن اللسان الحاد، والذي كان يردد في كل جلساته يومًا ما ستكون مصر كلها «خالد الجارحي»، وستردِّد أعمالي وقصائدي في كل مكان في الشوارع والمقاهي والبيوت، وكانت «ليديا» تتابع «طه» في صمت، وتدقق في شاعريته

وخطواته المحسوبة، وترى فيه شاعرًا فذًا يضاهي شعراء العالم الذين تدرس أشعارهم في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكانت دائمًا عندما يسألها والدها من منهم يعجبك أكثر؟ كان بلا تردد تقول: «طه»؛ لأن شعره إنساني، أما «الجارحي» فكانت تراه بعين ثانية، وهو ما جعلها حين حاول التقرب منها تصدُّه وتتعمد إطالة الحديث مع «طه» في حضرته، تمنحه ثقة وحنانًا كان يفتقده، لاحظت والدتها اليونانية أن قلب ابنتها الصغير قد بدأ يميل ناحية الفتى الطيب، وباركت السيدة تلك العلاقة، ولم يجبرها والدها على «خالد» رغم تفوقه وانتشاره الملحوظ وقتها، على العكس قال لها إنه معجب بـ«طه» وخطواته الثابتة، لم تمرَّ أيام حتى أعلنت خطوبتهما وتم الزواج في هدوء في نفس البيت، فلم يغفر لها «خالد» ذلك الجفاء، وظل يضاجع حقده العاقر في صمت، حتى التقى بـ«ثناء وصفي» المترجمة بإحدى وكالات الأنباء التي وقعت في شباكه سريعًا، وتزوجها في نفس العام؛ ظنًّا منه أنه يكيد لـ«ليديا» التي لا يشغل حيزًا من تفكيرها.

في العام نفسه التقى «طه» بـ«نديم»، وتفجَّر المشروع العظيم، الغناء للكون والإنسان وللحرية والخروج من دائرة الغنوة الضيقة، في مواجهة المدِّ الغنائي السعودي الذي كان

يجتاح الشارع المصري، أدرك «طه» منذ البداية أنه لا يجب أن يكون الصوت الوحيد في المشروع، فمضى في تقريب «نديم» من الشعراء من نفس دائرته، فوجئ «الجارحي» وقتها بالنجاح المدوي للتجربة المختلفة، فحاول أن يوازيها بتجربة مماثلة، لكنه فشل، فاستمر في أعماله العاطفية مع مطربات السبعينيات، حيث الأغنية الطويلة التي كسرها «نديم الراوي» ورفاقه.

«أمانة عليك يا قبر ليلة وحدتي فيك هنيني

لا خلّ صادق ولا أنيس جنبي يواسيني»

١٦

أخيرًا وصلنا إلى المنيل بعد عشرة أيام، كانت «فريدة» مشتاقة جدًّا إلى البيت وأنا أيضًا، كانت لمسات طنط «سامية» واضحةً على الشقة، وعلى المطبخ بالتحديد، فقد وجدنا الثلاجة مليئة عن آخرها، وعلى السفرة وجدنا باقة ورد أنيقة بانتظارنا، أحبُّ هذه السيدة منذ معرفتي بها، وأحب ابنتها، أحبها جدًّا يا رب، فلا تحرمني منها، كانت ابتسامة «فريدة» قد تمكّنت مني، فكانت تجعلني أنتقل من حالة الحزن والتشتت التي تصيبني أحيانًا، إلى حالة من الارتياح والابتسام التلقائي، مما جعلني أكتب «الحزن وأنا جنبِك فارقني» والتي لحّنها «رؤوف» على الفور، وكانت «فريدة» إذا أحسّت بأنها منحتني أغنية أو قصيدة تظل صامتة تجاهها كعمل، فلا تُقحِم نفسها أو حتى تسأل: إنت كاتبها لي؟ كانت تدرك بفطرتها وخبرتها التي عايشتني بها سنين، أن ثمة سرًّا دائمًا وراء كل قصيدة أو غنوة، فلم تحاول مرة واحدة أن تسأل، وكأنها تعمل بمبدأ «عَرَفْتَ فَالْزَمْ»، كنت أحب أنا هذه الخصلة في «فريدة»، كانت مترفعة ولا تتطفّل على الإبداع، قلت لها مرة إن «عبد الوهاب» ظل سنين طويلةً لا يخبر أحدًا بأغانيه حتى تكتمل،

وكان يقول إن كل الإبداع الإلهي يتم في الخفاء، ضاربًا مثاله الشهير بالبيضة والكتكوت الذي يتكون بداخلها دون أن يراه أحد، وكذلك بالجنين في بطن الأم.

مرّت أيام بيتنا الأولى ما بين سعادتنا بالقرب، وبين زيارات الأهل والأصدقاء، لكني لاحظت أنني و«فريدة» ليس لدينا عدد كبير من الأصدقاء، معدودين كانوا على أصابع اليد الواحدة، قلت لها مرة: اكتفيتُ بك من الدنيا منذ عرفتك، كأنك الدنيا كلها يا «فريدة» فقالت: وأنا كذلك.

كانت تلقي بنفسها في حجري كطفل مدلل يتوارى وجهها كله تحت جدائل شعرها المنساب في رقّة، فأظل أزيل الشعر خصلةً خصلةً، حتى يبدأ ظهور ذلك الوجه الحبيب، فأذوب تقبيلًا وتسبيحًا وحمدًا لكل تلك الشمائل التي صُنِعت بعناية من خالق الجمال.

قلت لها يومًا: انتي فاكرة أول لقاء بيننا كان عامل ازاي ياديدة؟

ضحكت في خجل؛ لكونها لا تذكر وقالت: لا بجد مش فاكرة، أنا حاسة إني عرفتك من زمان من غير تحديد واقعة

معينة أو زمن محدد، عرفتك كده زي ماعرفت أبويا وأمي زي ماعرفت إن دا بيتنا.

قلت لها: واحنا في المعهد كان فيه عدد من الطلبة الإسلاميين شايفين إني لازم أبقى معاهم كشاعر، وكانوا بيطاردوني، وبيتقربوا مني بشكل مش طبيعي، لحد في يوم مالقيتك واقفة لوحدك، ويومها قربت منك، وتعمدت إني أكلمك وأسألك في أي حاجة، لدرجة توصّل كل اللي يشوف الحوار بينا من بعيد إن فيه صداقة، وهما كانوا بيتضايقوا من الحكاية دي، وخصوصًا لو قدام المُصلى(15)، فبقيت كل ما أشوفك أكلمك، وأصبّح عليكي، لحد ما جيتي في يوم وغيبتي لفترة طويلة، وبقيت مش عارف إنتي فين؟ افتقدتك جدًا، وكنت خلاص وقعت في عينيكي لشوشتي، وبدأت أكتب لك وأكلمك وأحكي عنك لصحابي القريبين، لحد ما في يوم لقيتك داخلة المعهد، كنت وقتها واقف في الدور الرابع ببص على الشارع، وبراقب بوابة المعهد يمكن ألاقيكي داخلة، والحال دا كان بيتكرر كل يوم لحد ماشوفتك، نزلت جري ع السلم عشان أشوفك أو بالأحرى ألحقك قبل ما أي حد تاني يسبقني، وأكون أول واحد يكلمك ويسلم عليكي، وكان دا أطول مشوار في حياتي، السلم كان زحمة جدًا والطلبة بتتحرك بالعافية، كان المعهد مليان

بالطلبة في اليوم دا، وفعلًا وصلت لك وإنتي على أول درجة سلم من الأرضي للأول، ساعتها بدل ما أقولك إنتي فين أو أزيك، قلت لك: وحشتيني، ومش عارف قلتها إزاي؟ ساعتها إنتي احمرِّيتي، وبصيتي في الأرض، وقلتي لي شكرًا، سألتك: كنتي فين؟ بمنتهى العشم، كنتي طيبة معايا جدًّا، وقلتي كان فيه ظروف عائلية وسافرنا كلنا، ساعتها مالقيتش حاجة أقدمها لك غير كشكول محاضراتي عشان تعرفي خدنا إيه في أيام الغياب، قلت لك: خليه معاكي، يومها ماسبتكيش غير وإنتي قاعدة جنبي في أول محاضرة، ومن يومها كان اللي بيحضر فينا بيحجز للتاني، لدرجة إن شهرتنا في المعهد بقت الواد الشاعر والبنت البيضا أم عيون خُضر.

قالت «فريدة» ضاحكة: نجّيتك.. كان زمانك إرهابي.

قلت لها: لو على النجاة تعالي أقولك كم مرة نجّيتيني؟

اعتدلت «فريدة»، وبدأت تسمع باهتمام أكثر.

أول مرة كان من العيال بتوع الجماعات، والتانية من الضياع في الكتابة، ناس كتير كانت بتكتب «بس» في

الجامعة، ولما تتخرج من الجامعة بتتوه ويتوه معاهم حلمهم، والمرة الأخيرة لما رجعتي لي تاني، كنت خلاص حاسس إني ضايع، كنت بس مكتفي بوجودك جنبي حتى في أحلامي وخيالي لحد ما عرفت إنك رجعتي، والمرة الأخيرة لما اتجوزتيني، ودي كانت النجاة من الوحدة والغربة اللي بحسها كتير في القاهرة، بس معاكي خلاص بقيت أحس إنها بيتي وسكني.

قلت لها: شوفي «يونس الصواف «بيقول إيه عنك؟

- هو يعرفني؟

قلت مبالغًا:

- طبعًا.

قالت: بيقول إيه؟

- بيقول يا ستي: مراكب الحب جابت طب للميت

واللي حبوه الرجال -يا آبا يا كَحّال- على اعتابهم بيِّت

فيه اللي روَّح سليم يا روحي

وفيه اللي روَّح على داره صبح ميت.

- إنت بتقول إيه؟

- أنا كنت ميت، وإنتي الطب اللي جابته مراكب الحب يا «فريدة».

- تعرف يا «مروان» إن المودة والرحمة أهم من الحب؟

- هي أسماء مختلفة لاسم واحد.. الحب، التعلق، المودة، أما الرحمة فهي السلوك اللي بنعبر بيه عن الحب.

- «الصواف» كمان بيقول عنك: يا قلبي خايف عليك م الحب وإنت لسه صغار.

- كتير بقعد أتأمل حكايتنا، وكتير مابفهمش إيه اللي حصل، وساعات كتير بقوم من النوم أدوَّر عليك، وأقول إنت جنبي ولا أنا لسه هناك في «السفر» وبحلم؟ ومرات بقوم مفزوعة أدور عليك لحد ما ألاقيك قاعد بتكتب أو واقف في

البلكونة، ساعتها بطمن وأرجع أنام تاني.

- ما تقلقيش يا «فريدة» أنا أهو معاكي ومش هيسيبك، هنعجِّز سوا، ثم سألتها:

- تفتكري الراجل هو اللي بيتجوز الست، ولا الست هي اللي بتتجوز الراجل كقرار يعني؟

- سؤال صعب.

- القرار دايمًا في إيد الست، حتى في الفراق.

قالت في وجوم:

- مش عارفة.

في أول مناسبة عيد حب تمر على زواجنا قررت أن أصطحبها لحلفة كبيرة لـ«الراوي» بالأوبرا، وكان وقتها المطرب المتوَّج على عرش حفلات القاهرة، دعوت «رؤوف» و«ليلى» و«صبري» ليكونوا معنا، ليلتها ارتدت «فريدة» جاكت أحمر، وكان الأحمر عليها عبقريًا مع الجينز والكوتشي

الذي طالبتها بارتدائه لعلمي بطبيعة تلك الحفلات، قبّلت «فريدة» عند باب شقتنا، وعانقتها عناقًا طويلًا لدرجة أنها قالت: ما لك؟

نظرت لعينيها الساحرتين وقلت لها: بحبك، دا أول عيد حب مع بعض.

- ربنا يخليك ليا.

وبعد أن خرجنا من الشقة، وأغلقت الباب بإحكام قلت لها: افتحي شنطتك.

وجدت «فريدة» ورقة صغيرة مكتوب فيها: إلى أحلى «فريدة» في الكون.. بحبك.. هديتك في أول ضلفة دولاب هتلاقيها.. بس بعد الحفلة.

نظرت إليّ في عتاب وقالت:

- كده؟ أنا زعلانة منك.

- حبيت أعملك تشويق.

- لا بس بجد عايزة أشوفها.

قلت لها وأنا أقبّل أناملها الرقيقة:

- بعد الحفلة أحلى.

كان «رؤوف» و«ليلى» بانتظارنا عند قهوة الحصيرة بشارع عبدالعزيز آل سعود المجاور لبيتي، قلت لـ«رؤوف»: اركن وانزل هناخد تاكسي لو روحنا بعربيتك مش هنرجع النهارده.

كانت حفلات «نديم الراوي» في الأوبرا تقريبًا تغلق منطقة وسط البلد، لدرجة تزعج القائمين على الأمن.

وكان «نديم» وقتها خارجًا لتوّه من ألبوم «وتر مجروح» الذي كتب «خالد الجارحي» معظم كلماته، ووضع من بينها غنوة قيل إنها رسالة لـ«طه القاضي» قال فيها: «وحدك في ليل المدينة، تشوف النور تغمّي عينيك.. تجيك أصوات من الماضي، تجرّح فيك وتقتل فيك».

اتخذنا جانبًا قرب المسرح في انتظار «نديم الراوي» وفرقته، قالت «فريدة»: أول مرة أحضر حفلة كبيرة كده،

قلت لها: ومش آخر مرة.

غنى «نديم» في هذه الليلة بروح محلقة في عنان السماء وكان حضوره طاغيًا ومنعشًا، بدأ بأغانيه القديمة مع «طه»، والتى ترسَّخت في الوجدان طيلة سنين التجربة، إلى أن فاجأ الجميع بصعود «خالد الجارحي» إلى المسرح؛ ليلقي قصيدةً طويلة، نظرت بعدها لـ«رؤوف» وقلت: ابقى قابلني لو غنالنا حاجة طول ما الراجل دا موجود، وأضفت: ليه ماتعملش أغاني مع «خالد الجارحي»، هو صديق حماك على الأقل يبقى واحد مننا عدّى، فكر «رؤوف» قليلًا وقال: هشوف مع «ليلى».

ختم «الراوي» حفلته في هذه الليلة بغنوة «وعد قديم»، ثم غادر المسرح، جلسنا على الأرض نستريح من الوقوف، وحتى يخرج الجمهور الذي أغلق تمامًا منطقة الأوبرا، وقتها وجدنا شلة الأندرجراوند يجلسون مثلنا على أرض الأوبرا، سلّمنا عليهم، وبادلونا التحية، وقاموا بدعوتنا لحفلاتهم القادمة، فقد كانت «مواعيد» فرقتي أنا و«رؤوف» قد بدأت في الانتشار بين الشباب، فتقريبًا كنا نقدم حفلًا كل شهر، وكان «رؤوف» قد تواصل مع أحد المراكز الثقافية في فرنسا؛ لتمويل تجربتنا الأولى في إصدار ألبوم كامل، فبدأنا

إلى جانب الحفلات في تسجيل أغاني أول ألبوم.

ما شدني ليلتها ونحن في طريق الخروج هو أنني قد لمحت «طه» من بعيد وهو يتوارى؛ خشية أن يراه أحد، أوجعني المشهد، تمنيث لو أنني لحقت به، وتكلمت معه، ما أوجعني أكثر أن «نديم» لم يذكر اسمه في أي من الأغاني التي غنَّاها له، على العكس من «خالد» الذي كان يدعو الجمهور لتحيته بعد كل أغانيه، ثم قدَّمه للجمهور، وترك له مساحةً ليقول فيها ما يريد.

وحدك يا «طه» تحمَّلت كل هذا الألم في ليلة عيد الحب، ماذا ستفعل يا صديقي في هذه الليلة، وحبيبة قلبك «ليديا» بعيدة عنك؟

قالت «فريدة» ليلتها إن أغاني «نديم «مع «خالد الجارحي» متميزة أيضًا، ولا تقلُّ عن أغاني «طه»، وألمحت إلى أن «نديم الراوي» كمطرب من حقه أن يبتعد ولو قليلًا عن «طه» لتجديد الدماء، وهذا ما حدث مع «أم كلثوم» و«حليم» ومعظم المطربين الكبار في ذلك العصر.

لم يكن رأي «فريدة» صادمًا بالنسبة لي، على الرغم من

علمها بخلفية ذلك الصراع القديم، وكنت أعترف بيني وبين نفسي بقيمة «خالد الجارحي»، وإضافاته العبقرية للشعر العربي في المطلق، فقط كنت أكثر تعاطفًا مع «طه»، وضدً حقارة الوسائل التي يتخذها «الجارحي» للوصول لمآربه.

وصلنا إلى المنيل بعد سهرة عيد الحب، وكنت قد نسيت موضوع الهدية، شغلتني هي بفلسفتها ومحاضرتها عن «خالد الجارحي»، لكن «فريدة» لم تنسَ، وظلَّ فضولها مشتعلًا حتى دخلنا من باب الشقة، فهرولت متجهةً نحو دولاب ملابسنا، فتحت بسرعة الضلفة لتجد علبة قطيفة زرقاء بها خاتم من الفضة مكتوب عليه «حالي كَحّالك» صُنِع خصيصًا على يد فنانة مجوهرات شهيرة بالزمالك.

ظلت «فريدة» تقفز كطفلة على السرير، قلث في نفسي: لو علم كل رجل أن هناك أشياء تسعد المرأة أكثر من الكلام الحلو لما نطق.

كنّا مرهقين جدًّا بعد ليلة طويلة من السهر والغناء والرقص والعشق، وظلت «فريدة» نائمةً في حضني حتى الصباح ممسكةً بي كالأطفال.

أيقظتها هذا اليوم على غير العادة، وقلت لها: تعالي أعزمك على الفطار برة، قالت في كسل: خليه غدا.

قلت لها: الفطار دايمًا مظلوم.

كنت أحب المواعيد الصباحية أكثر، وأشعر بأن فيها تعبيرًا أكثر عن الشوق لمن نحب، كما أن تناول الحبيب على الريق أفيد وأهم من تناوله بعد تناول عدد كبير من البشر في الطريق أو في العمل.

أفاقت «فريدة» بعد أن أعددتُ لها شايها الصباحي، وتوست الجبن المعهود، حملتها بين يدي إلى الحمام؛ حتى لا يشدها كسل السرير مرة أخرى.

قلت لها: البسي فستانك الأبيض، واطلقي شعرك أريده ثائرًا متحررًا، انطلقنا إلى حي الزمالك في تاكسي، وهناك دخلنا أحد المطاعم التي تعدّ إفطارًا شهيًا وقهوة صباحية ممتعة.

سألتني «فريدة» فجأة:

- بتحبني؟

- جدًا.. لدرجة إني بقيت أحس إنك بنتي؟

- هتفضل كده على طول ولا هتحب حد تاني؟

- ساعات لما تغيبي عني أو تكوني عند طنط بحس إن روحي مسحوبة مني، وكتير بقولك إنتي فين؟ الغريب إنك ساعتها بتتصلي بيا، في الأول كنت باندهش من الحكاية دي، وكتير ساعات أقوم بالليل أمسك إيدك وأبوسها وأحطها على قلبي وأقولك: اسمعي قلبي اللي بينادي عليكي في كل دقة من دقاته، وساعات أقولك ازاي قدرتي تسيبيني وتمشي، وأعتب عليكي عشان سافرتي؟ وكتير أقعد أسبّح ربنا على صوابعك بدل سبحتي الخضرة بتاعة جدي «سيد الكَحّال»، وأحمده كتير إنك هنا جنبي، وإنك رجعتي تاني.

ابتسمت «فريدة» وقالت:

- كل دا بيحصل وأنا نايمة؟ وأنا كمان بقرا كل حاجة بتكتبها وأنت سهران أول ما افتح عيني الصبح، سواء على مكتبك أو على الكمبيوتر، وكتير بسأل نفسي إزاي خطر على باله كل الحاجات الحلوة دي وأنا نايمة؟

قبلت يدي «فريدة» وقلت لها:

- ماتحرمش من العيون الحلوة دي.

قالت فجأة:

- نفسي أحضر «مولد» للشيخ «الصواف» اللي بتحبه وبتردد كلامه.

«وماتت العيون الجميلة اللي كان نتّهم بيشوف

والوجه اللي زي القمر م الموت صبح مكسوف»

١٧

بعد أيام اصطحبتها إلى كرداسة برفقة «رؤوف» و«ليلى»، حيث يحيي الشيخ أحد الموالد هناك، استقبلنا أهل القرية بودٍّ بالغ، وقالوا عنا وقتها ضيوف الشيخ من الإذاعة، أجلسونا في مكان عالٍ بعيدًا عن زحام الحضور، وأحضروا لنا عشاءً فاخرًا قالت عنه «ليلى» إنها لم تذق مثله من قبل، بدأ الحفل بتلاوة قرآنية، ثم قدمت الفرقة مقدمة موسيقية طويلة تفردت فيها، بعدها دخل الشيخ بدخوله الفريد من مقام البياتي:

«كتب القلم ربي حكم والعبد غفلان ولاهوش داري

اتنين في الغيب لا يعلم بهم كاتب ولا قاري

الرزق والعمر عند الله متداري

دا الراجل اللي أقام الليل في طاعة الباري

حمل حموله سليمة ما حد بيه داري

سفينة المتقي عدّت بلا صاري

عايمة في وسط البحور من غير قلع ومداري

وداري على بلوتك يا اللي ابتليت دراي

إزاي أداري ونور المصطفى جاري؟»

قالت «فريدة»: ما هذا الصوت الحلو؟ حقك تتعلق وتجنّ بيه يا «مروان»، قلت لها: اصبري حتى حلقة الذكر، التي ما إن وصلناها حتى جُنّت «ليلى» وقالت: أريد أن أنزل معهم، قلت لها: ماينفعش بالجينز بتاعك دا.

بعدها اصطفنا أنا وهي و«رؤوف» نتمايل مع الذاكرين حتى وقعت على الأرض فقال لها «رؤوف»: ما قلنا ماينفعش.

في طريق العودة كان «رؤوف» صامتًا يدخن، وهو يقود بنا، قلت لهم إن «يونس الصواف» سافر فرنسا وأحيا حفلات هناك، والقناة السابعة الفرنسية قدّمت عنه تحقيقًا مطولًا، وأضفتُ: إن والدي هو أول من «قاول» يونس الشاب وقتها؛

لإحياء مولد سيدي «الكَحَّال» في قريتنا، كنت وقتها طفلًا، أحبني «يونس» وأحببته، وصرت من مريديه، قالت «ليلى»: ابن أسيادنا أنت يا «كَحَّال»، قلت: العفو يا ستنا الطاهرة.

أخبرت «فريدة» بعد أن وصلنا شقة المنيل أنني عندما نزلت في الاستراحة، وسلمت على «الصواف» شعرت أن المرض قد بدأ يدبُّ في أوصاله، وقلت لها: إنه نظر لي نظرة غريبة وقال: أمانة عليك توصَّل السلام لأبوك، وتقرا لي الفاتحة عند سيدي «الكَحَّال» لحد ما أروح أحيي الليلة هناك، ثم أردف: دا إن كان لسه في العمر بقية، قبَّلته في جبينه وقلت له: هاكون هناك في انتظارك، ونحييها سوا، فشرد قائلًا: يا عالم.

غيَّرت الموضوع، فسألته فجأة عن عبده العاصي، ابتسم وقال: ياه تعيش إنت، إنت لسه فاكر؟ قلت له: طب وبناته مفيش أخبار عنهم؟ قال: اختفوا من سنين، تمنَّيت ليلتها لو عثرت على «ريما»، فقد كنت ولو بجزء من قلبي أفتقد أيامي معها، تخيلت لو قابلتها في هذه الليلة، وقدَّمتها لـ«فريدة»، وقلت لها بشجاعة: إن هذه البنت هي الماضي، وإنها أخت الطفولة والبراءة وبنت المرح والحب البدائي، في تلك الليلة غنى «الصواف» وهو يبكي:

«الصبر عقبه فرج يا رب ترضيني

والليل عليا طويل يا مين يسليني

أمانة عليك يا قبر ليلة وحدتي فيك هنيني

لا خلّ صادق ولا أنيس جنبي يواسيني

يا طول رقادي فيك يا قبر أيامي وسنيني

رح أبقى أقول إيه وأنا ماسك الكتاب بيدي

يا كتر نومي لهاني(16) عن رضا سيدي

رح أبقى أقول إيه؟ لما الملكين يسألوني

هابكي بحرقة وأقول يا دنية الشوم عن فعل الخير لهيتينى

والمولى يحكم والخلق مجموعيني

إن روحت بالسلامة هاقول يا نهار عيدي»

بعد أيام نقلت لي أمي خبر وفاة «الصواف»، وقالت بصوت يملؤه الشجن: الشيخ «يونس» تعيش انت يا «مروان»، كان مريضًا ولا يستطيع التنفس ولا الحركة، وأمره الأطباء بالراحة التامة لمدة ثلاثة شهور، وفي هذه الأثناء كان يستعد لإحياء مولد سيدي «الكحّال»، وأصرّ على إحيائه، فاستغرب الجميع لأمره.

قالت أمي: إنه نام قليلًا قبل الفجر، وفي المنام وجد عددًا من الناس يرفعون حجرًا كبيرًا كان جاثمًا على صدره، فقام وتوضأ وصلى الفجر، وكأنه وُلِد من جديد، وفي مساء تلك الليلة قال لهم: خذوني إلى المولد، فاستغربوا من أمر الرجل، لكنه أصرّ بقوله: خذوني ولن أغنّي.

قالت أمي: إنه عندما ذهب، وبدأت الفرقة في العزف لمداح آخر بديل أتوا به لإحياء الليلة، قال لهم: احملوني إلى المسرح، وعندما وصل دبّت فيه الروح، وغنّى طول الليل وسط حالة استغراب من الجميع، وبكاء من يدركون إشارات الوداع.

حكت لي أمي: أنه قبل أيام من رحيله اشترى البيت الكبير اللي كان طول عمره نفسه يشتريه وحملوه إليه وعندما وصل أقام ليلة كبيرة به غنى فيها للحضور من أهل قريته:

عايز تشوف الجمال روح القبر وإنت تشوف

تلقى الجمال انتهى والعضم بقى مكشوف

وماتت العيون الجميلة اللي كان ننهم بيشوف

والوجه اللي زي القمر م الموت صبح مكسوف

ثم كررها أكثر من مرة وسط بكاء الحاضرين الذين أدركوا بفطرتهم أنهم أمام طقس من طقوس الوداع.

بعد أيام مات كروان الساحات الأحمدية الشيخ «يونس الصواف»، لكن صوته وسيرته ما زالا يعيشان في قلبي ووجداني.

قالت أمي: الراجل دا كان منفوح يا ابني، وبينه وبين ربنا عمار.

«الليل كله مكاسب بس فيه النوم

وإن عايروني العواذل أنا لم عليا لوم»

١٨

كانت حياتي مع «فريدة» قد بدأت في الهدوء والاستقرار، واعترفت لي أن كوابيسها قلّت، وفزعها الليلي الذي صاحبها في بداية انتقالها للمنيل قد تلاشى، وبدأت تنام بعمق أكثر، وزال عنها القلق الذي كانت تعانيه في أيام زواجنا الأولى، كثرت أسفارنا في الشهور التالية خاصةً إلى العين السخنة، وشرم الشيخ، والغردقة، وكثيرًا إلى المعمورة حيث العشق الأبدي.

إلى أن جاء يوم، قررت «فريدة» فيه إعادة ترتيب البيت، ومكتبي «المهرجل» على حد قولها، وإعادة تعليق اللوحات على الحائط، ووقع في يدها إهداء «عيسى الشرقاوي» لي في أحد كتبه، والذي قال فيه: «إلى مروان الكَحّال الشاعر مغربي الهوى.. خليك على كيفك».

سألتني «فريدة» يومها عن هذا الإهداء، قلت لها إنه كان مجرد هزار مع الرجل الذي تزوّج من فنانة مغربية في سنوات وجوده بلندن، وكان يقال عنها إنها نسخة من شادية، فعلق «رؤوف» وقتها: بأن «كَحّال» أيضًا يحب المغربيات،

فكتب «الشرقاوي» هذا الإهداء بناءً على تعليقه.

قالت «فريدة»: وانت بتحب المغربيات فعلًا؟

قلت لها: لا المصريات بتوع الزيتون بس.

ابتلعت «فريدة» الحكاية، واعتقدت أنا أن الموضوع سيمر بسلام، إلى أن جاء اليوم الذي كنا ننتظر فيه بريدًا إلكترونيًا مهمًا من الشركة المنفذة لغلاف الألبوم الجديد، وكانت شركة فرنسية، وكنت لثقتي في نفسي، وفي «فريدة» أترك الإيميل مفتوحًا؛ لتتمكن هي من متابعته حين أكون في الخارج أو مشغولًا.

إلى أن صادفتها تلك الرسالة من «مليكة» الممثلة الفرنسية ذات الأصول المغربية، والتي عرفتها في مهرجان المسرح التجريبي بالهناجر، بعد فراق «فريدة» الأول، وعن طريق «صبري علام»، وسافرنا معًا إلى شرم الشيخ عدة أيام، وكان أهم ما جذبني إليها ذلك الشبه القريب من «ريما»، وخاصة شعرها الكيرلي، ولهجتها المغربية الحلوة العذبة التي تدخل فيها بعض الكلمات الفرنسية شديدة النعومة، وكانت أول امرأة تحاول انتشالي من خسارتي الفاجعة في رحيل

«فريدة» المؤسف.

في المساء وجدت تلك الرسالة مع رسالة الشركة الفرنسية، وقد طبعتهما «فريدة» ووضعت بجانبهم إهداء «الشرقاوي».

وتركت معهم رسالة لي بخطّ يدها:

«أرجوك لا تحاول شرح ما حدث، فالأمور أصبحت واضحة، ولا تحاول الاتصال بي؛ لأني لن أرد، اعتبر كل شيء انتهى».

أما رسالة «مليكة» فكانت:

«كَحّال.. أنا قريب نجي لمصر، توحشتك بزاف، وتوحشت الأيام الزوينة معاك بالأخص لي دوزنا في شرم الشيخ، بوسة كبيرة وحضن مني ليك أكَحّال».

كما جاءت الرسالة الثالثة من الشركة الفرنسية، والتي تؤكد وضع اسم «فريدة» و«ليلى» و«صبري علام» والشاعر الكبير «عيسى الشرقاوي» على الغلاف، مع شكرهم شكرًا خاصًا على جهودهم في خروج هذا العمل للنور.

اتصلت بـ«فريدة» رغم علمي أنها لن تردَّ.

أرسلتُ رسالة على هاتفها المحمول.

قلت فيها: «ماذا حدث لكل هذا؟ يجب أن نتكلم على الأقل».

تحدثت إلى «رؤوف»، ونقلت له ما حدث، تعجَّب «رؤوف» من هذه التركيبة القدرية وقال: اتطمن كل حاجة هتبقى كويسة، المهم ألا تعترف بشيء، الإنكار هنا مفيد جدًّا يا صديقي، وهذا ليس كذبًا.

- لا يا «رؤوف» عمري ما هخبي عنها حاجة أيًّا كانت النتيجة.

- يا ابني افهم «فريدة» ما بقيتش حبيبتك بتاعة أيام الجامعة، دي بقت مراتك، ودي مرحلة تانية، والستات عمومًا مش بترتاح مع الصراحة، إنت مش هتنكر القصة بس هتنكر العلاقة، وهتقول إنها كانت مرحلة، وانتهت برجوعك ليا.

- ودا اللي حصل فعلًا «مليكة» رغم الأيام الحلوة مقدرتش

تاخدني من «فريدة» يمكن انبهرت بالعالم بتاعها، لكن والله ما قدرت تاخدني منها.

- طب هتعمل إيه؟

- اقفل وهكلمك تاني؟

ذهبت إلى الزيتون مباشرةً، واستقبلتني طنط «سامية»، استقبالها العادي بكل ود وقالت: ادخل لها وشوف ما لها.

دخلت على «فريدة» في حجرتها القديمة في بيت والدها، تلك الحجرة التي رأيتها فيها حينما كانت مريضة، ثم أصبحت حجرتنا حين نكون في زيارة، ونبيت ليلةً أو ليلتين.

احتضنتها بقوة، وظلت هي متصلبة في جلستها لم تلِن لحضني.

قلت لها: مالك يا «فريدة» فيه إيه؟

أولًا: لو أنا كنت غلطان فحقك تعاتبيني.

ثانيًا: مكانش لازم تسيبي البيت قبل ما نتفاهم.

ثالثًا: إنتي لما تيجي هنا ومعاكي شنطة هدوم زي ما أنا شايف كده، أهلك هيقولوا إيه عليا؟ خنتك، ولا ضربتك، ولا شتمتك، ولا طردتك؟ تحبي إنهم يقولوا عني كدة؟

مش كان اتفاقنا إننا منخرَّجش أي سر بينا لحد مهما كان ولا إنتي نسيتي؟

لو عايزة كل تفاصيل الموضوع دا أنا ممكن أقولك كل حاجة، ومش هخبي عنك، قومي بس ارجعي بيتك، ونتكلم ونتعاتب براحتنا، أنا لو مكانك أكيد هبقى مصدوم بس لازم أفهم، أرجوكي، مفيش حاجة حصلت لكل دا.

قالت بوجه غاضب لم أره من قبل: قلت اللي إنت عايزه؟ أنا مش عايزة أعرف حاجة، ومش هاغير موقفي، ولو على أسرار بيتي أنا مش بطلع أسراري لحد.

- دا المفروض، بس كل الزعل دا مبني على تصور خاطئ وما ينفعش؟

- عندي أنا ينفع.

- العند ضيّعك مني قبل كده، بس كان فاضل ليكي رصيد في قلبي، وآدي عِند تاني بس المرة دي أنا اللي حاسس إني ماليش رصيد في قلبك.

هنا تدخلت طنط «سامية» وقالت: ما لكم يا ولاد، اتحسدتم ولا إيه؟

قلت لها: مفيش يا طنط، واضح إن فيه سوء تفاهم، أنا ماشي، ثم التفتُّ إلى «فريدة» التي كانت بدأت في البكاء، وقلت لها: شكرًا جدًّا على الثقة يا «فريدة».

خرجتُ من البيت الذي كنت أعتبره بيتي الثاني، وأنا أتساءل: هل هو بيتي الثاني فعلًا؟ وكيف يكون بيتي الثاني بدونها؟ وهي رابطي الوحيد بكل ما في البيت ومن في البيت، بعض البيوت تلفظنا أحيانًا بلا رحمة، خرجت بلا جهة أقصدها، بلا صديق أحاول أن أحكي له ما حدث، أغلقت هاتفي، توجهت إلى المنيل، أعددتُ حقيبة السفر قاصدًا الإسكندرية، كنت أحتاج إلى هدنة مع النفس، وكانت هناك أسئلة كثيرة تضرب رأسي بلا رحمة.. لماذا لم أحاول فهم

أسباب طلاقها؟

لماذا لم أناقشها؟

لماذا تعاليث على السؤال، واعتبرت أن ذلك أمرًا لا يخصُّني؟

ماذا لو كانت «فريدة» قد عانت من خيانة زوجها السابق؟

لماذا لم أسألها عن سبب مرضها القديم الذي أحدث شرخًا في جدار قلبي، لم يرمَّم إلى الآن؟

لماذا رضيث بعودتها مرة ثانية بعد أن تركتني في لحظة غضب طائشة كتلك؟ وهل من الممكن أن تعاود نفس غضبها الطائش؟

لمَ لم أنزل على رغبة أبي وأمي وقد توقعا بفطرتهما الريفية أن تكون هناك مشاكل؟

لماذا أصر «رؤوف» أن أناقشها في أزمة طلاقها حتى ولو من باب الفضول والعلم بالشيء؟

هل أنا مترفع أم ضعيف، ولا قدرة لي على المواجهة من أساسه؟

لماذا دائمًا أواجه مشكلاتي بهذا الوجه البارد الذي أكرهه؟

ظلّت هذه الأسئلة تطاردني طوال الطريق إلى الإسكندرية، وظلت دماغي تغلي طيلة ثلاثة أيام رقدتها كلها بالفندق بجسد منهك كله أوجاع، كنت فقط أفتح الموبايل لمعرفة من الذي اتصل بي، كان أغلب المتصلين ما بين طنط «سامية» أو «رؤوف» و«ليلى»، وأرسل لي «رؤوف» رسالة قال فيها إن الألبوم سيُطرح في السوق خلال أسبوع من الآن، أشدُّ ما آلمني أن «فريدة» لم تحاول الاتصال ولو مرة واحدة من باب الاطمئنان حتى.

جلست أجرّب فكرة اشتياقى إليها، والذي يتبعه دائمًا مكالمة، فلم يجدِ التجريب، وشعرتُ بتفاهتي، وقلت لنفسي: ما هذه السذاجة؟ تسرَّب اليأس إلى نفسي من جديد هل هُنت عليها فعلًا؟ لماذا نغفر ونعذر لمن نحب، بينما نهون نحن عليهم على خلفية زلة لسان أو وشاية أو قصة ماتت أحيتها صدفة نادرة؟

شككت للحظات في حب «فريدة» لي من الأساس، وبدأت الشكوك تساورني في أنها من الممكن أن تكون تزوجتني كيدًا لزوجها السابق أو عائلته، أو كردٍّ فعل نفسي لفشلها في زواجها الأول، أو من باب الـ Rebound وهو ما يحدث دائمًا في حالات الانفصال، حيث يضطر الشخص لإيجاد علاقة تعيده إلى الاتزان، ولم تجد «فريدة» غيري أمامها؟ هل ما كان بيني وبينها طوال شهور الزواج محض احتياج للأمان فقط؟ وهل أنا كنت أمانها فعلًا؟، قالت لي «فريدة» مرة إنها تخاف من الحب ولم أكن أصدِّق، قالت لي: الحب ليس الأهم دائمًا، أين المودة والرحمة إذًا إن كانت تحبني؟ لماذا لم تقل لي ولو لمرة واحدة منذ بدايتنا الأولى: «أحبك» بلفظها الصريح؟ هل يُعقل أن أحب سيدة لم تنطق كلمة الحب ولو مرة على سبيل المجاملة حتى؟ صحيح أنها تقولها بأساليب مختلفة وعبارات بديلة، لكنها لم تلفظها صريحة حتى في أعز اللحظات حميميةً، ألا يحتاج الإنسان منذ طفولته أن يسمع كلام الحب حتى ولو كانت الأفعال موجودة؟

«يا دنيا زيدي في مكايدك وأنا ماسك على ديني»

١٩

خرجت في اليوم الثالث إلى المعمورة غير قادر على فعل شيء، سوى المشي على البحر، أسمع «الصواف» و«نديم» عبر السي دي بلاير الذي أهداه لي «رؤوف» من آخر زياراته لفرنسا، كانت أغنية «طويل يا سفر الحبايب» هي المناسبة لما أنا فيه، تعجبت من اختيار «نديم الراوي» لهذه الأغنية، وكيف نقلها نقلةً نوعيةً في توزيعها الجديد؛ لتمسّ كل من يسمعها، وبدا لي أن الأغاني العظيمة كالرسالات تحتاج لإحياء من وقت لآخر؛ كي تصل إلى أكبر عدد من البشر، تمنيتُ لو أن «الراوي» يعيد أغنية «على الله تعود» لـ«وديع الصافي»، والتي سمعتها من «الصواف» في العديد من الموالد، وكنت أذوب معه في شطر «يا ضايع في بلاد الله»، ليت «فريدة» كانت معي الآن، وجلست أغنّيها لها بطريقة «يونس الصواف»، «من بعدك أنت يا غالي ما لي أحباب غير الله».. نعم يا «ديدة» ما لي أحباب غير الله، تمنيت أيضًا لو أنها قد هربت هي الأخرى إلى المعمورة، وأجدها صدفة في الكافيه الذي اعتدنا أن نشرب فيه قهوتنا.

قلت لنفسي: هي أمنيات.

تذكرت «ريما» وهي تقول: ولو متقابلناش تاني هتلاقيني في الحلم اللي في عيونك، وفي العيون اللي بتحبك، والقلوب اللي بتشيلك جواها، قلت وقتها إن «مليكة» لها نفس الابتسامة وسحبة العيون والشعر الغجري، وتذكرت نظرية «مليكة» عن أمواج البحر، وكانت ترى: أن الموجات ما هن إلا بنات البحر المتمردات، واللاتي يحلمن بالعيش في اليابسة، ومعانقة أجساد البشر، لكن سرعان ما تتكسر أحلامهن على الشاطئ الصخري، قالت لي وقتها: أنا وأنت نشبه هذه الموجات.

قلت لها: بالعكس أنا قدري جدًّا، قالت: لا.. في شعرك وأغانيك دائمًا تطرح تيمة التمرد حتى دون أن تدري.

ثم وقفت فاتحةً ذراعيها في مواجهة البحر في مشهد مسرحي وهي تقول: أتعلم يا «كَحّال» أن الرومان كانوا يعتقدون أن من قمم الأمواج خيولًا بيضاء تجرُّ عربة الإله نبتون، وكانوا يقومون بطقوس خاصة واحتفالات لإرضائه، قلت لها: إن نظريتك أقنعتني أكثر من نظرية الرومان، قالت: ألم أقل لك إنك كائن متمرد، قلت: يجوز.

كانت «مليكة» تجيد قراءة الشخصيات وتحليلها لدرجة أني لقَّبتها بـ«العرافة السمراء»، كانت شديدة القراءة، وتجيد التحدث بلغات متعددة، بسيطة في لبسها، أنيقة في مشيتها، فاجأتني في شرم الشيخ على الشاطئ بمايوه مثير، للوهلة الأولى اعتراني خجل الريفي الذي بداخلي، فقالت «بنت الذين» بمصرية خالصة: مكسوف إنت يا «كَحَّال»؟

ضحكث يومها وأنا أواري وجهي بين كفيَّ على طريقة «فريدة»، كانت «مليكة» تفعل كل شيء، وأي شيء بفلسفة ووجهة نظر وحجة واضحة وقوية.

في الأيام التالية من رحلتنا في شرم الشيخ علَّمتني كيف أطلبها للرقص، وكيف أخاطب أنوثتها، وكيف أطبع قبلةً على مبسمها الرقيق، وكيف أكون معها وتكون معي كرجل وامرأة دون قيود في ملابس النوم.

فجأة باغتني سؤال مفاجئ: هل كان من غير اللائق أن أغلق هاتفي؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل من اللائق ألا تتصل بي زوجتي وحبيبة عمري إلى الآن؟

إذًا عليَّ العودة إلى القاهرة وإلى الوكالة التي أقتات منها

خبز حياتي، وفي طريقي فتحت الهاتف لاستقبال المكالمات، جاءني صوت «رؤوف»: إنت فين يا ابني؟ أنا استلمت نسخ من الألبوم والتوزيع بكره بالليل، والبوستر بقى عند كل الموزعين، عايزين نفوق ونركّز في الدعاية، واعمل اتصالاتك بقى يا نجم.

بعدها هاتفتني طنط «سامية»، وقالت بكل ودّ وعشم: كده يا «مروان» تخضّنا عليك يا ابني؟ لم يكن عندي ردٌّ غير أني سافرت كام يوم إسكندرية، وكنت تعبان ومخرجتش من الفندق اللي كنت نازل فيه.

لم أسألها عن «فريدة»، فقط قلت أنا في الطريق للمنيل، وهكلم حضرتك تاني.

وصلت إلى الشقة التي استقبلتني استقبالًا فاترًا، كأنها هي الأخرى لم تعد بيتي، اتصلت بأمي التي سألتني عن «فريدة» فقلت بكذب: نائمة.

أخبرتها أن الألبوم سيكون غدًا في الأسواق، فقالت بفرحة تنتظرها: مبروك، فقلت إن كل كلمات الألبوم من تأليفي، فلم نشأ أنا و«رؤوف» أن نحصل على تصريح أغنية «الشرقاوي»؛

لسفره الطويل وقتها.

اتصلت بطنط «سامية» مرة أخرى على تليفون الشقة، تطمئنُّ أني وصلت إلى الشقة، لكنها أبلغتني هذه المرة: عمك بجانبي وهو يسلم عليك، قلت لها متهربًا: سلمي عليه لحد ما أشوفه.

في الصباح طلبتني للمرة الثالثة، وكنت في الوكالة وقالت: مش حرام عليك إنت وهي تسيبونا كدة مش فاهمين إيه اللي حصل.. قلت لها: أنا نفسي مش فاهم إيه اللي حصل، قالت: لازم نقعد معاكم أنا وعمك عشان نشوف اللي حصل ما ينفعش كدة.

نقلت لها حكاية الألبوم وأني شريك فيه، ومن غير اللائق أن أترك الحمل كله على «رؤوف»، فإن كان قد تحمَّلني في فترة تعبي فلن يتحملني في الفترة القادمة، سأتصل بكم خلال أسبوع لنجلس ونرى ما سيكون الحل.

طلبت من «ليلى» أن تذهب لزيارة «فريدة»، وتأخذ معها نسخًا من الألبوم، وأن تفتح معها الموضوع دون أن تخبرها بأنها تعلم شيئًا، وشدَّدت على «ليلى» بخصوص هذا الجانب،

وقلت لها: اخرجي معها حتى واشربا قهوة في أي كافيه في المعادي، ودردشا بعيدًا عن الموضوع.

كان الألبوم يمثل أول فرحة حقيقية بعد ارتباطي بـ«فريدة»، تمنيت لو أنها معي الآن، تمنيت أن أجدها في البيت تنتظرني كعادتها، وترتمي في حضني كأنني كنت غائبًا لوقت طويل.

لم تسفر محاولة «ليلى» عن جديد، فـ«فريدة» التي أعرفها وضعت قناع الثلج حول وجهها ولم تتكلم، حتى إن «ليلى» سألتها سؤالًا صريحًا: إيه اللي مزعلك من «كَحّال»؟ فقالت: لا شيء.

إلا أنها أبدت فرحتها بالألبوم، وطلبت من «ليلى» أكثر من مرة تشغيله في السيارة في طريق العودة من المعادي، كما احتفظت بعدد من النسخ.

كان ظهور ألبوم «مواعيد» مواكبًا لتمكُّن حركة الأندرجراوند من الانتشار والجماهيرية المتزايدة، فقد علا نجم عدد من الفرق المستقلة، وأصبح لهم جمهور خاص.

كان الاستقلال الأهم هو الاستقلال عن تحكُّم المنتجين في محتوى الأعمال، حيث اعتمدت الكثير من الفرق على التمويل الناتج عن الحفلات والانتشار، ما سوف يدفعهم لتأسيس شركات تدير لهم أعمالهم فيما بعد، بينما كان «نديم» وقتها قد فرغ من جولة في الشمال الأفريقي الذي يعشق أغانيه.

في المساء تلقيتُ مباركة طنط «سامية» على صدور الألبوم، وقالت السيدة بطيبة ودعة: قاعدين بنسمعه ومبسوطين بيه؟

سألتها مباشرة: «فريدة» قالت إيه؟

ردَّت السيدة: قالت كويس ومبسوطة إن اسمها نازل فيه ومبسوطة من الشكر.

قلت: طب خير.

كنت قد انغمست مع «رؤوف» في حكاية الألبوم والدعاية له، فكنا نوزع أنا وهو و«ليلى» على الصحفيين والنقاد ومحطات الإذاعة وكتاب المدونات المعروفة، وكانوا أكثر

اهتمامًا ونشاطًا وإيجابيةً من الصحف العامة والمجلات كانت حركة الثقافة في مصر بعد دخول الألفية الجديدة تتغير تمامًا في اتجاه جديد هو التدوين.

أسفرت الأيام الأولي للألبوم عن تحقيق مبيعات جيدة لم نكن نتوقعها، كنا على اتصال دائم بالموزعين، نقيم ما يشبه غرفة عمليات للمتابعة، لعبت «ليلى» دورًا مهمًا في تنسيق اللقاءات التلفزيونية مع برامج «التوك شو» في مصر وخارجها، تركت لـ«رؤوف» والموسيقيين الحديث، كنت أقف وراء الكاميرا من بعيد، وكنت منهكًا وليس لديَّ ما أقوله، أتهته في الكلام، وأحيانًا أشرد بعيدًا.

سألت المذيعة اللامعة وقتها: لماذا لا يوجد تعاون مع «نديم»، فأنتم تقريبًا تمثّلون نفس التيار الغنائي؟

قال «رؤوف»: بالفعل سيكون هناك تعاون معه، وتمت عدة لقاءات بيننا فعلًا، وأعجب بأعمال معينة، وننتظر التنفيذ، وهو فنان كبير يهمُّنا التعامل معه على العموم.

لم أكن أتخيل لو سألتني المذيعة نفس السؤال ماذا كنت سأقول؟ كنت وقتها قد فقدت الثقة في نفسي تمامًا، حتى

إنني كنت أسمي هذه الأيام بمرحلة الحنين إلى الرحِم، كنت أهرب من الأفكار التي تطاردني بالمنوم، أهرب للنوم في غرفة المعيشة بعيدًا عن سرير يذكرني في كل التفاتة بامرأة هجرتني دون سابق إنذار.

كانت فكرتي وما زالت أن الله منح المرأة حاسَّة سادسة تعرف من خلالها ما يدور في غيابها، خاصةً مع الزوج أو الأبناء، شفافية خالصة أعطاها لها كمكافأة على قلقها الدائم واهتمامها بكل تفصيلة مهما كانت صغيرة أو تافهة، لكن يبدو أن شرط الشفافية هذا لم يتحقق عند «فريدة»، والتي أظن أنها كانت لا تزال مشوّشة.

اتصلت بوالدها وقلت له: ممكن أقابلك على انفراد خارج البيت؟

رحّب الرجل بالمقابلة، وبالفعل التقينا سويًا في مقهى ريش بوسط البلد قلت له: تعاهدت معك ألا أكسر قلب ابنتك، وحكيت له حكايتنا منذ أن غادرتني في المرة الأولي، ويوم سافرت فجأة دون أن أعلم شيئًا عنها، أقسمت له أن «فريدة» هي كل حياتي، وأنني لم أخنها بالغيب، وكل ما حدث أني تعرفت على «مليكة» بعد زواج «فريدة» وسفرها، ولا أنكر

أني سافرت معها في رحلة لشرم الشيخ، لكن بعدها انقطعت أخبارها، ولم تزُر مصر، ولم نكن نتواصل بدليل أنني تركت الإيميل مفتوحًا لـ«فريدة»؛ لتباشره نيابةً عني، إلى أن جاءت هذه الرسالة الغريبة، التي كان يجب أن تناقشني فيها قبل أن تترك بيتها، ثم أعطيته نسخة منها، وقلت له: هذه هي الرسالة، فهل جزائي أن أبدو أمامكم رجلًا خائنًا، خان زوجته وحبيبة عمره؟

أحببت ابنتك قرابة عشر سنوات، لم تغِبْ فيها عن بالي لحظة واحدة، وهي تعرف ذلك جيدًا، كنت لا أتصور أن تعود لي مرة أخرى، ولكن حدثت المعجزة، وداواني الله بها مرة أخرى، فهل من السهل أن أضيعها وأضيع بيتي وعهدي معك؟

انتهى كلامي إلى هنا، ولا أريد ردًّا منك، أريد ردًّا منها فقط.

ارتاحت ملامح الرجل وقال: أتمنى لكما الخير.

في اليوم التالي تلقيت خبر ترشُّحي لرحلة باريس، والتي منحتها الوكالة لي بمناسبة زواجي، رغم أني هذا العام لم أقدِّم للوكالة أي جديد، كنت دائم الانشغال بالزواج والألبوم والحفلات والسفر، وها هو سفر جديد تحدد موعده بنهاية

العام.

هل سأزور باريس وحدي لأول مرة يا «فريدة»؟

سألت نفسي: لماذا لم أطلب «فريدة» على التليفون منذ بداية المشكلة؟ أنا حتى لم أرسل لها إلا رسالة واحدة، لم أجد ردًّا مقنعًا غير خوفي من خيبة الأمل، وما أعيشه بعدها من صراعات، هل أستحق كل هذا يا «فريدة»؟ إن قلبي لن يسامحك على هذا السواد الذي أحياه.

«يا بني الطريق محكمة مش مهيصة وكلام

وابن الطريق مفروز»

٢٠

مرَّت الأيام سريعًا، والتقينا في بيتهم لنسرد القصة أمام والديها، وكان عليّ أن أعيد نفس الكلام من جديد، وأنا أكره موقف المدافع عن نفسه، خرجت «فريدة» من حجرتها، وجلست بعيدًا في مواجهتي، مطأطئة رأسها، تسمع فقط ما أقول، ما آلمني أنها لم تسلِّم عليّ، فقط قالت: مساء الخير، ثم جلست بجوار أبيها، وكأنها تحتمي به مني؟

سكت الجميع فجأة في انتظار أن تتكلم، فاجأتنا «فريدة» ليلتها برغبتها في الانفصال، وإنهاء كل شيء؛ لأنها لا تتحمَّل الخيانة، وأن كل ما حدث سيجعل من حياتها جحيمًا، وهي تريد أن تعيش في سلام، فتعقَّد الموقف، وصمت الجميع.

كنت مصدومًا من طلبها الغريب، رغم أن ما حدث شيء عادي، يمكن أن يحدث لها هي شخصيًا، أليس واردًا أن يرسل لها طليقها -الذي ربما لم يعرف حتى الآن بخبر زواجنا- بريدًا يقول فيه أي شيء، أو يستجديها للرجوع إليه؟ ماذا لو وصلها مثل هذا البريد، هل كانت ستخفيه أم ستُعلمني من باب الاحتياط؟ وهل كنت سأتهمها أنا أيضًا

بالخيانة؟

عدتُ إلى بيتي جارًا ورائي ذيول الخيبة، يا لها من صدمة!

في الصباح أرسلت لي رسالة بأنها ستحضر للشقة صباح الغد لأخذ متعلقاتها الخاصة، وأنها ستترك لي كل شيء في البيت كما هو، يومها وقفت مندهشًا بعيدًا عن مدخل عمارتنا، أراقب دخولها للشقة، فلم أكن أتصوَّر أن يحدث كل هذا في يوم وليلة، وكان الوجع، كل الوجع بسبب عدم الفهم، أو حتى محاولة التفاهم، حتى إنها لم تعطِني فرصةً أن أنفرد بها لشرح وجهة نظري، غابت لمدة ساعة تقريبًا، كان والدها ينتظرها بالخارج في سيارته، بعدها نزلت حاملةً حقيبةً كبيرةً جمعت فيها كل متعلقاتها وانصرفت، صعدتُ بعدها إلى البيت فلم أجد ما يدلُّ عليها، محت كل ما يتعلق بها حتى بوستر «فريدة فهمي» أخذته معها، وصورة الزفاف، وألبوم الاحتفال، وجدت البيت خاليًا منها في ساعة، رفعتُ وجهي إلى السماء وسألت: لماذا يحدث لي كل هذا يا رب؟

مرّت الأيام التالية ثقيلةً على النفس، أذهب إلى العمل، وأعود إلى محبسي في البيت، لا طاقة لي بالناس، لا أردُّ على هاتفي، أيقظني جرس الباب، فتحت لأجد أمامي «رؤوف»

و«ليلى» يقولان في صوت واحد: تعالَ اخرج معانا مش هنسيبك كده.

قلت لهما: اتفضلوا بس ادخلوا.

أبدت «ليلى» تعجبها: مش عارفة إيه اللي بيحصل؟

ضحكت ساخرًا وقلت: ولا أنا.. عمومًا اعملوا لنفسكم حاجة تشربوها هغير هدومي وأجيلكم.

خرجت إليهما سريعًا، وكانت «ليلى» قد أعدَّت لنا النسكافيه، جلسنا نقلب الأمور على شتى وجوهها، فلم نحظَ بمخرج واحد، قالت «ليلى»: دعوني أتحدث إلى طنط «سامية».

قلت: لا داعي انتهى كل شيء.

عليَّ الآن أن أتكيف مع هذا المرض، ما حدث سرطان اقتحم حياتي، أو موت مفاجئ أخذ مني طفلي الذي أحبه.

كان عليّ أن أتعايش مع هذا الطارئ الجديد، بصبر وحكمة.

اعتبرتني غريبًا عنها في لحظة، وإن هي إلا أيام وستصدر شهادة لموتها بداخلي وموت هذه العلاقة.

إلى هذا الحد مشاعرنا رخيصة؟ بورقة تصير هذه السيدة زوجتي، وبورقة تنتهي علاقتي بها، أي رخص هذا الذي اجتمعت عليه المجتمعات من أجل حفظ النسب وحفظ الكرامة؟ واقع مريب، وبرغم كل هذه الأوراق والأختام والمواثيق تنتشر الخيانات، والكراهية والبغض، وتجد بعضهم يمارسون الجنس معًا، بينما يتخيل كل طرف أنه مع شخص آخر، المهم أن تكون هناك ورقة، وأن يكون هناك شيخ مأذون.

وقع الطلاق، وانتهى الأمر سريعًا، ردّت إليّ «فريدة» عند المأذون خاتم «حالي كَحّالك»، وشال «ريما»، تأملت الخاتم وقتها وقلت في سري: «حالك الآن فقط أصبح كَحّالي»، الآن سأعرف كيف يكون حال الأشخاص المطلقين، الآن سأكون الطفل الذي يحاول وصل صورة لوالديه معًا مزقاها ساعة الطلاق، في عتمة غرفته الحجرية، متدفئًا بها في الليالي الخالية من أي دفء، وهو يعرف أنه سيحلم به كثيرًا، لكنه لن يدركه إلى الأبد.

وقتها كنت لا أراها أمامي أصلًا، هذه ليست «فريدة» التي أعرفها، خرجت من عند المأذون إلى الشارع، أبحث عن أكسجين يعيد لي بعض الحياة، وأستمع من داخلي إلى «الصواف» وهو يقول: «الصبر أحسن دوا للي انجرح يداويه، والجرح لو من غريب كنت أقدر عليه أداويه، إلا جرح القريب تاهوا الأطبا فيه، وأنا اللي جرحي اتسع ومفيش علاج يداويه، أقرب ما لي عليا، سقاني المرار بإديه، فتحت له قلبي وبيتي واللي بيعوزه بديه، أتاري خيري اتنسى، وماطمرش عيشي فيه، قلب عليا بحقده والحقد مين يدويه، اكفينا شره يا رب واجعلنا من الأطهار، بقولها من قلبي وقلبي إنت اللي عالم بيه».

مرَّت أيام وأنا في حالة صمت تام، علمت وقتها أن «مليكة» في القاهرة، وتبحث عني، وتريد أن تتصل بي، كان «صبري» قد أخبرها بقصَّتي، فأصرَّت على لقائي العاجل، تهرَّبت لأكثر من موعد، إلى أن فاجأتني بزيارة في مكتبي بالوكالة، كنت مرهقًا، ولا تزال في كل جسدي جروح نازفة، تتردد بداخلي كلمات والدي الذي قال بعبارة قاطعة: من باعك بيعه، ووالدتي التي قالت: بقى اللي تجبر بخاطره يكسرك يا ابني؟ وكلمات أخرى تقال في هذه المناسبات لها جرس في الأذن، لكن ليس لرنينها معنى.

أنا الآن في حضن «مليكة» التي جاءت لمواساتي وقالت: ارتاح وخد وقتك، نستنى منك إيميل باش نشوفك مرة أخرى، خلصت أيامي في مصر، وكان خاصني نشوفك قبل ما نرجع كازابلانكا.

أخبرتها برحلة باريس فقالت: فرصة زوينة باش ترتاح، تصال بيا قبل منها نقدرو نتلاقوا سوا في باريس.

غادرتني العرافة السمراء قبل أن تشرب حتى فنجان قهوتها، قالت: «ارتاح» نفس الكلمة التي قلتها لـ«فريدة» بعد انفصالها الأول، كلِّمني وسنلتقي في باريس، قلت في نفسي صدقت «ريما» لما قالت: هتلاقيني في العيون اللي بتحبك، والقلوب اللي بتشيلك جواها.

في الأيام التالية أصابني صداع شديد وألم في أسناني، وصفت لي «ليلى» طبيب أسنان بالمعادي وقالت: شاطر جدًّا.

ذهبت إليه، فقال هذا الصداع ناشئ عن حالة «جز» شديد على الأسنان، يحدث لك أثناء النوم وهو نتيجة عصبية زائدة وغضب مكتوم، عمومًا حاول ما تنامش وأنت زعلان أو

متضايق، إنت متجوز؟ قلت له: كنت.

فهم الدكتور، وأعطاني نوعًا من المسكنات باسط لعضلات الفك المشدودة، وقال: أنصحك بزيارة طبيب نفسي.

كنت في حاجة فعلًا إلى الطبيب النفسي، ولكن أنا الآن في حاجة أكثر إلى النوم.

تذكرت الصوت الذي كنت أسمعه من «فارس» أثناء نومنا في راحة الخدمة، كان صوت اصطكاك أسنانه وطحنها مؤلمًا للغاية، كنت أنبهه أحيانًا فينقطع الصوت، لكنني لم أشأ أبدًا أن أحدثه في الأمر.

تذكرت أيضًا إهداء الشرقاوي: «الشاعر مغربي الهوى خليك على كيفك»، ضحكت بعدها من هذه العبارة الساحرة المؤثرة القدرية، ومن بعض قصائدي التي تنبأت بهذه النهاية دون أن أدري وقلت: يا الله.. أيكتب الشعراء أقدارهم وهم لا يشعرون؟

وجدتني أردد مع يونس الصواف: «ما لي أحباب غير الله»، قلت: هذا معنى لا يقوله إلا شاعر صوفي، وعلى ذكر الشاعر

كنت دائمًا أتساءل وأنا في مرحلة الجامعة: لماذا يريد الجميع أن يصبحوا شعراء في حين أن الشعراء ليسوا أسعد حالًا منهم؟ كيف كانت «فريدة» تراني إذًا؟ قالت لي مرة في لحظة غضب: إنني أحب شعرك القديم أكثر من الجديد، لعلها أرادت أن تؤلمني، فأسقطت الأمر على شعري، أظن أنها كانت تريد أن تقول: كنت أحبك أكثر في الماضي، مسكين أيها الشعر.

وضعت رأسي على وسادة سرير كانت تشاركني فيه «فريدة»، لأول مرة منذ سفرها الثاني، حيث كنت أنام في غرفة المعيشة، تشمَّمت بقايا عطرها المفضل، وقلت: بعض العطور أوفى من أصحابها، وتذكرت ساخرًا فيلم «الوسادة الخالية»، وصورة البطلة التي كانت تظهر على الوسادة كل ليلة، ضحكت محاولًا النوم، لكن حدث شيء لم أكن أتوقعه، طير النوم من عيني؛ إذ سمعت «خروشة» تحت وسادتي، ووجدت ورقة بدت لي أنها رسالة من «فريدة»! تركتها يوم أن أتت لتأخذ متعلقاتها، فتحت الورقة، وبدأت في قراءتها، وأنا ما زلت مندهشًا:

«مروان»..

بكتب لك الكلام ده ومش محتاجة منك أي ردّ، ولا هبعتلك تاني وهتعرف ليه وإنت بتقرا، إنت طبعًا عارف حكايتي كويس، لكن للأسف كنت طول الوقت بتشوف منها الجزء اللي يخصك بس، أو الجزء اللي يريحك، ويخليك مبسوط أو في حالة إلهام دايم في الشعر والأغاني.

أنا فاكرة كويس أول مرة اتكلمنا فيها عن مشاعرنا، كان ليا صديقة قعدت تزنّ عليا إني أحاول أشوف الحاجات الحلوة اللي في الدنيا، بدل ما أنا حابسة نفسي في قمقم وخايفة من إني أحب أو أتحب.

الصديقة دي كانت تعرف كويس إني حاولت مرة أكسر كل القيود، وكل اللي أهلي قالوه وقتها وفشلت فشل ذريع؛ لأن الشخص اللي حبيته من طفولتي طلع بيحب واحدة تانية، من يومها مبقاش عندي قدرة على التحمل، وبقيت ضعيفة وهشّة جدًا، وبخاف من الغدر ومن الجرح، وبخاف من الألم اللي بيكون دايمًا فوق احتمالي، وبخاف حتى إني أتعاقب على العيب دا في شخصيتي، مع إني مليش يد فيه، ربنا خلقني كده «خوافة».

فقررت إني مش هعمل في نفسي كدة تاني مهما كانت

مشاعري.

لما قربت منك أكتر أيام المعهد لقيت فيك حاجات كتير مبهجة ومتناقضة، برغم شكلك الرزين، واللي مبيديش انطباع بإنك عاطفي خالص ولا مندفع، شكلك كان بيظلمك، وبيظلم الطفل الرومانسي اللي عرفته معاك بعد كدة، وقتها حسيت بلخبطة في مشاعري، واللخبطة دي تعبتني جدًّا، وبقيت في صراع بين أني ألجم نفسي ومارضاش بالوجع ليا وليك، وبين إني أستسلم وأنا عارفة اللي فيها، وقررت إني ماستسلمش.

بعدها حصل إني سيبتك وروحت اتجوزت من غير حب وسافرت؛ لأنك أغلى عندي من إني أخسرك، لكن في النهاية رجعت بصفر كبير، وأديني أهو بدل ما أكسبك خسرتك في الوقت اللي كنت بحافظ فيه عليك، بس المرة دي خسرتك للأبد.

«مروان»..

مهما كان حبي ليك مكانش ممكن بأي حال نكمّل، ده غير إن دا هيكون حمل زيادة على نفيستي التعبانة أصلًا، وقلبي

اللي مش مستحمل أي جرح جديد، وكمان هيكون حمل على حياتك اللي طول الوقت نفسي تبقى فيها سعيد ومبسوط.

على فكرة إنت ما أجبرتنيش على الرسالة دي، ولا عن التعبير عن مشاعري، أنا اللي قررت أقولها لك، ودا لأنك ببساطة مفهمتنيش.

كنت طول الوقت بتخيل إنه كفاية إنك تعرف إن حبك وأزمتي الاتنين حاجة واحدة موجودة في قلبي بس، ومش بحكي عنها لحد، فمستحيل كنا هننجح في أي علاقة؛ لأنها ديمًا هتكون محفوفة بالمخاطر، لكن للأسف كنت غبية، واتسببت لنفسي وليك في ألم أكبر.

أنا شرحت لك ده علشان إنت متخيل إن موضوع الرسالة دا موضوع تافه في نظرك، مع إني حتى مقدرتش أبرر لك إنك تحب حد غيري، حتى وأنا مش معاك ومع راجل تاني ولا اتحملت دا، واعتبرته خيانة، وإنه هينتج عنه خيانة في المستقبل؛ لأني ببساطة لما سألتك عن إهداء «الشرقاوي»، إنت أنكرت، وقلت إن دا كان مجرد هزار، يا ريتك كنت حتى اعترفت لي، كنت هحس إن ليا خاطر عندك، أو على الأقل بتقدّرني.. عمومًا يا ريت أكون قدرت أوصلك اللي حصل زي

ما هو، مش زي ما أنت شايفه.. وأتمنى لك حياة سعيدة».

طويت الرسالة، وأودعتها بجانبي وقلت: قدرتي.

لا أعرف لماذا أغلقت باب محاولات الرجوع في وجه من أحب، حاولت أن أخسرها للنهاية دون بذل المزيد من الجهد، حتى وإن كانت مصدرًا مهمًا من مصادر سعادتي وإلهامي، كنت أقنع نفسي بأنني حتى وإن خسرتها فلن أخسر نفسي على الأقل، سأنام مبتسمًا كالعادة كلما حققت خطوة جديدة أو أنجزت منجزًا، حتى وإن كان تافهًا، فهذه الأشياء قادرة على منحي بعض لحظات الفرح.

الفصل الثالث

«لاسهر عليك الليل واعملَك وِردي

يا الاكحل العين يابو الخدود وَردي»

٢١

في اليوم التالي للرسالة جلست أرتشف قهوتي مستمتعًا بتبادل رسائل الشات مع «مليكة» دون أن أحكي لها قصة الرسالة، أظنُّها أرادت بهذه المحادثات التي ظلت تتكرر بشكل يومي أن تملأ فراغ قلبي؛ حتى لا يصيبني نكوص أو يؤلمني حنين، حيث اقترب موعد رحلتي لباريس، والتي وعدت «مليكة» بأن ترافقني فيها.

في المساءات المعتادة كنت ألتقي بـ«رؤوف» لنعمل على مشروعنا الجديد الذي كنت قد انتهيت من كتابته تحت عنوان «رسايل موجهة»، أو لنناقش توقيع عقد الألبوم الجديد مع نفس المركز الفرنسي، واتفقنا أن أقوم أنا بالتوقيع خلال رحلتي لباريس، والتي أستطيع من الآن أن أجزم أنها ستكون رحلة مختلفة، بعد أن وعدت «مليكة» بأنها سوف تسبقني إلى هناك، قلت لها: كنت خايف أكون لوحدي، قالت بدفئها المعهود:

- ماتخافش أنا مْعاك، ومتهزش الْهَمْ لْبَارِيسْ رَاهَا بلادي الثَّانْيَة، عَشت فِيهَا كْثَرْ مَاعَشت فِي المغرب.

قلت لها أجاري مغربيتها:

- لهلا يخطيك عليا.(17)

كانت لمليكة لمعة عيون سحرية وقلب نابض للحياة، تعيش به كل لحظة وكل دقيقة بحب، تُغيِّر ملابسها أكثر من مرة في اليوم الواحد، كأنها تحتفي بساعات اليوم، تأكل بنهم ولا تشبع، تشرب بنهم ولا تصل حدَّ السُّكر، ترقص وكأنها تعانق الموسيقى مثل فراشة حائمة تعشق النغم.

قالت لي ونحن في شرم الشيخ مرةً: أنت مهووس بما تسمعه، وبتعيش حالة من «اليوفوريا» والانتشاء والوصول الصوفي المفعم بالسعادة.

وبدأت تشرح لي قالت: أنت تشبه الدرويش يطوف حول أحد الأولياء طلبًا للمدد، تكون دائمًا في حالة من الوجد والانجذاب، أنت يا «كَحَّال» تُشعرني بأنك ممن يرون الموسيقى والكلمات وأنت تسمع وتحلل وتتذوق المعاني، وتبحث عن القصص التي خلفها، والأشخاص الذين عاشوها.

مضت الأيام والتقينا في باريس، استقبلتني المجنونة فجرًا

في مطار «أورلي» بقبلة صباحية حانية، وحضن يسع كل الجراح التي يحملها قلب مهجور.

ما أجمل أن تسافر بعيدًا مع شخص يعتني بقلبك المكسور، وهو يعرف سلفًا أنه لن يستطيع المكوث به.

كانت رحلتي إلى باريس هي الأولي في حياتي، وكذلك الخروج من مصر لعشرة أيام دفعةً واحدةً كان معجزة في هذا التوقيت العصيب بالنسبة لي، والعجيب أنني اعتذرت عن سفر «فريدة» بحجة أنها مريضة، فكنت لا أستطيع بعدُ مواجهة زملائي في الوكالة بخبر الطلاق، حتى إنني كنت طوال الوقت أكذب عليهم، وكأن حياتي تسير كما هي (روحنا، وجينا، كنا عند حماتي، سافرنا يومين المعمورة)... وهكذا.

باريس مدينة الألوان والأضواء المبهرة المفرحة، وأنا أحبو ما بين الأمس واليوم، أسير في الشوارع النظيفة المعطرة بدموع المطر، أطارد أشباحي وهواجسي مصطحبًا ذلك الطفل، الباكي، المغوي بعوالم سحرية يراها هو دون غيره، يمشي باكيًا حاله، ثم يضحك ساخرًا من هول أقداره، تشهد الليالي على سعيه لتحقيق حلمه المنتظر.

خرجنا من المطار أنا و«مليكة» وكانت عيوني تلمع شغفًا بباريس مدينة الجن والملائكة ومهجر موسيقى الراي، أوصلنا التاكسي إلى فندق «كريستال شانزليزيه» بشارع واشنطن القريب من الشانزليزيه، والذي يبعد ثلاث دقائق فقط عن قوس النصر وثمانٍ عن برج إيفل، ورغم أن مطعمه صغير، وإفطاره لا يغني من جوع، إلا أنه كان جيدًا، تميزت غرفته بوجود حمام به «شطاف»، وكانت هذه الميزة تغني عن كل شيء، قال لي زميلي بالوكالة «وائل عبد القادر» المسؤول عن الحجز: إن الفندق هذا «متفصّل» على المصريين، وهو خيار جيد لمن يريد قضاء وقته حول الشانزليزيه، وأظن يا «كَحّال» أنك لا تريد أكثر من هذا.

اصطحبتني «العرافة السمراء» إلى غرفتي الباريسية في ذلك الصباح الربيعي الأنيق، ارتميث على السرير أنشد بعض الراحة قالت: فيق يالكسول غادي تنعس من الأول؟

- أريد النوم لساعتين فقط، وبعدها ننطلق كما تريدين.

- ok نمشي نشري شي حاجات، ونرجع لك من بعد ساعتين.

قلت لها بدلال وهي في حضني:

- خليكي معايا.

- non، نمت بزاف لبارح، نرجع ليكي بعد ساعتين.

خلعت ملابسي، وتمددت في السرير الدافئ، تذكرت «ريما» وقلت: أين هي الآن؟ غفوتُ قليلًا وصحوت على هاتف الغرفة، وأتاني صوتها مداعبًا:

-»صحّ النوم«.

- اصعدي.

- واش عرفتي شحال تاع الوقت نعستي؟

- ساعتين.

ضحكت وقالت:

- رآها دابه ١٢ ديال الظهر آسيدي.

ضحكت من كلامها المغربي السريع، لكني هرعت مهرولًا، ارتديت ملابسي، ونزلت سريعًا لأجدها في انتظاري بملابس مختلفة غير التي استقبلتني بها صباحًا، كانت «مليكة» ترتدي الميكروجيب الذي أبرز انسيابية جسدها وساقيها اللامعتين وردفيها البارزين، قلت لها وأنا أقبِّل خدها الناعم: ما هذا الجمال يا بنت؟

قالت ضاحكة:

- هو من عند الله يا ولد الناس.

ثم قالت غامزة:

- يا لا غاده نديك لواحد كافيه إيطالي قريب، نشربوا قهوة باش تفيق وتصحصح وناكلوا بيتزا.

ذهبنا للمطعم الإيطالي القريب، وطلبنا البيتزا والقهوة، قالت «مليكة»:

- ما تجلس قدامي، آجي جلس حدايا منبغيش يكون بيني وبينك شي فاصل.

استجبتُ لها، وانتقلتُ إلى جوارها، وضعت رأسها على كتفي، واستراح شعرها «الكيرلي» على ذراعي الذي احتضنها بقوة، جعلتها تقبّل خدي، ثم تتبع القبلة بمسح ما نتج من آثار لطلاء شفتيها بلونه الوردي وهي تقول: كيف حالك يا شاعر؟

- لديّ حالة من التبلُّد والانسحاب، أريد الهروب من البشر، وأسعد أوقاتي هو النوم، ولا رغبة عندي في البقاء مستيقظًا وحدي، أهرب من نفسي ومن محاولات استرجاع بعض الذكريات، ومن مهاجمة الأفكار في الليل، حتى الشعر «ابن الوسخة» هجرني هو الآخر، أذهب للعمل صباحًا بلا روح وأعود بلا روح، لولا «رؤوف» و«ليلى» والبروفات والحفلات، وارتباطنا بعقد البوم جديد، لما كان هذا حالي.

قبّلت يدها شاكرًا لها موقفها النبيل معي وحنوَّها علي، فقالت:

- أول مرة تلاقينا وشفتك حسيت بالمسؤولية اتجاهك، أنت يا «كَحّال» طيب ورومانسي عندك عطاء كبير اتجاه من تحب، وعندما تحب ينام عقلك، ولا تتوقع ماذا سيفعله بك الطرف الآخر، بعضهم يا عزيزي لا ضمير له، يفكر في الحياة

بأنانية مطلقة، «فريدة» حاولت أن تنجو بنفسها من جرح لم يحدث، في إشارة منها إلى أنها لن تسمح ولو بهفوة، بينما لم تلتفت وهي تنجو إلى أنها طعنتك بسكين بارد، قتلتك لتعيش هي، ثم قالت بنرفزة:

- سمح ليا بزاف كرهت هاذ السيدة (DIDA) ولن أسامحها عمري كله.

ضحكت من حرارة حديثها، واستغربت؛ لأنها تتحدث أمامي بهذه الطريقة عن «فريدة»، ومن تسميتها بالسيدة (DIDA)، احتضنتها مرة ثانية، وهنا سالت من عيني دمعة لمحتها «مليكة» وعادت لمغربيتها:

- هاد دموع كنعرفها مزيان مكتشوفها غير في عينين العاشقين الطيبين زيك، ثم قالت فجأة: خلينا من هاد الشي فين تبغي تمشي من بعد ما نشربوا قهوتنا؟

- خذيني إلى مكان أشعر فيه بالسكينة يجذبني بروحانيته إلى عنان السماء.

- صوفي إنت يا مولانا؟

قلت لها: اسمعي مولانا الحقيقي بيقول إيه؟

بيقول يا ستي:

«على باب سيدنا الحسين ياما تشوف أهوال

فيه اللي لابس طرطور وسره مداريه ف شوال

وفيه اللي مكحل عيونه واللي ضفايره طوال

وفيه اللي معاه صفارة (صف) والتاني معاه طبال

والتالت إيشارجي يمين وشمال

وفيه اللي لو ترجم يقوم زلزال

أوعى تلوم أهل الهوى ليمسّك سلك الحال»

قالت بلهجة مغربية: شاي الله آسيدي كَحّال.

وبيقول كمان:

«صبية حبتني طلبت الوصال مني

قربت منها بعدت بعيد عني

قلت لها ليه بتبعدي؟

قالت بتهجرني

روح اسأل أهل الرضا

وتعالي طمني

أصل أنت لسه بادي وخايفة لتطلقني

هات لك ضامن يضمنك

وهات لي وكيل يضمني

قولت لها شاهد الحق «ربنا» ضامنني

قالت خلاص انتهى.. أمرك بقي مني

وادخل معايا في سلك الرضا وعيش ويايا متهني

همست في ودني وقالت كلام يألمني

أنا ليا عشاق في هذا الحي

إوعى تغير منهم لو كانوا حاضنني»

في الطريق قالت: قول كمان يا «كَحّال». قلت لها إن هذا الشعر لمداح في قريتنا كان يردده في موالد الأولياء وأنا من عشاق صوته.

- عظيم.

«يا قلبي خايف عليك م الحب وإنت لسه صغار

ياما ناس كتير اهتدوا على إيد النبي وكانوا كفار

وتركوا نوم الحرير وناموا على الأحجار

إوعى تلوم أهل الهوى لياخدك التيار

وامشى في طريق الرضا تبان عليك الأنوار

واوعى الشيطان يغلبك وتلعب بقى بالنار

الحب بحر غويط واسع مالُهش قرار

بيحير العاشقين ويغرق بنات الدار

يا اللي تلوم على المبالي

أهل المبالي أسرار

شوف رابعة العدوية بتقوله في الأسحار

بحبك يا إلهي، لا طمعانة في جنتك

ولا خايفة من عذاب النار»

- سآخذك إلى Basilique du Sacre Coeur (كنيسة

القلب المقدس) هناك ستجد جزءًا من نفسك، أعرف أن الأماكن المقدسة هي عتبات الرب، حين تعبرها تجد نفسك مع الله وجهًا لوجه.

أنشدت لها:

«غريب في وادي الغُرب أهل القرب باعتيني

محملني حمايل تقيلة ورغم الحمل ناكريني

يا اللي عليك العين ليه بالـ«غين[18]» تقابلنى

قطعني ألم البين لما ناويت تغايرني

لو كنت ذواق للمعاني

قوم خضر التوب وقابلني»

- قالت: زوينه الصوفية فوق تلال باريس، مع بنت مغربية ترغب في القرب منك.

نظرت في عينها وأنا أردد:

- ومن أراد القرب عجّل بالوصال.

أردنا القرب أنا و«مليكة»، فصعدنا الكنيسة المهيبة ذات القباب العالية، والنوافذ رائعة الألوان من الزجاج المعشّق، واستمعنا على الدرج لفريق موسيقي يغني تراتيل فرنسية، يرتدون اللون البرتقالي البهيج، رأيت الشموع أمام تمثال السيدة العذراء، فأخذت نفسًا عميقًا استشعر المكان، أغمضت عيني في تسبيحة طويلة، مرددًا: ما أجمل بيوتك يا الله لولا السواد في عقول البشر، قالت:

- مَا لَكَ يا ولد الناس؟

- اسمعي دي:

«تليفون ضرب في الكون من غير رنين ولا صوت

صحّى اللي ميت[19] وخلى اللي صاحي يموت

رقمه في دليله ودليله في تنزيله من قبل الأزل مثبوت

ألوه يا أسرار ردّي على المحتار يا مسيرة الملكوت

يا كلمة حلوة على حبك أعيش وأموت»

توقفت «مليكة» فجأة، وقالت: شوف يا «كَحّال» هذه السيدة لم تعرفك جيدًا، على الرغم من عشرتكما الطويلة، أظنها لم تفهم لغتك، ولا بعض رموزك، ولا ما بين سطورك في الحياة، لذلك ظلت خارج دائرة محبتك، تائهة على محيط الدائرة من الخارج، حتى ملّت فانسحبت من نفسها، فمثلها لن تكمل معك في طريق، ليس لأنك طلسم أو حجر رشيد -لا سمح الله- لكن لأنها لن تستطيع مدّ جسور الحب التي تمشي عليها إلى قلبك.

- ولا أنا فهمتها يا ستنا «مليكة».

ثم رفعت صوتي وقلت: مدد يا طاهرة يا أم الحنان، لا تحزني يا حبيبتي، فعند الله تجتمع الخصوم.

وضعت يدها على فمي وقالت: Tais-toi (اسكت) غادي تَفضحنا. هنا تحسست خاتم «فريدة» الذي ألبستني إياه في

المعمورة، وخلعته لأول مرة، فتأملته «مليكة» وقرأت «farida» المكتوبة بالإنجليزية بداخله، ثم أعطته لي، وجلسنا صامتين قرابة الساعة.

قالت وهي تصحبني إلى قوس النصر الذي يتوج شارع الشانزليزيه:

- غادي يعجبك في وقت الغروب، ثم صمتت قليلًا وقالت:

-لا تأمن يا «مروان» لإنسان توقَّع منك الشر، بينما كنت أنت كل الخير الذي في حياته.

هناك قبّلتها قبلة طويلة، كدنا نغيب فيها عن الوعي، قلت في سري:

- مدد يا بونابرت يا صاحب الحضرة الصوفية في القاهرة الفاطمية، يا اللي دخلت الأزهر بالخيول يا ابن المرة، مدد يا ستنا جوزفين يا اللي طلعتي ميتين أم مولانا العابد الزاهد الذاكر في موالد العامة في بولاق.

كانت هناك تماثيل أربعة على القوس تمثل الثورة الفرنسية

وحروب نابليون، ومعاركه، إلا معركة «فريدة» الأخيرة، التي انتهت قبل أن تبدأ، قلت لـ«مليكة»: لماذا لم يضعوا تمثالًا خامسًا للسيدة جوزفين؟ وسادسًا للسيدة «DIDA».

ضحكت وقالت: صافي نقول ليهم.(20)

عدنا إلى الفندق لنرتاح قليلًا قبل النزول للسهر والعشاء في مكان يليق بعاشقين، أو على الأدق شخصان يداوي أحدهما جرح الآخر ويحنو عليه.

في الفندق نظرت في عيني «مليكة» باستغراب وتأملت كيف أنها تشبه عيون «ريما»، ما جعلها تسأل: ما لك يا ولد الناس؟ قلت لها: أريد تقبيل عينيكِ، ضحكت وهي ترقص في الحجرة كالمجنونة وتغني كـ«عبد الوهاب»: بلاش تبوسني في عينيا دي البوسة في العين تفرّق، قلت: تعرفي أن «عبد الوهاب» غنى الغنوة دي لأمه؛ لأنه في مرة كان بيبوسها وبيغمرها بقبلاته في كل وشها، فجت بوسة منهم على عينها، فقالت له: بلاش تبوسني في عينيا يا محمد البوسة في العين تفرّق، ضحكت بصوت عال وقالت: أش كَانَت كاتقولك «فريدة» فِي هَاذ الْحَالاَتْ؟، ضحكت وأنا أرقص مثل «فؤاد المهندس»: سبعاوي، سبعاوي، سبعاوي.

مضت دقائق في مشاكستي لها، معانقًا ومقبلًا حتى سقطنا عاريين تمامًا على ذلك السرير الأنيق في الفندق الباريسي الذي قال عنه زميلي بالوكالة: إنه متفضّل على المصريين، وكان عليّ أن أسأله: المصريين فقط؟ في حين ظل الهوى المغربي الفرنسي المشترك يعلو على الهوى المصري في موجات من المُتع المتدفقة، قلت لها مداعبًا أنفها: والموجات هن بنات البحر المتمردات اللاتي يحلمن بالعيش في اليابسة ومعانقة البشر.

قالت مصطنعةً الجد وهي تصفع وجهي بكفِّها بلطف: لكن سرعان ما تتكسر أحلامهن على الشاطئ الصخري، ثم نظرت بعينين ينعس فيهما سُكر بيِّن في مشهد سحري وقالت: أنا وأنت نشبه هذه الموجات.

أفقت متأملًا تلك الملامح الناعسة التي لم أتوقع يومًا أن أنجب منها ما تبقى في حياتي من أمل، أطالع عقارب الساعة وهي تمر سريعًا، وأقول لها: تمهلي ولو قليلًا عند هذه الخصلات المتناثرة قرب وسادتي، أستنشق منها بعض العبير، خروجًا على قانون الزمن، أمسك أقلام خيالي وأكتب على جلدها الناعم قصائد وردية أوقِّعها بدموعي ودمي، فمنذ غادرتني جنية الشعر، وأنا عاجز تمامًا عن مثل هذه الكتابة،

أنثر كلماتي في الهواء دون أن أجمعها أو أدوِّنها، حكايات بلهاء لا طائل منها إلا استدرار العطف.

بعد قليل أيقظتها ونهضنا عازمين على الذهاب إلى الفندق الذي تنزل فيه «مليكة»؛ لتغيير ملابسها؛ لتناسب سهرتنا، وكان الفندق في الجوار، وبينما كنت أرتدي ملابسي انتبهت «مليكة» فجأة لسلسلة كانت في رقبتي، وقالت: قَرَّبْ ليا نشوف هَادِيكْ collier.

وكنت قد وضعت خاتم «حالي كَحّالك» في سلسلتي الفضية، قلت لها: هذا خاتم كنت قد أعطيته لـ«فريدة» في أول عيد حب مرَّ على زواجنا، وحكيت لها قصته، فقالت التصميم رائع والقصة مُلهمة، قلت لها: تفضليه، قبّلتني وقالت: non, Ce sont tes souvenirs هذه ذكرياتك، لكن pas de problème نلبسهم هاذ الليلة فقط، فحالك يا «كَحّال» أصبح كَحّالي، ووقفت تتأمله في المرآة، بينما أكملت أنا ملابسي، ثم انطلقنا.

في لوبي الفندق الذي تنزل فيه جلست انتظرها، الغريب أن «مليكة» لم تتأخر، ونزلت في ثياب أنيقة وفي غاية التألق، اتجهنا إلى ملهى Les planches الذي قالت عنه: إنه مكان

لطيف سنتعشى ونرقص فيه حتى الفجر، قلت لها ونحن ندفع باب الملهى:

- «حنا فتح خان في حي السيد البدوي، والخان فيه دكان، والدكان فيه خمار، يا خمار ما تخاف الله يا مجذوب ما تخاف الله».

قالت بمغربية لم أتمكن من التقاطها جيدًا: أدخل وبطل دروشة.

خلعنا معطفينا عند دخول الملهى، وكانت «مليكة» ترتدي ستومك بادي يبرز صدرها، تتدلى من رقبتها سلسلتي الفضية وخاتم «الحال»، ارتدتهما على بنطلون أسود، وقد جعلها الكعب العالي تزداد طولًا على طولها، اتخذنا طاولة قريبة من البار، قدَّم لنا البارمان مشروبًا ترحيبيًّا، قالت «مليكة» وهي تهمس في أذني على إثر الموسيقى العالية:

- كوكتيل يا «كَحّال»، جرّب؟

سرحت قليلًا في فكرة تجريب الشرب لأول مرة، رحبت بالفكرة بيني وبين نفسي وقلت: ولمَ لا؟

- ما لك؟

- جائع.

- اصبر.

بعد دقائق طلبت «مليكة» بعض الأصناف، التي أتت مخيبةً لآمالي بعد أن اختارتها بعناية من قائمة الطعام المكتوبة بالفرنسية، نظرت «مليكة» بعين فاحصة وقالت: هْنَ مَشِ مطبخ أمك يا «كَحَّال»، نتَ فِي باريس غَدًا نَدِّيكْ لْمَطْعَمْ مَغْرِبِي بَاش تَشْبَعْ وَتْعَمَّرْ لكرْيشَة.

ضحكت بصوت عالٍ من جرأتها ومن قولها «لكريشة» وهي تضع يدها على بطني، وقبّلت يدها. فقالت مبتسمة:

- حَاسَّة بِيك وَلْدِي وُأنَا مَمَاكْ، مَسؤُولَة عْلِيكْ هْنَا فِي بَارِيسْ، قلت لها: مشيرًا إلى صدرها المكتنز:

- وما له حد يطول يبقى عنده أم بالحنان دا.

- واش أنْتَ صُوفِي يا «كَحَّال»؟ الله يَهْدِيكْ يا ولد الناس.

قلت وما زلت أناظر صدرها الحر الجريء مشاكسًا:

- خمر الرضا طاب واستوى على العيدان.

قالت بعد أن ارتفع صوت الموسيقى في دعوة للرقص:

- أجي تَشْطَخ، الله يشفيك يَا «كَحّال» يا وَلْدِي مَن الْبَصْبَصَة عْلَى صدور البنات.

قلت هامسًا: الحلاج بيقول: «من لم يعشق المخلوق في قلبه، كيف يعشق الخالق؟» ثم ضحكث ورقصث وشربث حتى تكشفت أمامي وجوهًا كنت أشتاق إليها، ومشاهد لا حصر لها كنت قد نسيتها، رأيت «فريدة» ترتدي زي الأغراب المطرز بالأحمر والأخضر، وتقف في «شمية ليلة» يضربها الماء، فيلتصق الثوب بصدرها وهي تقول: كده يا «كَحّال» خدت الخاتم مني، وأديته للغرباتية اللي راكبة الفرس الأكحل.

تكرر الصوت معي كأنه عديد، ثم قالت أمي، وهي تلقي بالحصى في الماء: سيبوه، «مروان» ابني لو قعد عشر سنين

كده مش هيتجوز، هيفضل زي الطير المهاجر من شجرة لشجرة، والله تلاقيه ما صدق إن «الغزية» دي طلَّقته.

أنقذني «رؤوف» وقال: الحق «نديم الراوي» بيدور عليك عايز كوبليهات «الحزن وأنا جنبك فارقني»، عشان يلحنها.

ثم فاجأني وجه «ريما» الحزين وهي تقول: ليه ماجيتش تزورني في الليلة الكبيرة كان نفسي أشوفك وأغني معاك.

فجأة صرخ «نديم» بعد أن ألقى الورق في وجهي، وأنا أعرض عليه بعض نصوص الأغاني قبل صعوده للمنبر بثوانٍ يوم الجمعة: مش شايفني بشتغل، شغل دا ولا مش شغل؟ ثم قال في ميكرفون المسجد بصوت رخيم: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}، وقال «طه القاضي» وهو يفصل بيني وبين «خالد الجارحي» الذي يحاول أن يضربني في الصالون الكبير في بيت «ليديا»: سيبه يا «خالد» دا واد غلبان ما يستحملش ضربة من إيدك. فردَّت «مليكة» وهي تصرخ: شيل إيدك من على صدري يا مجنون إحنا في الشارع. عندها أيقظني جدي «سيد» بعكازه هو يقول في صدىً يتردد: البت بلغت وصدرها بقى قد اللمونة، ثم قاطعه صوت أجش: إنت بتحلم يا عسكري، عندها أفقت،

ووجدتني عاريًا في حجرة «مليكة» بالفندق، ووجدتها واقفة عند رأسي تضحك.

فقلت لها وأنا أحاول أن أقبض على ضوء النهار بعيون مرهقة وصداع عنيف يضرب رأسي: بتضحكي على إيه بس يا «ريما»؟

- ردت غير مكترثة بمنادتي لها بريما: باريس لْبَارَحْ بالليل كُلْهَا سَمْعَاتْ بِفضيحة الشاعر المصري السَّكْرَانْ، شَوَّهْتينا في باريس يا «كَحَّال».

تناولنا إفطارًا سريعًا، وانطلقنا بعد أن أخذت معي صداع الليلة الماضية، قالت «مليكة»: نَمْشِيوْ بُرْجْ ايفيل وُمِنْ بعدها كاتدرائية نوتردام، وُمَنْ بَعْدْ نَمْشِيوْ لْمَطْعَمْ مَغْرِبِي بَاشْ تْعَمَّرْ لكريشة، أحْسَنْ مَنْ أكل لْبَارَحْ لِّي مَعَجْبَكْشْ، ضربتها على يدها بلطف، وقلت لها:

- احكي لي اللي حصل امبارح.

- نْحكي لكْ عْلَى فْضَايْحَكْ في الطْرِيقْ، لكن أَجِي لَّهْنا شْكُونْ هاد «ريما»؟

أخرجت لها الشال من حقيبتي قلت لها: فتاة غجرية تشبهك وهذا شالها، غادرتني ونحن أطفال، ولكنها ظلّت بداخلي تزورني من وقت لآخر في مناماتي.

وقفت أمام المرآة وقالت: هاذ الشال زوين بزاف.

قلت لها: أحتفظ به من يوم وداعها.

على خلاف جلسات العمل مع ممول الألبوم الجديد لفرقتنا، والتي كنت أحضرها بصحبة «مليكة» التي كانت تتولى الترجمة وتفسير بعض بنود العقد، مضت أيامي في باريس في سرعة لم أكن أحسبها، ما بين نزهة صباحية في أحد معالم المدينة المتعددة، وبين سهرة في ملكوت «مليكة» العرافة، التي أيقظتني ذات صباح على مفاجأة لم أكن أتخيلها، كانت قد رتَّبت لها سرًّا، وقالت في دلال بعد أن أمسكت بيدي:

- فك لي صدايف(21) سترتي.

ضحكث وأنا أنفذ ما طلبته مني، وقلت لها وأنا أطالع

صدرها العالي:

- ياما تشوف أهوال.

قالت بمصرية:

- فُك وإنت ساكت يا درويش إنت.

- درويش ناصح أحسن من ولي أهبل.

- مفيش ولي أهبل.. إلا لو كان ولي نفسه أو ولي للشيطان، ثم قالت: بفرنسية: Enlève mon soutien-gorge وأغمض عينيك ولا تفتحها يا مجنون، إلى أن أقول لك.

أغمضت عيني وأنا أحاول فكّ صدريتها كما طلبت، واحتضانها لافًّا جسدها بذراعي، متنسمًا عطرها الباريسي الدافئ، قالت بعدها: افتح عينيك الآن.

فتحت عيني، فوجدت أول ما وجدت وشمًا مزينًا بعناية أسفل صدرها لعبارة «حالي كَحَّالك» بنفس خط وتصميم الخاتم، تحسَّست الوشم، برفق؛ خشيةَ أن يؤلمها، وأنا أتمتم:

«مدد يا بنت حوا وآدم يا اللي خلفتي الطريق

ومشيتي حلة الضفاير وقتلتي فيكي البريء

وقع ابن آدم في بحرك غريق

من إمتى مية هواكي كانت بلت له ريق؟»

قالت بغيرة: فكَّرتك بالسيدة «DIDA» صح؟

قلت لها:

- صح، بس مش مهم، المهم إنك حلوة وتشبهين القمر بوشمك هذا الذي أدخلني تاريخ أوروبا والمغرب العربي القديم معًا، ثم أخذتها برفق وأنا أغني لها:

«يا بنت يا مشخلعة يا مدلعة يا مولعة القنديل

يا اللي ليكي في كل طلعة شمس ألف قتيل»

قالت وهي تضحك ضحكة لم أرَ مثلها من قبل:

- وَاش أنَا حَامل؟ كَنشُوفْ الممثلين في المسلسلات المصرية كَيعملو بْحَالْ هَاكَا مْعَ الست لمّا تَحْمَلْ.

- حملتي ختم الحب يا «مليكة».

وأنشدت لها من «الصواف» مرة ثانية:

تليفون ضرب في المدينة والضرب كله رموز.

«ألو.. خليك برة يا اللي إنت جاي مهزوز.

سيب المبالي في حالهم إيش من المبالي هتعوز

دا اللي ابتلى وصبر ع البلا هيروح النعيم ويفوز

يا بني الطريق محكمة مش مهيصة وكلام

وابن الطريق مفروز»

قالت: الله الله.

في اليوم التالي ودّعتني «مليكة» بالمطار، على أمل لقائي بعد شهور قليلة في القاهرة، لم أجد يومها إلا مفتاح شقة المنيل؛ لأتركه لها بنصف قلب وقلت:

- هذه نسخة من مفتاح بيتي، سأكون بانتظارك يا عرافتي السمراء.

قالت دامعةً وهي تردُّ لي الخاتم:

- سَلِّمْ لِياَ عْلَى مَصر وُعْلَى المنيل اللي تحبه.

وصلت القاهرة لأجد «رؤوف» و«ليلى» في انتظاري، قبّلتهما في سعادة بالغة، وسألني «رؤوف» ضاحكًا: كيف كانت أيامك في باريس يا فلاح إنت؟

-عال العال يا عم الحاج.

ثم أخرجت له العَقد، فضحك أكثر عندما علم أن العَقد الجديد قد زاد بنسبة ٥٠٪ عن العَقد السابق، وقال:

- يا جامد يا «كَحّال».

- لا والأجمد من كده إني أصريت إن المبلغ يكون كاش عشان التحويلات بتاخد وقت.

قالت «ليلى»:

- مجهزالك غدا مصري هيعجبك.. تلاقيك هفتان.

- باريس لا تعرف «الطشة» وانتي عارفة إن أنا طبيخيٍ.

- هتقولي؟

وعلى الغداء سألتني:

- مش عايز تكلم «فريدة» وترجعوا بقى؟

فتدخل «رؤوف» في حدة:

- بلاش السيرة دي يا «لولي» من فضلك.

قلت لها ببرود:

- أعطيت مفتاح شقتي لـ«مليكة».

ضحكت وقالت:

- تخيل لو فتحت الباب لقت «فريدة» في وشها.

وفي محاولة لتغيير الموضوع قال «رؤوف»: النهارده هنعمل الماسترنج للألبوم في ستديو ليلة(22) وخلال شهرين هننزل بالألبوم مع إجازة الصيف، الألبوم دا يكسَّر الدنيا يا «كَحَّال».. تسلم دماغك، تفاءلت باسم الاستديو، وقلت في سرِّي: كواتيني يا ليلة وفايتاني عليل على مين؟

قالت «ليلى»: ربنا يستر عليكم، وما تتسجنوش زي «عيسى الشرقاوي» وبابا.

قلت لها:

- فال الله ولا فالك يا شيخة، وعلى سيرة «عيسى» عايزين نروح نزوره ونسمَّعه الشغل، قالت ليلي وهي تصب الشاي وتضحك في خبث واضح:

- إنت لسه ماتوبتش من «عيسى».

- لا.. ولسه على كيفي ومغربي الهوى رسمي ومعايا «مليكة» شحمًا ولحمًا.

«الناس بيقولوا عليا كلام كتير وأنا ساكت

والجرح موجود وما له حدود وأنا ساكت»

٢٢

مرَّت الأيام سريعًا في اتجاه صدور الألبوم ولقاء «مليكة» الذي انتظرته على أحرَّ من الجمر، وكنت قد تقدمت بإجازة مفتوحة للوكالة، وتفرَّغت للكتابة، وتعاقدت مع دار «شرقيون» لإصدار أول ديوان شعري لي بعنوان: «القاهرة- باريس- كازابلانكا» رتبت لصدوره مع وجود «مليكة» في القاهرة، والذي تأكد بالفعل في الأسبوع الأخير من الشهر القادم.

بعد أيام صدر ألبوم جديد لـ«نديم» يحمل اسم «سيرة العيون»، التقطت منه بعض الأغاني التي كنت أسمعها في السيارات بصوت عالٍ على كورنيش المنيل، كان لهذا الألبوم وهج خاص جعل من «خالد الجارحي» الشاعر الأول بمصر، بعد أن قضى تمامًا على أحلام عودة «طه» إلى «نديم» مرة أخرى، وأوسع الهوة بينهما، كنت منشغلًا بمراجعة ديواني والدعاية لألبوم الفرقة الذي سيصدر خلال أيام، راهنًا على الألبوم أنا و«رؤوف» و«ليلى»، وقلنا وقتها النزول وسط الكبار يستحق المجازفة.

في المساء تلقيت مكالمةً من الفنان التشكيلي الذي كلّفته دار النشر بتصميم غلاف الديوان، وشرحت له الفكرة، وأعطيته رموزًا أردت أن يجسّدها في الغلاف كالشعر الكيرلي لفتاة الغلاف والخاتم وعقد مصنوع من أصداف البحر وبرج إيفيل، وقلت له أريده مبهجًا، ضحك الرجل وقتها وقال: صعّبت الأمر علي، قبلها كان تصميم غلاف الألبوم قد وصلنا منذ أيام من فرنسا؛ لنعتمده أنا و«رؤوف» الذي طلبت منه وضع إهداء خاص لمليكة، فقال: هذا أقل تقدير لخدماتها لنا في باريس.

صدر الألبوم بعد أيام؛ ليكون ضمن ألبومات الصيف، وتناولته الصحف مع ألبوم «نديم» وعدد من المطربين الآخرين كأحدث الإصدارات، قلت لـ«رؤوف» وأنا أمسك بإحدى الصحف: هذا اسمك يا ابن كامل بجوار اسم «نديم» في الصحف، وهذا مشروعك يناطح مشروعه، فلا تحزن يا ابن العم، (إن فاتك «الراوي» اتمرغ في ترابه)، قال «رؤوف»: في النهاية دا نصيب، ثم سألني نفسي أعرف ليه مش عايز تقابله تاني وتحقق حلمك القديم؟ إنت شاعر كبير يا «كَحّال»، قلت له: خليها لما ييجي وقتها، خصوصًا وإن «الجارحي» مش طايق يشوفني.

بعد أيام اتصلت «ليلى» تليفونيًا على «رؤوف» فجأة، ونحن في مكتبه، وتخبره بأن «مليكة» وصلت الآن إلى شقة المنيل، وتحاول الاتصال بي، لكن تليفوني كان مغلقًا، أخبرني «رؤوف»، فضحكث من أمر العرافة التي سبقت الزمن لتأتي قبل موعدها بأسبوع، وضحكث من أمر الشقة التي بالطبع ستراها «مليكة» كـ«زريبة»، وضحكت من «مليكة» نفسها التي حينما وصلت وجدتها ترتدي قميصًا لي بدا فضفاضًا عليها أكثر من، اللازم وهي تحاول ترتيب ما زعمت أنا أنه شقة، استقبلتني بلهفة طفل وجد أبويه بعد فراق، قلت لها:

- مجنونة أنت، لماذا لم تتصلي كي أستقبلك؟، ولماذا غيَّرتِ موعد رحلتك؟ أيعجبك أن تري الشقة بهذا المنظر؟

حكيث لها أنني كنت مشغولًا جدًّا في الفترة التي تلت رحلة باريس، واتصلت بي السيدة التي تقوم بتنظيف الشقة أكثر من مرة، لكنني كنت أتعلل بالسفر والانشغال. فقالت: أردت أن أفاجئك، أردت أن أجرب فكرة أن يكون معي مفتاح بيتك، وآوي إليه في أي وقت، وأردت أن أكون هنا، وأشارت إلى صدري، ثم سكتت قليلًا وقالت: تعالى إلى حضني أيها الفتى الشارد، أما الشقة أيها المهمل فستقوم «مليكة» بترتيبها الليلة قبل أن تنام، قلت لها وأنا مستسلم تمامًا

لحضنها: بنت مجانين أنت.

أنارت «مليكة» بنورها القاهرة كلها وليس المنيل فقط، أعادت للبيت الحزين بهجته، كانت تنزل كل صباح تشتري الورد من كشك الورد في أول المنيل عند كوبري الجامعة؛ لتضعه في «فازات» البيت، في الليفنج والسفرة والصالون، أعادت للمطبخ رونقه، وكان لطبخها المغربي شنات ورنات، شجّعتني لزيارة العديد من الأماكن كمسجد عمرو بن العاص والكنيسة المعلقة ومارجرجس والمتحف القبطي والكثير من الآثار الفاطمية، وكانت تقول: كيف تعيش يا «كَحّال» وحولك كل هذه الطاقات النورانية ولا تستقبلها في قلبك، اصطحبتها إلى مقامات السيدة نفيسة ومولانا الحسين والسيدة زينب، فقالت: نَعْرَفْهُمْ أكْثَرْ مَنَّكْ، تواصلت «بنت الذين» مع فرقة الرقص المسرحي الحديث في الأوبرا، وفاجأتني أنا و«ليلى» و«رؤوف» باشتراكها في أحد عروض الرقص الحديث، وقالت: سيكون هذا أول عرض لي في القاهرة مع مصريين، ترددت معها كثيرًا على البروفات، كانت تطير كالفراشة على المسرح، كنا نسير معًا بعد البروفات من الأوبرا إلى المنيل في رحلة يومية قالت عنها إنها أسعد أوقاتها، كنت أحكي لها حكاياتي، كانت تسمع وتجادل وتفند وتعلق أحيانًا بـ«سبعاوي» على طريقة «فريدة»، كنا نصل المنيل أحيانًا

عند دخول الفجر، قالت بعد عشاء دسم في مطعم محسن: بغيت نشرب شاي بالنعناع وشيشة، قلت لها مازحًا:

- ما شاء الله أنت لم ترحمي نفسك، ضحكت وقالت إن المشويات كاتشهي بزاف لدرجة لا تقاوم، وأشارت بيدها وهي تكاد أن تقع من الضحك من تعليقي على طريقتها في الأكل إلى كافيه الحصيرة على الكورنيش بشارع عبد العزيز آل سعود ونحن نتمشى: أجي نجلسوا هنا.

كان الجو خرافيًا والهواء صيفيًا منعشًا، جلسنا على طاولة في الشارع، قالت فجأة: واش كانت «فريدة» كاتجي معاك هنا؟

- لا كانت «بيتوتية».

- تعْرَفْ أني بْغِيث نْشُوفْهَا وُنَتْلاَقَ بِيهَا ونَتْكَلَّمْ مْعَاهَا.

سكتت قليلًا وقلت لها:

- دا جرح واتقفل مش عايز أفتحه تاني.

قالت معتذرة:

- سْمَحْ لِيَا كُل مَرَّة ننْسَى ونْفَكْرَكْ فِيهَا وَنْقَلَّبْ عْلِيكْ الْمَوَاجِعْ.

- ولا يهمّك.

قالت معتذرةً للمرة الثانية:

- بغيت نقول لك شي حاجة خبيتها عليك ليلة «سْكرك» في باريس.

- إيه؟

- ليلتها في الملهى دخلات بنت فرنسية في الثلاثينيات، جلسات قبالتنا في طاولة قريبة، كان باين عليها كتستنا صديق ليها، شفتي فيها نتا (بصيت عليها) وطولتي الشوفة، وبدأت الملامح ديالك كاتغير وبديتي كتكلم وتعصبتي بزاف.

قلت في دهشة:

- قلت لها إيه؟

- وصفتيها بالخيانة، وإنها بحال «جوزفين»، خانتك كيفما خانت «نابليون»، وتكلمتي على شي رسالة، وقلتي بأنك قطعتيها ورميتها في الزبالة، وصفتيها بالعاهرة والقاتلة الخسيسة، وتكلمتي على الخاتم وعقد الصدف، وبكيتي وترجيتيها ترجع، من بعدها قربتي من طاولتها، البنت تخلعات منك وخافت، ومن بعد ركعتي عند رجليها وبكيتي وأنتا كتطلب فيها ترجع لك، قلت ليها البيت من بعدها ولات كئيبة والحياة سودة.

بعدها تدخَّل أمن الملهى وخرجناك، واعتذرت أنا منو البنت لي تفهمات، حتى أنها قربات منك بزاف وكانت غادة تعانقك وهي كاتبكي على حالك.

- وإيه اللي حصل بعد كده؟

- وحنا في الطريق تكلمتي مع الشيفور وقلتي شي حجات غريبة في موضوعات مختالفة حتى وصلتك الأوتيل.

سألتها:

- خُفتِ مني؟

- لا.. مكنتيش عدواني، كنتي بحال طفل غاضب كايبكي من شدة الألم، ونعستي على كتفي بعد شوية، كانت عنيك كتسيل بالدموع، زي ما أنتي الآن. وأشارت إلى دموعي وقالت: «مروان» كان لازم تكلمتي معا «فريدة» وحاولتي ترجع لها مرة تانية.

قلت لها معتذرًا:

- آسف على ما حدث أكيد وضعتك في حرج.

قالت وهي تداعبني:

- معليش يا مداح، اجي نطلعو لشقة، مبغتيش تشوف ولدك؟ وأشارت بيدها إلى مكان الوشم، قلت لها محاولًا الابتسام:

- ولدي؟ على كدة أنتي في الشهر الخامس، ويتبقى لك أربعة شهور على الولادة.

- فِكْرَة زْوِينَه يْكُونْ لِيَا وْلِيِّدْ مَنَّكْ.

- لا، أرجوك، «كفاية من الدست مغرفة»(23) بيقولوا كدة عندنا في الفلاحين، كفاية «كَحّال» واحد، الحياة لا تحتمل نسخة ثانية من البؤس، قالت وهي تقبلني عند الباب: اجي يا بائس، بغيت ناكلك.

بعد أيام أقام لنا المركز الثقافي الفرنسي حفلًا لتدشين الألبوم، كان أكثر الحضور من الفرنسيين والأجانب، الذين اعتادوا حضور حفلات الفِرَق الجديدة، تلاه حفل آخر في فيلا «حمدي شريف» بالمعادي، والذي حضره عدد من الشخصيات العامة والنقاد والصحفيين والفنانين، وأعلنت «ليلى» خلاله عن صدور ديواني الأول أيضًا، وقامت بتوزيع نسخ منه على الحضور، وظلت «مليكة» ترقص محتضنةً الديوان طوال الحفل، وتقبّلني أمام الجميع.

شخص واحد من الحضور كان مجرد التفكير في وجوده أمرًا مزعجًا ومقبضًا لقلبي وروحي هو «خالد الجارحي» الذي همس لي عند البار: بأن المغربية سيدة ممتازة، وتعشق زوجها لدرجة العبادة، ثم ضحك ضحكته الصفراء وقال بتحدٍّ: شد حيلك.

قلت في نفسي: ما هذا الشخص السمج؟ كان الله في عون «طه» من هذه العقلية المدمرة، وتساءلت: كيف يجتمع في قلب واحد كل هذا الجمال الذي نسمعه في أغانيه، ونقرؤه في أشعاره وكل هذه الخسة التي تؤكدها تصرفاته تجاه الآخرين؟

لمحني من بعيد «حمدي شريف»، ثم اقترب وربت على كتفي وقال بصوت هادئ: لا تدع أحدًا يفسد فرحتك، استمتع مع صديقتك، واترك «خالد» الذي أعرف أنه ضايقك، ثم نظر إلى «مليكة» وهو يحتضنني وقال: عايز أفرح بيك قريب، الأحزان يا ابني لا تصنع مبدعين مهما كان صداها.

لم يكن من السهل أن أضع اسمي إلى جوار اسم امرأة أخرى في وثيقة زواج تربطني بها إلى حيث تشاء هي، أو أشاء أنا، فينهي أحدنا العلاقة، لينكسر قلب الآخر، صار الأمر بالنسبة لي أكثر تعقيدًا، تمنيت لو أننا عشنا هكذا طوال العمر دون التزام أو توثيق أو قيد، فلا حرج أن ينهي أحدنا العلاقة بلا ضغوط اجتماعية، ولا داعي لأن يحمل أحدنا لقبًا يجعل منه شخصًا منقوصًا أمام الآخرين، راجعت نفسي، وقلت: إن الأزمة ليست في الأوراق أو الاعتراف المجتمعي، ربما تكون

في انتهاء العلاقة بشكل قاسٍ، ومن طرف أنهاها داخله دون أن يعلن للآخر، ثم ضحكت من الفكرة كلها وسألت نفسي: هل أحببت «مليكة»؟ أم إن ما يحدث ما زال يدور في فلك الصداقة والاحتواء وترميم الجرح؟ أو إن هكذا عادةً تبدأ اللعبة؟

بعد أيام بدأ عرض «مليكة» الراقص «دونجوان» على المسرح الكبير بدار الأوبرا، والذي حضره جمهور كبير، وتألقت هي فيه، فكانت تعيش الحركة على المسرح، لا تؤديها فقط، كنت أتابع ملامح وجهها وهي في قمة التركيز بين الموسيقى والخط الدرامي وخط الحركة، كنت أرى بعيني انبهار الجمهور بها كل ليلة في نهاية العرض.

كتبت «مليكة» ورقة وعلّقتها في حجرتها بالمسرح في أول ليلة عرض، وقفت أقرأها وأنا في انتظار تغييرها لملابسها بعد العرض:

أرقص في الصباح لأتخلّص من ربكة خطواتي، التي أشعر وكأنها سجني الأبدي الذي أعيش فيه، وأنا حين أرقص أشعر بالطمأنينة وأعود بعدها كطفل وليد يشاكس الدنيا بأحلام وردية، هذا الصباح اشتقت للرقص بين يديك وفي أحضانك،

نهضت من فراشي، وحاولت الرقص لكنني فشلت، فجلست أبكي كبلهاء سقط منها حلقها الذهبي في سوق مزدحم، لكني عدت وقلت: في الليل سأرقص لك حتى تفيض شاعريتك وتبوح وتلهمني، فأنت مصدر إلهامي وطاقتي ونوري.

بعد العرض لمحث من بعيد وفي ظلام جراج الأوبرا شبح «خالد الجارحي» ومعه سيدة شابة، قلث: هذا الرجل أخطبوط، وله في كل بقعة ذراع، ما هالني وألجمني ليلتها أني شككت للحظة أن تكون السيدة التي معه «فريدة»، حاولت الاقتراب، لكنه أسرع في الخروج، وكأنما قد رآني في مرآة سيارته، ثم كذبت نفسي ليلتها، وقلت لا بد أنها خيالات، ولم أحدِّث «مليكة» بهذا الأمر.

تصادف ليلتها وجود «نديم الراوي» الذي شاهدناه في ساحة الأوبرا ليلًا يُجري التجارب مع مهندسي الصوت، كنت أتابعه من بعيد، قالت «مليكة»: بغيت نَمْشِي نْسَلَّمْ عْلِيهْ مع «ليلى» و«رؤوف»، قلت لها: حاسبي بس من نظراته، ومن عينيه الخضرا اللي بتلمع، فضحكت وقالت: تبغي نْجِيبُو مْعَايَا الشقة فِ الْمَنْيَلْ؟ قلت لها ضاحكًا: وما له مصلحة برضه.

جلست في انتظارهم وحدي بالهناجر، وأنا أتابع من بعيد ذلك الشخص الذي يقف، ولا يريد لأحد أن يراه، وقف يتأمل «نديم الراوي» على المسرح وهو يسجِّل كل حركة وكل خطوة وإيماءة بعين أم تتابع طفلها المحرومة منه، والتي تشاهده كل يوم ينمو بعيدًا عنها، حاولت الاقتراب منه؛ للتأكد، وفعلًا صدق حدسي.. إنه هو «طه القاضي» ذلك اللغز المحير.

عادوا بعد أن سلّموا عليه، فهتفت «مليكة» التي حرصت على السلام عليه وتقبيله: هَدَاكْ الإِنْسان ظْرَيِّفْ وُمَتْوَاضَعْ يا كَحَّال مِنْ حَقَّكْ تَحبه. وقال «رؤوف»: إديته نسخة من الألبوم، فقال: هسمع، وقال: لازم تحضروا الحفلة، اقترحت «ليلى» أن نشتري تذاكر الحفل من الآن، فمن الصعب غدًا أن نجد تذاكر، فاجأتهم ليلتها بالتذاكر، وقد اشتريتها قبل العرض، قالت «مليكة»: نمشيو إذًا إلى الحسين، ونسهروا حتى الصباح، في الطريق إلى الحسين ترددت في أن أحكي لهم ما شاهدت، وتذكرت «فريدة» وأنا أطالع صفحة النيل والمركب السياحي الذي قمنا فيه بالاحتفال بزفافنا، نبّهنا «رؤوف» فجأة على كوبري قصر النيل إلى أن «نديم» في السيارة التي بجوارنا، كان يقود سيارته المرسيدس فضية اللون بنفسه مرتديًا النظارة على غير العادة، صرخت «ليلى»

و«مليكة» بصوت عالٍ: «نديم»، «نديم»، قال «رؤوف»: ليته يتبعنا إلى الحسين، ثم ضحكوا عندما انحنى بسيارته في طريق مختلف.

في الحسين كنت لا أزال مأخوذًا برؤية «خالد» و«القاضي» و«نديم» ذلك الثلاثي في ليلة واحدة، حتى اختارت «مليكة» أن نجلس على مقهى بعينه اسمه «ولي النعم» ذي طراز فاطمي، وهو قريب جدًّا من المشهد الحسيني، ومن الفيشاوي وخان الخليلي، نظر لي «رؤوف» وضحكنا، فزاد الفضول عند «مليكة» و«ليلى»: لماذا تضحكان؟ ظللنا هكذا طوال الليل نضحك من اختيار «مليكة» لهذا المقهى بالذات دون غيره، قبل أن نرحل وقرب دخول الفجر طلبت منهم أن أذهب للزيارة والصلاة في المسجد الحسيني، وهناك جلست للدعاء لجدي «سيد الكحّال»، وتذكرت وصيته بأن آتي إلى هنا دومًا وأدعو له، استندت برأسي على المقام، وتذكرت «فريدة» وهي ممسكة بمسبحة جدي الخضراء، وهي تقول: أشعر براحة عندما أبدأ في التسبيح عليها.

خرجت بعد قليل راضي النفس ممتنًّا لهذه الزيارة السريعة، وما خلفته في النفس من طاقة حلوة، اشتريت «عروسة» لمليكة في طريق عودتي إليهم، كالتي اشتراها جدي لـ«ريما»

ليصالحني بها، قالت «مليكة» حين وصلنا شقة المنيل:

-غلاَش كَنْتُوا تضَّحكُو فِي الْقَهْوة؟

قلت لها:

- تديني كام وأنا أقولك؟

قبّلتني على خدي وقالت:

- هذه تكفي.

- أنا من يحدد إن كانت تكفي أم لا؟

- وحياة سيدي الكَحّال والحسين كمان لتقول.

- يوجد بالمصادفة مقهى مقابل لبيت «فريدة» بالزيتون، يحمل اسم «ولي النعم»، وكان «رؤوف» ينتظرني به حينما أكون عندها بالبيت، وكنت أنا أنتظرها فيه طويلًا أيام الدراسة، خاصةً في الإجازات حيث أفتقدها، من أجل نيل نظرة أو طلة، وقتها كان التليفون وحده لا يكفي في أوقات

التضييق عليها من قبل والدها، ومنعها من الخروج وحدها.

- «فريدة» تاني أمروان؟

انصرفث فجأة، وقد تبدلت ملامحها في اتجاه حجرة النوم، وتوجهت أنا إلى البلكونة متخذًا مقعدي المعتاد، وقاصدًا هواء النيل، قلت: هل ضايقتها بذكري لفريدة؟ وهل كان كل ما حدث الليلة من ظهور لـ«خالد» وتلك السيدة الشبح، ثم «طه» بألغازه ثم «نديم» ثم المقهى واسمه الغريب صدفة أم إن «فريدة» وروحها تحيطان بي؟ ماذا لو كانت هذه السيدة فعلًا «فريدة»؟ وهل علمت من «خالد» بأمر «مليكة»، التي احتلّت مساحة كبرى في حياتي وبيتي، وأصبحت تناديني «مروان» بدلًا من «كَحّال»؟

شعرت في هذه الليلة أنى في حاجة إلى «عيسى الشرقاوي»، أريد أن ألتقيه، علّه يفسر لي ما رأيت في دار الأوبرا، اليوم، لا بد أن أذهب إليه غدًا.

بعد قليل دخلت إلى «مليكة» ووجدتها منزوية في السرير دامعة العين، جسوت بجوارها، وقبّلت عينيها ووجهها وأنفها وذقنها، وقلت لها: آسف، قالت: لا تعتذر، قلت لها: لم أقصد

مضايقتك، لكن الأمور صارت هكذا في اتجاه الضحك والتفاهة، آسف مرة ثانية، ثم قلت: عندي لك مفاجأة، قالت بدموع مكبوتة: لا أريد مفاجأتك، حايلتها مدغدغًا بطنها وموضع الوشم أسفل صدرها، حتى خرجت منها ضحكة صاغرة، فقلت: ما رأيك بهذه «العروسة»، هي هدية لكِ من جدي «سيد الكَحّال»، هو من اشتراها لك منذ سنين، وقد ذهبت اليوم لآخذها لك من عند ذلك البائع الذي لم يتغير ولم تتغير بضاعته، تأملت «مليكة» العروسة وقالت: مقبولة منه، لكني ما زلت غاضبة منك، قلت لها: والأمر الثاني أننا سنذهب بعد حفل «نديم» إلى البلد لزيارة أمي، اعتدلت قليلًا، وقالت في غنج مغوٍ: لاَ سِيزْ غير وخْدَكْ منمشيش مْعَاكْ، نظرت إليها وقلت: لا هتروحي عشان أمي نفسها تشوفك، وفيه حاجة كمان، ثم مددت يدي إلى درج الكومودينو بجانبي، وأخرجت منه خاتم «حالي كَحّالك» ثم نزعته من سلسلتي الفضية، وأمسكت يدها وألبستها الخاتم، وأنا أحدق في عينيها، وقلت: لا أحد يستحق هذا الخاتم سواكِ، انفرج ثغرها عن ابتسامة وقالت: لا، كاين حد يستحقه أكثر، قلت: مين؟ قالت وهي تريد أن تشعل جذوة فضولي ردًا على ضحكنا أنا و«رؤوف» في المقهى: بكرة هتعرف، ثم قالت في عفوية أفتقدها: تعالى في حضني أيها الجرو الكبير.

في الصباح تركتها نائمة، وهاتفت «عيسى» الذي قال في ترحاب شديد أعرفه: هستناك تفطر معايا، خرجت بعد أن تركت لها رسالة على السفرة.

وصلت إلى بيت «عيسى»، فاستقبلني بابتسامة حلوة يرفل في جلبابه البلدي الخفيف قائلًا: غبت عني كتير، إنت فين يا ولد؟

- كنت أمرّ بظروف عائلية صعبة.

فاجأني كعادته وقال: موضوع طلاقك إنت و«فريدة»؟ ثم قال: لا تندهش أنا أتابع أخبارك من «ليلى شريف».

- أعرف أنها صديقتك هي و«رؤوف».

- صديقتي وبنتي.

حكيث له ما شاهدته أمس في الأوبرا، فاجأني «عيسى» بوجه حزين يكابد غضبة مكبوتة طلّت من عينيه وقال: إن «طه» بهذه الأفعال وصل إلى حد الجنون أو الانتحار، ولا بد من فعل شيء، ثم قام وقال: تعالَ هنروح لـ«ليديا» لازم

نعمل حاجة.

في الطريق حكيت له عن ظهور «خالد» في حفل «حمدي شريف» ومضايقته لي، وظهوره مع من شككت أنها «فريدة» أمس، فقال جازًا على أسنانه: الوسخ دا هيحطك في دماغه إنت كمان؟

بعد قليل وصلنا إلى الجيزة، حيث بيت «ليديا» العريق، استقبلتنا خادمتها وقالت: تفضلا في الصالون، كانت زيارتنا صباحية ومفاجئة، جلست أطالع الصالون الذي استقبل مواهب شعرية وأدبية فذة من شتى التيارات الفكرية والسياسية في مطلع السبعينات، علاوةً على صوت «نديم» وجيله بالكامل والمعارضين لوجودهم، كان ذلك باديًا في الصور المنتشرة على جدران الصالون، توقفت طويلًا أمام صورة جمعت «نديم» و«طه» و«ليديا» بصحبة «خالد الجارحي» في شبابهم المبكر، وصورة أخرى لـ«نديم» و«طه» معًا، وصورة ثالثة لزفاف «طه» و«ليديا»، قلت لـ«عيسى» مشاكسًا: أين أنت من هذه الصور يا عمنا؟ فقال: صورتي هتلاقيها مع الناس على القهوة، أو مع طلبة الجامعة، أو في المعتقلات السياسية.

قاطعتنا «ليديا» بدخولها المفاجئ، وابتسامتها القلقة: خير يا «عيسى»، «طه» حصل منه حاجة؟ حكى لها «عيسى» الحكاية، فقالت السيدة الأنيقة: لا بد وأن نذهب إلى «نديم»، أنا مش هسكت على الحرب اللي دايرة على «طه» دي، والله ما هسكت.

اصطحبتنا «ليديا» في سيارتها الأنيقة إلى حي الزمالك، دخلنا إلى حجرة الاستقبال في بيت «نديم»، كان لا يزال نائمًا، لكنه رحّب بزيارة أصدقائه القدامى، دخل علينا بعد أن أخذنا قهوتنا، بابتسامة يشوبها الحذر، قالت «ليديا» بصوت مرتفع: العيش والملح والبدايات واضح إن مالهمش عند اللي زيك معنى، داير إنت و«خالد» الزفت تشوّهوا الراجل اللي كل ذنبه إنه حبك وآمن بموهبتك، وعمل منك علامة في تاريخ الفن والشهرة.

أدرك «نديم» بخبرته أنه أمام قنبلة موقوتة، وحتمًا ستنفجر في وجهه، وتعامل بحكمة وقال في هدوء: ممكن تهدي يا «ليديا» عشان أقدر أفهم فيه إيه؟

قالت: اللي أنت بتعمله إنت و«خالد» مع «طه»، وبتتجاهلوا تاريخه وتمسحوه بأستيكة، إنتو السبب في انهياره وتعبه،

بتعملوا كل دا ليه؟ عايز تقول إيه؟ إنه مالوش أي فضل عليك، وإنك زي ما نجحت معاه نجحت مع غيره؟ أنا هقولك كلمة واحدة: التاريخ هيقول مين هو «طه القاضي» وإيه اللي عمله في تاريخ الغنا في مصر، مش معاك إنت بس من قبلك ومع اللي هييجوا بعدك، أما إنت فهيجيلك يوم تعرف فيه نتيجة اللي إنت بتعمله، لما تلاقي نفسك ما بقاش لك قيمة غير في شوية الغنا اللي عملهم «طه»، واليوم دا قرب خلاص يا «نديم»، أنا مش هتكلم تاني، أنا همشي وهسيب «عيسى» يمكن يفهمك غلطك.

غادرتنا «ليديا» بعد أن نفضت قلوع غضبها في وجه «نديم» الذي جلس على الكنبة كالفرُّوج المبتل، فقال «عيسى»: اللي بيحصل مع «طه» سواء منك أو من «خالد» هيوصلنا لكارثة يا «نديم»، هتدفع تمنها إنت وهو، أنا باحذرك بحق العيش والملح والنجاح المشترك تبطلوا اللي بتعملوه، إنتوا بتقتلوا «طه» بدم بارد.

حاول «نديم» الدفاع عن نفسه، مبررًا ذلك بأن «طه» هو اللي عمل في نفسه كدة، وإن انهياره دا هو المسؤول عنه وحده، وإن المشروع في البداية مكانش قاصر عليه وحده، وإن دخول «الجارحي» على الخط مش معناه إني اتخليت

عن «طه»، وعمومًا «طه» انتهى ومعدش عنده اللي يقدمه، أنا مضطر أستأذن، والبيت بيتكم أنا عندي حفلة مهمة بالليل.

وقف «عيسى» بغضب وقال: البيت مش بيتنا، ومن النهارده مفيش بينا وبينك أي عهد، أما «طه» فأنا هعرف أوقفه على رجليه تاني، وهيرجع «طه القاضي» اللي عمل تاريخ في الفن محدش هينساه.

خرجنا من الزمالك بغضب عارم، وأوصلني «عيسى» إلى المنيل بالتاكسي، وكان صامتًا لا يتكلم قلت له: اهدى وكله هيبقى تمام، هكلمك بالليل أتطمن عليك.

استقبلتني «مليكة» وقالت بلهفة: قلقت عليك.

قلت لها: كان فيه اجتماع لازم أحضره الصبح، أخبرتني بأنها ستخرج إلى «ليلى» للذهاب معًا لشراء بعض الاحتياجات، ودّعتها وقلت: وأنا سأنام قليلًا حتى تعودي.

دخلت إلى حجرتي، وكلي ألم لما توصل إليه الحال في موضوع «طه»، تعقد الأمر تمامًا، وبدا واضحًا في عيون «نديم» أن الأمر لا يعنيه، وما يهمه فقط هو نفسه ونجاحه

والبقاء على القمة، لكن شيئًا ما حدث أربك يومي وأرقني، لقد وجدت رسالة «فريدة» على الكومودينو الذي يجاور سريري، وفهمت أن «مليكة» قد عثرت عليها، وقرأتها، وأن خروجها مع «ليلى» يمكن أن يكون هربًا من مواجهتي، وأن قراءتها للرسالة ربما تُشعرها بالذنب؛ لأن رسالتها كانت سببًا في خراب هذه العلاقة، لماذا لم أخفِها أو أقطّعها، ترى ماذا يدور الآن بذهنك يا «مليكة» يا عرافتي السمراء؟

جلست على نارٍ أعدُّ الساعات التي غابت فيها «مليكة»، ولم أرِد أن أتحدث هاتفيًا إليها أو إلى «ليلى»؛ عسى أن يكون الموضوع أبسط مما أتخيل، لكنني كنت مدركًا تمامًا أن «مليكة» قد قرأت تلك الرسالة، وأنها الآن واقعة في دائرة من لوم نفسها ولومي أنا أيضًا.

تأخرت «مليكة» حتى دخل الليل، هاتفني «رؤوف» بأنها لديهم في البيت، وأنهم سيتحركون سويًا للمنيل؛ استعدادًا لحضور الحفل.

انتظرت ساعةً تاليةً لوصولهم للمنيل، كانت تقريبًا من أصعب الساعات التي مرّت عليّ، ثم دقّ جرس الباب، فدخلت «مليكة» وقبّلتني بحنوّها العادي، وبدا الأمر كأنه لم

يحدث شيء، ثم دخلت «ليلى» و«رؤوف» الذي يحمل بعض متعلقات اشترتها «مليكة»، جلس الجميع، فقال «رؤوف»: يلا البسوا عشان نلحق الحفلة.

كنت مرهقًا مما حدث طوال اليوم، فداعبني «رؤوف»: ما لك يا ابني عامل كده ليه؟ وكان يقصد ذلك الوجوم الذي أصابني والقلق الذي ارتسم على وجهي، قلت له: لم أنم ليلة أمس، وخرجت مبكرًا للقاء «عيسى»، وعدتُ وجلست أنتظركم.

تفاديت أن تجمعني الحجرة بـ«مليكة» في أول الأمر، حتى خرجت في كامل أناقتها وقالت: مش هتقوم تلبس يا «كَحّال»؟ أقلقتني طريقة نطقها لـ«كَحّال» هذه، بعد أن تعودت على «مروان» منها في الأيام الأخيرة، فقمت وأنا أردد عسى أن يكون خيرًا، ما أربكني أن الرسالة عادت إلى مكانها داخل «الكومودينو» مرة أخرى، ففهمت أن «مليكة» أرادت أن تؤكد لي أن الموضوع ليس صدفة، وأنها فعلًا اطّلعت عليها.

كان عليّ أن أتحدث إليها مباشرة، فناديتها وقلت بهدوء: آسف لموضوع الرسالة، أنا فعلًا نسيت إنها هنا تمامًا، قالت: لا

عليك، إن كان هناك أسف، فأنا الآسفة لكل ما حدث.

قلت محاولًا أن أخفف من حدة الموقف: ما حدث قدر لا أحد فينا أراد شيئًا، احتضنتها برفق وقلت لها راجيًا: إن الأمر لا يستحق أي لوم؛ فقد انتهى كل شيء، قالت: لا عليك.

تحركنا من المنيل إلى الأوبرا لحضور الحفل في الساحة الخارجية كان الجو صيفيًا مشبعًا بالرطوبة لولا مكيف سيارة «رؤوف» الذي رحمنا منها لرجوتهم في العودة إلى المنيل مرة ثانية، كان الجميع في السيارة صامتين، حتى أدار «رؤوف» كوكتيل من أغاني «نديم» القديمة، دارت في مخيلتي أحداث اليوم وأمس، وأنا أطالع في وجوه السائرين على أقدمهم في الشوارع المحيطة بحثًا عن وجه «طه» أو «ليديا» أو «عيسى» الذي أقسم أن الموضوع لا بد أن يتوقف عند هذا الحد.

قال «رؤوف»: تعالوا نركن العربية في الشيراتون ونطلع نشرب حاجة، ولما الحفلة تبدأ هنعرف من الصوت.

دخلنا إلى الفندق وما زال الصمت يخيم على الوجوه، حاولت الاقتراب من «ليلى»، وسؤالها عن أي شيء يكون قد

حدث في ساعات تسوقهم، قالت: أبدًا لم يحدث شيء، في تلك اللحظة قالت «مليكة» التي أخفيت عنها ما دار طوال اليوم:

- ماتشربش غادي تفضحنا هنا، بحال فضيحتك في باريس.

قلت لها محاولًا الخروج من ضيق الموقف الذي نشهده:

- سأحاول أن أكون «جدعًا» هذه الليلة، ولن أفضحك، توالت الكؤوس ليلتها، لكني لم أسكر، بينما سرى في جسدي خدر كنت من داخلي أنشده، وأنا أتمتم من شعر الحلاج: «كفاك بأن الصحو أوجد كربتي، فكيف بحال السكر والسكر أجدر، فحالك لي حالان صحو وسكرة، فما زلت في حاليَّ أصحو وأسكر».

قالت «مليكة»:

- أخيرًا سأحضر حفلًا لـ«نديم الراوي» وسط مجانينه.

بينما كان زحام الجمهور حاشدًا عند مدخل الأوبرا من ناحية كوبري الجلاء، فعلَّقت:

- هذا لا يحدث حتى في باريس مع أكبر النجوم.

قلت لها:

- إن حفلات «نديم» تتسبب في غلق الشوارع المحيطة بالأوبرا حتى الصباح، حيث تتوالى الحشود من «العزب والكفور» المجاورة.

ردّ «رؤوف» ضاحكًا: عزب وكفور إيه يا فلاح أنت!

قالت «مليكة» التي أدركت بفطرتها ما أعانيه:

- أحب مصر جدًا، هذا بلد عظيم.

فردّت «ليلى»:

- وهذا البلد يحبك وأهله يحبونك يا «مليكة» يا جميلة الجميلات.

قلت وأنا أطالع وجه «مليكة» الباسم:

- هذا لا يحدث حتى في باريس مع أكبر النجوم.

قلت لها:

- إن حفلات «نديم» تتسبب في غلق الشوارع المحيطة بالأوبرا حتى الصباح، حيث تتوالى الحشود من «العزب والكفور» المجاورة.

ردَّ «رؤوف» ضاحكًا: عزب وكفور إيه يا فلاح أنت!

قالت «مليكة» التي أدركت بفطرتها ما أعانيه:

- أحب مصر جدًا، هذا بلد عظيم.

فردَّت «ليلى»:

- وهذا البلد يحبك وأهله يحبونك يا «مليكة» يا جميلة الجميلات.

قلت وأنا أطالع وجه «مليكة» الباسم:

- جميلة جميلات فرنسا.

قبضت على يدي بقوة وقالت بصوت خافت:

- المغرب يا خال.

جلست أحدِّق في «مليكة» بشعرها الكيرلي الساحر وعينيها السوداوين اللامعتين، وأنفها الدقيق وقوامها الممشوق، تجلس بجانبي في ثوب طويل من الكتان الأبيض عاري الكتفين، محاولًا في تلك الليلة أن أقبض على بعض جوانب الشبه بينها وبين «ريما»، وأنا أردِّد بصوت خافت: هتلاقيني في العيون اللي بتحبك والقلوب اللي بتشيلك جواها.

بعد قليل توجَّهنا لساحة الحفل، سرنا بصحبة «رؤوف» و«ليلى» وسط الجمهور، حتى وصلنا قرب المسرح قال «رؤوف»: هنقف هنا عشان نبقى قريبين منه، وكمان من هنا هنسمع أوضح.

كان الدراويش ذوو العمائم الخضراء قد أحضروا لي كرسيًّا مذهبًا، فجلست أمام «الصواف» قرب المسرح في الساحة

المفروشة بالحصير، وكانت «مليكة» بجانبي بثوبها الأبيض وهو يغني:

«محمّلني حمايل كتيرة (يابا كَحّال) ورغم الحمل ناكريني».

غمزتني «مليكة» تحاول تنبيهي بأن «نديم» قد «ركب» المسرح، وبدأ الجمهور يرقص في فرح على أنغام فرقته، رغم حرارة الجو ورطوبته، وكنت وحدي أغني لـ«مليكة» التي ترقص بين ذراعي: «مجذوب وقلبه اتصل ما لكُم بقى وما له

سيبوا اللي اتصل قد وصل خلوه على حاله»

غنى «نديم» بعدها من أغاني «خالد الجارحي» الجديدة، نظرت لـ«رؤوف»، فمدّت «ليلى» يدها نحوي تربت على ظهري بحنو، فقلت: «محمّلني حمايل كتيرة ورغم الحمل ناكريني».

سألت «مليكة» وهي تحاول صرف ذهني عن الربط بين الأغنية وموضوع رسالة «فريدة»: «مروان» تفتكر «نديم»

ممكن يشوفنا من هنا؟

قلت لها: «نديم الراوي» في النور، واللي في النور مايشوفش اللي في الضلمة.

قالت ممسكةً بوجنتي كطفل صغير: يا أخي والله زاهد إنت يا «كَحّال».

ظهر «الصواف» أمام عيني من جديد يغني، وقد اشتعلت موسيقى الذكر:

«بحثت شرق البلد والغرب عن عطار

عشان أجيب الدوا ولا الصبر للمحتار

أروح لمين يا أبا يا كَحّال؟»

قالت مليكة: هذا الرجل أسطورة يا «كَحّال»، أشار إليّ «يونس الصواف» وقال:

«اسمع يا هذا

الحب بحر غويط واسع مالهش قرار

بيحير العاشقين ويغرق بنات الدار»

غنى «نديم» أغنيته التالية، فعلق «رؤوف»: هذه من أغاني ألبومه الجديد، وقالت «ليلى»: الأغنية دي جديدة كفكرة كمان ما عتقدش إن حد قال الكلام دا قبل كدة، برافو يا «جارحي» والله، ثم تلاها بـ«وعد قديم» التي استقبلها الجمهور بحفاوة شديدة، قلت لـ«رؤوف» وأنا أنظر لـ«الصواف» الذي يتراءى لي: الأغنية اتكتبت عشاني، ثم ضحكت وقلت: أو عشان تعذبني.

سأل «رؤوف» «مليكة»: هو «كَحّال» ما له؟ قالت بمصرية: كويس، سيبه، قلت لـ«رؤوف»: «فحالاك لي حالان صحوٌ وسكرةٌ، فلا زلت في حاليَّ أصحو وأسكر».

وكان «يونس الصواف» قد انتقل في طَبْقِة الذكر إلى:

«مدارس الحب، مدارس التقى، مدارس الصفا، مدارس النور، فتحوها رجال أنوار، مدرس المادة فيها الحبيب النبي السيد المختار، والرب «ناظر» وتلاميذها من الأبرار، ودخلت

أنا المدرسة حامد شاكر فاكر ذاكر إلى ربي واحد مقتدر قهار، دول جابولي كتاب الحساب وقالولي إيه تريد يا مُريد من العباد تختار؟ قلت لهم اختار رؤية حضرة الناظر، قالوا لي: ناجح والنبي ناجح، لكن شرطًا تصون الأسرار، مشيت على بحر الجلالة الجلالة قابلتني السيدة الرئيسة وقالت لي: دا أنا «بحبك» قلت لها: دا أنا مداح النبي لا بصوم ولا بصلي، قالت لي شرط الأمارة يا مُريد نجاك من النار، دول عايروني وقالولي بابا الكَحّال لسه صغار، ليه يعايروني وهو جليس النبي يوم دخول الغار، والورد فتح كرامة للنبي المختار، وسيدي الكَحّال وبابا الهلباوي ينادوا من كل دار دار، من كان ضمينه النبي ما تمس جسده النار».

هدأت الموسيقى مجددًا بعد طَبْقِة الذكر في اتجاه جديد بدأت بصولو على الكولة، يرافقه العود، انتبهت لنظرة «يونس الصواف» وقتها إلى الجمهور، وكأنه يختار من بينهم من سيغني له مواله القادم، وظل هكذا محدقًا فيهم بينما العازفون يسلطنون له الدخول قال «رؤوف»: فيه حاجة غريبة هو «نديم» مابيغنيش ليه؟ أعادت الفرقة السلطنة مرة أخرى استعدادًا لدخوله، لكنه لم يدخل، ثم فجأة أشار إليهم بأنه غير قادر على الغناء.

قال بعض الدراويش الذين يتهامسون بجانبي فيما بينهم إن الشيخ صوته اتحبس عشان مرضيش يعمل ليلة سيدي «الكَحّال»، وفضّل عليها ليلة تانية بتاعة ناس أغنيا هيدفعوله أكتر.

سمعت صوتًا لأحدهم يقول في خشوع: على الشيخ إذًا أن يعتذر في المقام حتى يعود إليه صوته.

قال «رؤوف»: إخص الليلة باظت، واستمرَّ هتاف الجمهور حتى يعود «نديم» إلى المسرح، إلى أن صعد مدير أعماله للاعتذار، وقال: إن الأستاذ تعب فجأة، وهو في طريقه للمستشفى، وإن شاء الله يرجع بالسلامة، ونعمل الحفلة مكررًا، والدخول بنفس التذاكر، وقريب جدًّا هنعلن عن دا.

أظلمت أنوار المسرح الفخم فجأة، وانسحب الجمهور، وخيَّمت حالة من الحزن على الليلة، بكت وقتها «مليكة» وقالت: معندي زهر(24)، قلت وأنا أحتضنها: بالعكس الحظ كله عشانك، وقلت في نفسي: إن زيارة الصباح هي بلا شك وراء ذلك الحدث الكبير، ترقبت من بعيد بعض أفراد الفرقة الذين نزلوا لتهدئة الجماهير، وإرسال رسائل إيجابية ومطمئنة حول «نديم» الأسطورة كما يحلو لجمهوره أن

يلقبوه.

قالت «مليكة»: بغيت نمشي لدار، قلت لها: لا تعالى معي نتمشى قليلًا في وسط البلد، قال «رؤوف»: سنتجه نحن إلى المعادي، محاولًا هو و«ليلى» الاعتذار لـ«مليكة» عن سوء الحظ الذي صادف حفلتها الأولى لـ«نديم»، ودعناهما ومشينا مع العابرين لكوبري قصر النيل في اتجاه ميدان التحرير.

كان الصمت هو بطل مشهدي مع «مليكة»، فقد كانت الأحداث كثيرة ومترابطة وشديدة التشابك، وكنت أنا في غاية الإرهاق، قلت في نفسي ويدي تحاول أن تمسك يدها: لماذا لا أتكلم معها؟ وهل يكفي اعتذاري؟ لا بد أن «مليكة» الآن في قمة التعب، وهي تحاول أن تخفي كل ذلك حتى لا تُشعرني بكسر خاطرها، قلت لها: هاخدك النادي اليوناني نقعد شوية، ونتعشى لحد ما وسط البلد تروق من زحمة الحفلة، أومأت برأسها بالموافقة، صعدنا إلى النادي، ولم أجد لا «ليديا» ولا «عيسى» كما تمنَّيت.

هاتفت «عيسى» ونقلت له الخبر قال: عرفت من نشرة الأخبار، قلت: هو اللي حصل الصبح أثَّر عليه؟ قال: مؤكد، ولو عرفت حاجة جديدة هكلمك.

قلت لـ«مليكة»، محاولًا فتح موضوع الرسالة: ماتزعليش،
قالت: عفاك ممكن تطلب لعشا باش نمشي.

لأول مرة أشعر أنني قد جرحت كبرياء «مليكة» وأحرجتها، رغم أني لم أقصد ذلك على الإطلاق، كل ما حدث رتَّبه القدر، الرسالة كانت قدرًا، إهداء «عيسى» كان قدرًا، لقائي الثاني بـ«مليكة» في مكتبي كان قدرًا، فقد حاولت التهرُّب من لقائها، هل كان عليَّ أن أخبرها وقتها أن رسالتها هي ما تسبب في خروج «فريدة» من حياتي؟ هل كان عليّ أن أبدأ حواري معها -بعد أن أجزمت أن «فريدة» قد خرجت من حياتي ولن تعود- بتوبيخ أو لوم أو بإخبارها بأن رسالتها هي التي تسببت في كل هذا. لم أترك الرسالة بدرج الكومودينو عنوةً، لكن هذا ما حدث، نسيتها أو أهملتها أو لرغبة مكبوتة بعدم قراءتها ثانية؛ حتى لا يأخذني أي تعاطف أو ضعف، فضاعت وسط أشيائي ومتعلقاتي كورقة مهملة أسقطتها عن عمد، فكيف بعد كل هذا أن تفهم «مليكة» ما يدور برأسي، وهي في هذه الحالة المتصلبة، هاربةً من سماع أية تفسيرات أو مبررات للموقف المؤسف الذي نمر به.

تناولنا عشاءً بغير شهية، ثم نزلنا سريعًا إلى شارع الأنتيكخانة، كان الجو قد بدأ في إرسال بعض ألطافه الليلية

مع نسائم الهواء البارد الذي بدأ يتحرك حولنا، كنا نسير بقرب ممر الأفترآيت، ثم فجأة خرج علينا شخص يطلب المساعدة، قال بتعب بالغ: يا أستاذ يا اللي ماشي، محتاج خمسة جنيه بس عشان أروح، نسيت فلوسي في البيت.

طالعت وجهه جيدًا.. إنه هو، «طه القاضي» قلت له بهدوء:

- تعالَ يا أستاذ أنا هروحك، ما تقلقش.

فقال بصوت يعلوه الوهن:

- إنت تعرفني؟

قلت ودمعة تفر من عيني:

- أيوه وبحبك أوي، هوصلك لمدام «ليديا».

نظر لي نظرة لا تُنسى، ثم أغمض عينه وهو في حضني.

أوقفنا أول تاكسي وقلت لـ«مليكة»: هوصلك وبعدين أوصل الأستاذ، أنا عارف بيته، قالت «مليكة» التي أعرفها

جيدًا: لا غاده نجي معاك.

وصلنا إلى بيت «ليديا» في الجيزة، وكان «طه» يستند عليّ كليًا أنا و«مليكة» من فرط الإعياء، انتظرنا أمام الباب حتى فتحت «ليديا» لنا بنفسها، وقد بدا عليها الاندهاش من وجودي لمرة ثانية في المشهد، طمأنتها عليه، وقلت لها هو بخير لا تقلقي، قالت «ليديا»: اتفضلوا ادخلوا، قدّمت لها «مليكة»، أشارت بيدها إلى حجرته، أدخلناه وعدنا إلى الصالون، قلت في نفسي: هذا قدر جديد لم أكن أحسبه، ما الذي تخبئه لي هذه الليلة الطويلة؟

خرجت إلينا «ليديا» التي قالت: إنتم كنتم في الحفلة؟

قلت لها:

- أيوه، هو «عيسى» اتصل؟

- لا أنا اللي اتصلت بعد ما سمعت الأخبار، يبدو أننا ضغطنا على «نديم» الصبح.

- يستاهل.

قلت لـ«مليكة» التي حتى الآن يلتبس عليها الموقف، وفي عينها السمراوين ألف سؤال: سأحكي لكِ تفاصيل الحكاية كلها، المهم أن نطمئن على الأستاذ وعلى صحته، ثم طلبت من «ليديا» أن تسمح لنا بأن نطمئن عليه أنا و«مليكة» و«عيسى» غدًا قبل أن يخرج كعادته إلى المقهى.

ردَّت وهي تبحث في هاتفها عن رقم طبيب الأسرة لاستدعائه: في انتظاركم.

- تحبي نستنى معاكي؟

- مفيش داعي، هانتظركم بكرة مع «عيسى». ثم نظرت وقالت لـ«مليكة»: شرفتي.

خرجنا إلى الشارع، فأشرت بيدي لـ«مليكة» وقلت لها: انظري إلى هذه البناية العالية التي على الشاطئ الآخر من النيل قالت: ما لها؟ قلت لها: هذه عمارتنا بالمنيل، ثم حكيت لها كل ما حدث في هذا اليوم، وأني أتيت إلى هنا في الصباح لمقابلة «ليديا» أنا و«عيسى الشرقاوي»؛ للاطمئنان على «طه» زوجها الذي أوصلناه توًّا، وهو الشاعر الذي كتب معظم بل وأهم أغاني «نديم»، وحدث أن ثارت «ليديا»،

وذهبنا برفقتها إلى «نديم» في بيته بالزمالك، وهناك حمَّلته ليديا و«عيسى» نتائج كل ما أصاب «طه» من اكتئاب أرداه مريضًا وحوَّله إلى هذه الكائن الذي وجدناه في وسط البلد، قالت «مليكة» بتعجُّب كبير: هاد شي كله طرا اليوم ومقلتليش!

- وانتي كمان مقلتليش اللي حصل معاكي طول اليوم.

قالت ونحن نعبر كوبري عباس في طريقنا إلى المنيل بعد صمت طويل:

- الله يسمح لينا على هاد شي لي كنعملو في نفسنا.

- الله يسامحني أنا على المشي اللي مشيتهولك النهارده. ضحكت وقالت وهي تضربني في كتفي ضاحكةً: الله يسمح ليك يا سبعاوي، قلت مستغلًا هذه الضحكة التي خرجت غصبًا عنها: ضحكتك دي أحلى حاجة حصلت النهارده.

وصلنا إلى المنيل، وكنت قد أنهكت تمامًا، فنمت حتى السادسة من مساء ذلك اليوم على الكنبة، ثم قمت مستقبلًا ما ينتظرني من جديد.

بحثت عن «مليكة»، فلم أجد لها أثرًا في البيت، إلا أنني وجدتها قد تركت خلفها رسالة تقول فيها: إنها ستقضى عدة أيام عند «ليلى»، وإنها متعبة للغاية، وتحتاج إلى الراحة والبعد لأيام قليلة.

تواصلت مع «ليلى» التي قالت إنها بخير، وإنهما قد انتقلا معًا للإقامة في فيلا «شريف»، ودعتني أن أقيم هذه الأيام مع «رؤوف» في شقتهما بالمعادي؛ حتى لا أبقى وحيدًا، قلت لها: خليكي جنبها على قد ما تقدري.

هاتفت «عيسى»، وحكيت له ما حدث أمس، وواعدته بالمرور عليه؛ لزيارة «طه» حسب اتفاقي مع «ليديا»، فقال إنه في انتظاري.

في الطريق طالعت بعض الصحف التي كتبت أخبارًا عن «نديم الراوي» وحالته الصحية، والتي قالت إن «نديم الراوي» أجهد في التسجيل والبروفات، وإن عددًا كبيرًا من المحيطين به نصحوه بالراحة، ولكنه لم يستجب، وكان مصرًا على الغناء رغم التعب، وأن الحالة التي انتابته هي عرض طبيعي لضغط الحفلات والعمل المتواصل، قلت في نفسي وأنا في طريقي بصحبة «عيسى» إلى بيت «ليديا»

في الجيزة: مدد يا شيخ طه يا قاضي، لا بد لـ«نديم» أن يأتي ليعتذر في المقام، ويذرف دموع الندم وهو يطوف أشواطًا عديدة حتى يستردَّ صوته.

استقبلتنا «ليديا» بابتسامتها الرائعة هذه المرة، وهي تقول: تعبناك معانا يا ابني، ضحك «عيسى» وقال: مش كبير شوية عشان يبقى ابنك يا «ليديا»، قالت: مانا لو خلفت كان زمان ابني قده كدة، قلت لها: يسعدني ويشرفني يا ست الكل، قالت: اتفضلوا «طه» صاحي وزيارتكم أكيد هتفتح نفسه، وتغير موده، وأنا هسيبكم معاه وهعملكم غدا، قلت في نفسي: أخيرًا سأكون في صحبة «طه» الذي أحبه، دخلنا عليه كان سابحًا في ملكوته، اقترب «عيسى» من مسامعه وهمس له، وكأنه يكمل حديثًا بدأه منذ سنين: بالك الشويش اللي هناك دا، ممكن يهرب لك ورق تكتب عليه أشعارك.

ضحك «طه» وقال له:

-«عيسى» ابن أم «عيسى».. واحشني يا «شرقاوي».

تنبه «طه» لوجودي، فلاحقه «عيسى»:

- دا بقى «كَحّال» ابنك اللي مخلفتوش، و«ليديا» قالت عليه زي ابني. ابتسم وقال: عارفه.

قلت لهما: إيه حكاية الشاويش والورق؟

فحكى «عيسى»: وأنا في المعتقل واحد من حبابينا مفيش داعي لذكر اسمه جالي وقالي لو عايز ورق تكتب عليه اغمز الشاويش اللي واقف هناك دا بسيجارة، وأشار إلى أحدهم، وفعلًا رحت للشاويش اللي ما صدق نقل الكلام للمأمور، وكانت ليلة طين، اتسلوا عليّ للصبح، ولسان حالهم بيقول بقى عايز ورق تكتب عليه كلامك اللي بتحارب بيه «السادات» رأسًا.

ضحك «طه» للمرة الثانية وكانت ضحكته حلوة، مثل وجهه الصبوح، قال له «عيسى»:

- قوم هات الطاولة والحقنا في الصالون عايز أغلبك عشرتين من بتوع زمان.

استردَّ «طه» جزءًا من عافيته على عكس أمس، وتبعنا بعد قليل إلى الصالون بعد أن ارتدى روبًا خفيفًا؛ خشية هواء

المكيف، وتبعتنا «ليديا» التي سألتني في اهتمام: أين صديقتك المغربية الحلوة؟ قلت: مع «ليلى شريف» في المعادي.

فقال «عيسى»: ما هم العيال دول منفدين على بعض، و«كَحّال» صديق لـ«مدحت رؤوف» جوز «ليلى»، وعاملين أعمال كتير مشتركة مع بعض في فرقة بديعة، وعملوا لي أنا كمان غنوة.

قلت: وهنعمل أغاني لـ«طه» كمان بس هو يرضى علينا.

ابتسم «طه» ابتسامة فاترة، فقال له «عيسى»:

- إنت تطول دا الولاد دول هما المستقبل، وانت يا «طه» لازم تساندهم، ومتخافش مش هيخذلوك عارف ليه؛ لأن قلبهم زي قلبك، وكفاية الواد «كَحّال» دا تحسه إنه ابن عمرك أو صاحب قديم من زمنك بعد أول خمس دقايق تشوفه فيهم، ولا إيه يا «ليديا»؟

- مانا لسه بقوله إني بحس إنه زي ابني عشان كدة هاخده منكم عشان يساعدني في تحضير الغدا.

خرجت مع «ليديا» التي أعرف أنها أرادت أن تفسح المجال لـ«عيسى» ليخرج بـ«طه» من تلك الحالة المزرية، قلت لها: بما إنك خرَّجتيني عشان تديهم مجال للحوار، وبما إني ابنك القمر اللي واقف قدامك دا ممكن تحكي لي حكاية «طه» و«خالد الجارحي» معاكي؟

ابتسمت «ليديا» ابتسامةً رقيقةً لا أظن أني رأيت ابتسامة مثلها طوال حياتي، فقلت في نفسي: الحمد لله أنني لم أكن من هذا الجيل، لكنت قد وقعت في حب هذه السيدة أنا أيضًا.

بدأت تحكي وهي تحضر عددًا من الأطباق وتعطيها لي لأنقلها إلى حجرة السفرة: الحكاية دي سمعتها كتير وبأكتر من صيغة لحد إنها قربت تبقى أسطورة يقولها الناس في كل حتة، لكن باختصار أنا اخترت «طه»؛ لأنه حبني في صمت غريب، أما «خالد الجارحي» فكان بيحب حب امتلاك، حب مغرور وأناني، وحب فوز وانتصار على «طه» اللي هو عارف وشايف إنه بيحبني بتعفُّف؛ لأنه كان في مقتبل حياته، وكان هو العائل الوحيد لأخواته البنات ولأمه، فمكانش يقدر يتجوز في المرحلة دي، أما «خالد» فكان وقتها اتحقق وبقى عنده دخل من أغانيه الكتير، ودا لأنه كان عايش لوحده بعد

موت أبوه وأمه في اسكندرية، أنا منكرش إن «خالد» شاعر مهم، بس «طه» أهم منه بكتير فنيًا وبالمقاييس العالمية كمان، «طه» يا «مروان» بيمثّل مدرسة إنسانية حديثة في الشعر والأغنية، وكمان كان مجدد لمّا عمل أغاني مختلفة، وكان لأول مرة يخليك تشوف أكتر من بُعد في العمل الواحد، فكنا طوال ما احنا ماشيين بنتساءل دي غنوة سياسية ولا عاطفية ولا فلسفية؟، وكان هو يضحك للناس ويقولهم: حبوها زي مانتوا عايزين، طول عمري فخورة بـ«طه»، حتى في الأغاني الشعبية اللي عملها مع «رشيدة»، وغيرها كنت بسمعها في الشارع، واقول: والله ليجي يوم الناس تفتكر الكلام دا ويفهموه صح، مش على إنه مجرد إسفاف زي النقاد ما بيقولوا، حكيت لها حكاية العساكر في الكتيبة، وحبهم لـ«رشيدة»، وازاي كنت لما أشغل «نديم» كانوا بيطلبوا «رشيدة»، وكل ما أكتّر من «رشيدة» كانوا بيتبسطوا أكتر، لدرجة إن في يوم من الأيام قعدت أدور عند «رؤوف» في أرشيف المؤسسة عن حكاية «رشيدة»، واندهشت لما لقيت إنها كانت معتمدة في إذاعة إسكندرية كمنولوجيست، وإن انطلاقها جه مع أول غنوة عملها «طه»، وكسرت الدنيا في اسكندرية، واللبنانيين عملوها في لبنان بتوزيعات مختلفة لحد ما رجعت لنا تاني، وقلبت الدنيا في القاهرة، وانزعجت من كم الانتقاد والتوبيخ لـ«طه»، ومعظم

اللي هاجموه كانوا أصحاب مصالح، وعجبني «طه» إنه ما تخضّش وكمل معاها.

ضحكت «ليديا» وقالت: تعرف إن «طه» كسب فلوس كتير أوي من وراها، أكتر بكتير من اللي كسبه من «نديم»، بس «طه» يا «مروان» عمره ما كان بتاع فلوس ولا بيحبها، ثم قالت: وعلى فكرة «رشيدة» جاية النهارده.

قلت: طب إيه سر التعلق والتعب الأخير دا، لدرجة إني شكيت إنه حضر الحفلة، وإن سبب انهياره هو تعب «نديم»؟

قالت: ما اعتقدش إن «طه» كان في الحفلة، «طه» طول عمره بيعتبر «نديم» أخوه الصغير، وهو اللي خطط له ورسم له الطريق، و«نديم» فعلًا كان بيستجيب له كتير، وارجع لحواراته الصحفية الأولى هتلاقيه بيعترف بده، لحد ما اختلفوا على كام حاجة، وهنا دخل «خالد الجارحي»، وكان قصده يفطس تجربة مقدرش يعمل زيها زمان؛ لأن «طه» كان صاحب رؤية وبيشوف لقدام، في البداية «خالد» كان بيهاجم «نديم»، ويسخر من خروجه عن المألوف، ويدّعي على «طه» إنه بيستعين بمراته عشان تترجم له أغاني أجنبية وهو يعيد صياغتها، لكن كل دا كان غيرة وافترا بعد

فشله الذريع في حياته وحكاية خيانة «ثناء وصفي» المعروفة وهجرها ليه، وسفرها مع مخرج شاب وقتها، تعرف إن «ثناء» وقت المعتقل كانت تيجي تبات عندي، وقتها فتحت لي قلبها وقالت إنها بتحبهم هما الاتنين سوا، وإنها تتمنى تفضل مع «خالد» ومع المخرج الشاب دا في وقت واحد؟ ثم ضحكت ضحكة مميزة واستكملت: كانت بجحة أوي، ثم أكملت: كل دي ضربات مؤلمة، كان نجاح «طه» و«نديم» بيوجعه وبيفكّره بيها يوم بعد يوم، صمتت فجأة ثم قالت: كفاية كلام كدة الأكل هيبرد تعالى ننادي عليهم.

على الغداء شاكسني «عيسى» وقال: الواد «كَحّال» شكله بيمرّ بأزمة عاطفية يا «ليديا»، ودا ابننا مش هينفع نسيبه كدة. قلت:

- أكيد «ليلى» حكت لك حاجة جديدة!

ضحك «عيسى» وقال:

- لا والله أنا بس بانكشك وحاسس بيك.

سألتني «ليديا»:

- صديقتك المغربية؟

- أيوه.. بس المشكلة كبيرة ومعقدة.

قبل أن أحكي قاطعنا رنين جرس الباب، ودخلت «رشيدة» متلهفة، وقالت: ألف سلامة يا حبيبي، وقبّلت جبين «طه» ثم «عيسى»، وقالت لي: اتقابلنا قبل كدة أنا فاكراك، قلت لها: عند محسن في المطعم، فأكدت على كلامي: صح، دعتها «ليديا» لتناول الغداء، فاعتذرت وانتظرتنا في الصالون.

ليلتها غنّت رشيدة بصوتها الحلو بعد أن تغيَّر مود «طه»، وأبدع «عيسى» في إدارة الجلسة، مازحني وطلب القصيدة التي قلتها لـ«فريدة» في حفلة المسرح الصغير فقلت، ثم طلب من «رشيدة» غناء أغنية «طويل يا سفر الحبايب» وهي أغنية كتبها «طه» لـ«نديم» الذي كان قد توقف عن غنائها لفترة طويلة.

ابتسم «عيسى»: تعرف يا «طه» إني قعدت أدور عليك بعد الغنوة دي ست شهور، كنت عايز أعرفك وأصاحبك، وقد كان.

غنت «رشيدة» الغنوة ذات الشجن الجميل، وأضفت عليها

بُعدًا شعبيًا، جعل «طه» يبكي، مدّت «ليديا» يدها لتمسح دموعه الغالية، فقال «عيسى»: خليه يفكّ عن نفسه، «طه» مكتوم من سنين، ثم مازح «رشيدة» وقال: غني لنا حاجة فرفشة بقى.

- يلا اكتب لي وأنا أغني.

ضحك وقال: والله لاكتبلك إنتي بتقولي فيها، والواد «كَحّال» كمان يعملك غنوة فلاحي كدة تكسر الدنيا وتنافس «طه».

قالت «رشيدة» فجأة: عرفتوا اللي حصل لـ«نديم الراوي» في الحفلة امبارح؟

قال «عيسى» يجاريها: إيه اللي حصل؟

- بيقولوا صوته «اتحاش» يا قلب أمه ومقدرش يغني.

سألها «عيسى»:

- وإيه اللي يخلي فنان صوته «يتحاش» يا «رشيدة» بما

إنك مطربة؟

ردّت بتلقائية:

- «نَفْس» يا أخويا أو حسد أو عمل يكون خطا عليه، كل شيء وارد يا عمنا في الكار بتاعنا.

قال «طه»: أنا عارف إيه اللي حصل لـ«نديم»، ثم صمت قليلًا وقال:

- «نديم» شافني في الحفلة يا «عيسى» وعينه جت في عيني.

ألجم الصمت الجميع، فقلت في سرِّي: مدد.

لم تكن هذه أولى المفاجآت، لكننا فوجئنا برنين الجرس مرة ثانية، وكانت المفاجأة الكبرى وهي حضور «نديم» بنفسه، والذي ما إن دخل حتى بكى بكاءً مريرًا، وارتمى في حضن «طه»، ومضى يردد بصوت مبحوح: حقك عليا يا «طه» حقك عليا، قلت للمرة الثانية: مدد مدد يا سيدي «كَحّال» مدد.

أشار لي «عيسى» أنا و«ليديا» و«رشيدة» بالخروج، ثم أغلق باب الصالون خلفه، وقال: تعالوا نسيبهم مع بعض يصفّوا الجو بينهم، ونشوف مشكلة الواد الحبّيب دا إيه في الفاراندا.

حكيت لهم موضوع الرسالتين، وأنا أفتش عن ضوء شقتي على الضفة الأخرى من النيل وأتمتم: ليت «مليكة» تكون قد عادت وأنارتها من جديد، تعجَّب «عيسى» وأنا أشرح لهم كيف خربت رسالة «مليكة» علاقتي بـ«فريدة»، وكيف خربت رسالة «فريدة» علاقتي بـ«مليكة»، فضحك «عيسى» من المفارقة، وجارته في ذلك «ليديا»، أما «رشيدة» فقالت بقلب طيب: كان عليك بإيه من دا كله يا قلب أمك، خطفتني العبارة للوهلة الأولى، وأرجعتني لـ«ريما» وعباراتها المشابهة يوم الرحيل.

قالت «ليديا»:

- فعلًا الموضوع معقَّد، ومن حق «مليكة» تزعل من إنك خبيت عليها كل الوقت دا، ومن حقها تحس بالذنب، خاصة إن إنت وفريدة كان بينكم تاريخ كبير مش علاقة عابرة.

تدخل «عيسى» وقال:

- كلها أقدار، وفعلًا الموضوع صعب، لكن الحل الوحيد في إيد «مليكة» وإيدك يا «مروان».

قلت:

- «مليكة» قفلت الباب خلاص، ومش عايزة تتناقش ولا تتكلم.

قالت «ليديا»: مش إنت ابني؟

قلت مبتسمًا: أيوه بحكم الغدا العظيم بتاع النهارده والحنية عليا أكتر من «طه» ومن «عيسى».

قالت: طب أنا هروح بكرة عند «ليلى» وأتكلم معاها.

بعد قليل استدعانا «طه» للدخول إلى الصالون، وكانت الوجوه عليها من الراحة ما يعلن عن انتهاء المشكلة، وعودة الودِّ القديم، داعبني «نديم» وقال: كله منك إنت يا «كَحّال» من يوم اشتبكت مع «خالد الجارحي» عندي في المسرح،

وأنا مش مرتاحلك.

قلت له: أنا بحب «طه» من زمان، وكنت زعلان من اللي حصل، وكويس إن «خالد الجارحي» يومها ماضربنيش، تصدَّق عمري ما شفت حد بيغلّ على حد كدة.

ضحك «نديم» وقال: وعندي ليك مفاجأة كمان إنت وصاحبك الملحن غنوتكم هتتنفذ قريب، أما «طه» و«عيسى» فدول دمي ولحمي عمري ما هتخلى عنهم.

ضحك «عيسى» وقال: شوفت يا «كَحَّال» اللي كنا بنقوله.

قالت «رشيدة» بوجه عاتب: وأنا فين بقى من كل دا؟

فردَّ «نديم»: أنا بحب صوتك، وشجنك، ولو فيه مشروع «طه» يكتبه، نعمل دويتو حلو يكسر الدنيا.

قالت «ليديا»: بعد الأخبار الحلوة دي كلها واللي حصل النهارده تحبو تشربوا إيه؟

محملًا بنشوة ما حدث في تلك الجلسة، عبرت ليلتها

كوبري عباس عائدًا إلى بيتي، وأنا في قرارة نفسي أحمل لـ«مليكة» كل تقدير؛ لانشغالها بحالي، ومداواتي طيلة هذا الوقت، بل ولمغادرتها لبلادها وإقامتها في مصر لأجل خاطري، حمدت لها تحمُّل كل سخافاتي، وتذكري لـ«فريدة» أمامها في أكثر من موضع، وهو ما كان يؤلمها أحيانًا، ويجعلها تغار، ثم رفعت رأسي إلى السماء متوسلًا بسيدي الكَحّال الذي تحبه «مليكة» دون أن تزور مقامه أن ينزل الله على قلبها الذي أعرفه حنانًا ينسيها كل ما حدث.

وصلت الشقة وعندما دخلتها استقبلتني رائحة فراغ أعرفه خلَّفته «مليكة»، ومن قبلها «فريدة»، تذكرت صرير أسنان «فارس» وهو نائم، تحسست فكي وأنا أقول: أيام بتشبه بعضها.

تسلل اليأس مرة أخرى إلى نفسي، وقلت: هل تغادرني «مليكة» في طريق اللاعودة حاملة معها ذكرى جرح لم أكن أقصده وذنب لم تفعله؟

فتّشت عن «العروسة» التي اشتراها لها جدي، وأهديتها أنا لها نيابةً عنه، وجدتها تجلس حزينة على «الفوتيه» في حجرة النوم، ضممتها بلهفة، أبحث فيها عن عطر «مليكة»

المخلط من خلاصة عطر باريس، وخلاصة سحر المغرب العربي.

فشلت في استجلاب النوم، فأخذت قرصًا من المنوم الذي كنت قد نسيته، أدخلني القرص في عالم الهذيان مع التعب والإنهاك، فرأيت «ريما» و«فريدة» و«مليكة» في مشاهد متداخلة، رأيت «ريما» تجلس بجوار والدها في شقتهم بالزيتون تحتمي به مني، وأنا أطالبها بالعودة إلى البيت، رأيت «فريدة» معي في كنيسة القلب المقدس في باريس، وقد أخفت عني وشمها الذي وشمته أسفل نهدها الأيسر، ورأيت «ملكية» تسبح في «شمية ليلة»، ونحن نغني على طريقة «يونس الصواف»: «على الله تعود على الله.. يا ضايع في ديار الله».

أيقظني صوت هاتف الشقة في مساء اليوم التالي على مكالمة غريبة قال المتصل: أستاذ «عيسى الشرقاوي» بيقولك تعالى له في الجريون(25) عشان تعبان شوية، ثم انقطع الاتصال بطريقة غريبة، قبل أن أعرف مَن الطالب، حاولت الاتصال بـ«عيسى» في بيته؛ خشيةَ أن يكون الأمر مزحة سخيفة، فلم يرد، فارتديت ملابسي بسرعة، واتجهت مباشرة إلى الجريون في قصر النيل، ولم أكن أعرف أن

الجريون مكان مفضل لدى «عيسى»، فهو دائم التواجد في النادي اليوناني.

كان بداخلي هاجس غريب، حتى وجدت «خالد الجارحي» يجلس في أحد أركان الحديقة بصحبتها، نعم بصحبة «فريدة» التي تأكدت منها تمامًا هذه المرة، وتفاجأت هي بوجودي، وأسقط في يدها، هجمت على «خالد» الذي حاول استفزازي بنظرة شامتة وابتسامة مفعمة بالانتصار، فأطبقت يدي دون أن أدري حول عنقه، بعد أن وقع أرضًا وأنا أردد: كله إلا «فريدة» يا كلب إنت، تدخّل الجالسون وحاولوا إبعادي عنه، فأطبقت يدي على ذراعها في اتجاه الخروج أسوقها أمامي، وهي تتململ من قبضتي وأنا أتوعده: مش هسيبك يا خالد يا جارحي مش هسيبك.

قالت «فريدة» بعد أن غادرنا المكان وهي تترجاني بجسد ينتفض: سيبني أرجوك، تركت ذراعها وأنا أقول لها: الكلب دا فيه معركة دايرة ما بيني وبينه من ساعة ما شافك ليلة المسرحية، وبصّ لك بصة مش محترمة، ومن تاني يوم قابلني عند «نديم» واشتبكنا سوا، وهو مقرر يستغلك عشان تبقى سكينة يدبحني بيها، هو مش عايز منك غير كدة، لو كان عايزك كان خرج وراكي، هو اللي اتصل بيا من ساعة في

البيت، وقالي تعالى الحق «عيسى» تعبان في الجريون، وجيت لقيتكم سوا، فهمتي ولا أقول كمان؟، عزمك على عرض «مليكة»، ولما شفتكم في الجراج جري بالعربية، وقبلها في حفلة فيلا «حمدي شريف» حسيت إنه بيتوعدني ومرتب لي حاجة، بس ماتوقعتش أبدًا تكوني إنتي يا «فريدة».

بكت «فريدة» ولم تنطق بكلمة واحدة، اصطحبتها برفق هذه المرة محاولًا تهدئتها، وطلبت منها الصعود معي للنادي اليوناني قلت: تعالي مش هسيبك تروحي وانتي كدة، على الأقل لما تهدي.

أشارت وهي ما زالت ترتعش من صدمتها إلى الحمام، فجلست أنتظرها حتى خرجت بعد دقائق وقد استردّت بعضًا من هدوئها المعتاد، طلبت لها ليمونًا، في أول الأمر، ترددت في أن تجلس، رجوتها وقلت: أنا بامرّ بأسوأ أيام حياتي ومحتاج لك، محتاج أفهم منك حاجات كتير، «خالد» وصلك إزاي؟ وليه قرر يضربني بيكي إنتي بالذات؟ رغم إنه كان ممكن يضربني بـ«مليكة» وهي الأقرب؟

قالت بصوت يشوبه الارتباك: أنا قابلته في المعادي لما كنت

مع «ليلى شريف» يوم ما جت وخرَّجتني، اليوم اللي بعث لي ألبوم «مواعيد»، وهناك قعدنا واتكلمنا، وهو بالصدفة ظهر وقتها في الكافيه اللي كنا فيه، «ليلى» سلّمت عليه عادي، وعرفته عليا، وقالت له «فريدة» مرات «مروان الكَحّال» الشاعر، وإدته نسخة من الألبوم، ودي كانت أول مرة، والمرة التانية كنت بتمشى هنا في وسط البلد، ودخلت المكتبة اللي في الميدان أدور على كتاب حلو أقراه، بلتفت لقيته واقف ورايا وبيبتسم لي، سلمت عليه عادي كشخص معروف، فوجئت وقتها إنه لسه فاكرني، وقال لي: مش إنتي مرات «مروان الكَحّال»؟ فقلت من غير تفكير أيوه بس إحنا حاليًا مش مع بعض، وقتها طلب إننا نشرب قهوة وأنا اعتذرت، فمسك «ديوانك» وكتاب من كتبه اللي في المكتبة وكتب لي رقمه، وقال: لازم تكلميني ضروري عندي معلومات تهمك وعايز أقولها لك، لما قريت يومها الديوان، ومكنتش أعرف إنه اتنشر، كلمته وأنا مضغوطة، ولما اتقابلنا حكالي من أول ما اشتبكت معاه عند «نديم»، وإنك ماشي مع شلة مش كويسة وبتحاربوه، وإنه كان نفسه يساعدك ويقف جنبك لولا موقفك دا، وطول الوقت كان كلامه كدة، ومن كام يوم لقيته بعت لي رسالة فيها دعوة لعرض «مليكة»، يومها حسيت إنه بيضغط على أوتار فضولي وغيرتي واشتياقي لمعرفة «مليكة» ولأخبارك معاها، وهناك شفتك وإنت بتحضنها بعد

العرض وخارجين سوا، والنهارده طلبني فجأة عشان أنزل وأجيله، وأكد لي إنه محتاج لي ضروري جدًّا.

قلت: القذر لعب بيكي، بينتقم مني عشان وقفت في صفّ «طه» و«عيسى» و«ليديا»، ضده وضد «نديم الراوي».

وقفت «فريدة» فجأة وقالت: ممكن أمشي بقى؟

نظرت في عينيها التي كنت أستمد منهما طاقتي دومًا، أبحث فيهما عن وعدي القديم، تمنيت وقتها لو أن كل ما حدث قد زال فجأة، ولم أشأ أن أنطق بكلمة، تركتها تمشي رغم علمي بأنها تحتجز بحرين من الدموع خلف تماسك وجهها الثلجي الذي أعرفه ومقاومتها لوطأة عينيّ.

قلت بصوت مهزوم: اتفضلي.

تابعتها وهي تسير بحملها الثقيل مطأطئة رأسها، ثم ناديتها فجأة بصوت عالٍ: فريدة.

التفتت فقلت لها: ارفعي راسك مفيش حاجة حصلت.

تابعتها من جديد وقلت في نفسي: ما ذنب هذه المسكينة في حربي مع هذا القذر؟

أيقظني فجأة صوت «عيسى» الذي قال: كأني شوفت «فريدة» نازلة بتعيط، قلت أكيد كانت معاك.

قلت له: كويس إنك لقيتها معايا أنا، مش مع «خالد الجارحي».

ثم رويت له ما حدث، فقال منزعجًا: هي حصلت؟ الوسخ دا يلعب ببنات الناس، ويدخلهم بيننا والله لأنزل أضربه بالجزمة.

قلت له وأنا أحتضنه: أهدى يا عم «عيسى» محتاجينك معانا في الأيام الجاية دي، وهو خد نصيبه خلاص، ومعتقدش إنه هيقرب منها تاني بعد ما كشفته قدامها.

- وإنت عملت إيه معاها؟

- هاعمل إيه يعني؟ إنت مش عارف الورطة اللي أنا فيها؟

ضحك «عيسى» وقال:

- والله يا واد يا «كَحّال» إنت بطل وأنا بحبك.

ابتسمت وقلت:

- وأنا كمان.

- يا سلام لو نلاقي «طه» داخل علينا هو كمان دلوقتي.

- مستحيل، «طه» واخد علقة جامدة أوي، ومش ممكن هينزل من بيته قبل كام يوم.

- لا يا أخويا هينزل، أنا كلمت «نديم» وعرفت إنه نازل استديو البروفات النهارده وبيستعد لحفلة جديدة بدل اللي تعب فيها، وكلها كام يوم ويعملها، و«طه» بعد ما يعرف المعلومة دي أعتقد إنه مش هينام.

- والله تلاقيه ولا فارق معاه وزمانه نايم بيشخّر.

ضحك فجأة بصوت عالٍ وتبعته أنا في الضحك عندما

وجدنا «طه» و«ليديا» يدخلان من الباب، فتساءل «طه»: بتضحكوا على إيه يا ولاد الهرمة؟ استمر ضحكنا، فضحك «طه» وتبعته «ليديا»، حتى تكلم «عيسى» وهو يكاد أن يقع من الضحك وحكى لهما ما كنا نتراهن عليه قبل دخولهما.

اختطفتني «ليديا» وقالت بهمس: سيبك من العيال الكبار دول، وتعالى أقولك حاجة حلوة.

قلت هامسًا وبنفس تون حماسها:

- قولي هنا قدام «عيسى»، كدة كدة هو بيعرف التايهة.

- قابلت «مليكة» الصبح في المعادي عند «ليلى» وهي كويسة، وبتسلِّم عليك، وخلال كام يوم هترجع المنيل عادي، ولا كأن فيه حاجة حصلت.

قلت لها متقمصًا شخصية سبعاوي:

- وما له.. ترجع المنيل؟ يا أهلا وسهلا.. يا أهلا وسهلًا.. تنورنا وتآنسنا.

ضحك «عيسى» ثانية وهو يحكي لهم ما جرى قبل قليل من «خالد الجارحي»، فقالت «ليديا» مندهشة: يا خبر أسود هي حصلت «فريدة» كمان يا ابن الكلب.

قضينا الليلة ما بين ضحك وجد ولعن في «خالد الجارحي»، وشعرت ليلتها أنني في صحبة من أحب، وقلت في نفسي: ماذا جنى «خالد الجارحي» من هذا الصراع الغبي؟ وحاولت أن أبحث له عن عذر، وأنا أطالع وجه «ليديا» الجميل، ثم قلت بصوت «الصواف»: «كوايتيني يا «ليديا» وفايتاني عليل على مين؟

قضيت أيامي التالية في هدوء بالبيت أسمع «نديم الراوي» بشغف جديد أحاول أن أكتب رسالة لـ«فريدة» على الموبايل؛ لأطمئنَّ عليها، ثم أمسحها سريعًا، أتذكر رعشتها وأنا قابض على ذراعها، وصوتها المرجوف وعينها المنكسرة وأقول: ماعاش من يكسر عينيك يا «فريدة» يا بنت «سامية» وأنا عايش.

تذكرت طنط «سامية» وحبي لها، وقلت: كيف انقطع الاتصال بيني وبين هذه السيدة التي أحبها كأمي الثانية؟ ظللت بالبيت لا ألوي على شيء، فقط أتحدث إلى «عيسى»

و«ليديا» التي أصبحت صديقتي الأقرب، من وقت إلى آخر؛ هربًا من وطأة التفكير في أمر «مليكة» و«فريدة».

«الليلة فيها رضا بيلهلب الوجدان

وانت نايم الليل ليه تعتب على السهران»

٢٣

فاجأتني «مليكة» صبيحة يوم الحفل الذي كنا جميعًا في انتظاره بلهفة وشوق، بزيارة غير متوقعة التوقيت، فقد كنت أحسب أني سألتقيها ليلًا في الحفل مع «ليلى»، كما أخبرتني «ليديا»، التي قالت بأن هناك دعوة لنا جميعًا لحضور الحفل مع ضيوف «نديم»، والدخول سيكون من باب كبار الضيوف، عانقتها بلهفة وأنا أقول لها: هان عليكي ولدك «كَحَّال»؟ انسحبت من حضني وقالت: جيت باش نودعك قبل ما نرحل، ثم قالت بصوت هادئ: تعرف يا «مروان» معزّتك عندي كبيرة قداش، وفعلًا أنا حبيت بزاف حياتي بالقرب منك، لكن أنا منقدرش نتحمل ذنب إنسانة تانية ممكن تكون دابه كتعذب بسببي، وعليها خاصني نتساحب من حياتك بهدوء، ولكن غادي تبقى في قلبي ومعايا بروحك الزوينة المُلهمة وأغانيك وأشعارك الجميلة وحكاياتك المدهشة والمشي الزوين أنا وياك في الليل يا سبعاوي. قالتها وهي تغالب دموعها.

ثم واصلت حديثها في طريق القطيعة لا الوصل: فيه علاقات مهمة زي ما الحب مهم، فيه الصداقة والأخوة

والأمومة.

ثم حاولت الضحك وهي تضيف: حبيت فيك حتى الطفل الشقي المهووس لي محتاج ديمًا شي حد حداه يرد باله عليه، عشان مرادش بالو على نفسه مزيان، خاصك تكون متأكد غادي نكون دايمًا موجودة وقريبة منك في أي وقت.

أنا عرفت لي حدث في الأيام لي فاتت وفهمت من «ليديا» و«ليلى» بحضور «فريدة» للعرض، وهذا معناه راها مزال متعلقة بيك، هي جات باش تشوفني وتعرف شكون أنا؟، لكن راها جات حتى عشانك باش تملي عينيها منك ولو من بعيد، أنا كنفهم مشاعر واحدة ست بحال «فريدة» شديدة الحساسية وداخلها خوف كبير، وهذا لي فهمته من الرسالة ديالها، وقداش لي وصل ليها من رسالتي ليك رعبها وخلعها بزاف على مستقبلها معاك.

- «فريدة» سابتني مرتين، وكل مرة كان العند والجمود وصلابة الرأي بيحكموا ويتحكموا فيها.

- شوف «فريدة» تعلمات درس قاسي بزاف في الفترة لي فاتت وإنت خاصك تتكلم معاها، «مروان» راك ممرتاحش،

ماشي حيت رميتي نفسك في أقرب حضن اتفتح لك وشغلتي نفسك بالغنا والشعر والصراعات لي ضايره بيك أنك تشافيتي من ألم فراقها، وإنتي ما تشافيتي، موضوعكم مزال مفتوح ومزال متحطاتش فيه نقطة النهاية في آخر السطر.

أنهت «مليكة» كلامها، ثم وقفت فجأة فاتحةً ذراعيها، تودّعني بحضن أخير.

وقفت أصارع دمعتي في لحظة جديدة من لحظات الوداع المكتوبة فوق جبيني، فقالت وهي تلاطفني:

- ماتنساش تسلم لي على مَمَاكْ وتقرالي الفاتحة عند سيدي «الكَحّال».

أعطيتها «العروسة» عند الباب، وقلت لها: ماتنسيش تقري الفاتحة لجدي «سيد» اللي بيحبك.

ابتسمت وهي تمد لي يدها بمفتاح شقتي الذي بحوزتها، ثم كتبت بيدها على الباب المترب «حالي كَحّالك».

قبلت يدها قبلة أخيرة وقلت في يأس تام: أشوف وشك بخير يا «مليكة» يا طاهرة القلب.

مرت عليّ الساعات التالية للقاء «مليكة» بصعوبة بالغة، تذكرت فيها مرارة فراق «فريدة»، وكأن «مليكة» كانت فاصلًا قصيرًا من السعادة انتهى سريعًا لتعاودني نفس نوبات حزني القديم.

هاتفني «رؤوف» وأنا ممدد في السرير غير قادر على فعل شيء وقال: مستعد للحفلة ولا لأ؟ قلت له بفتور: أهي حفلة زي أي حفلة. قال: لا حفلة الليلة دي مختلفة، فقوم بقى خد لك «دوش» كدة واحلق دقنك، والبس حاجة شيك، وأنا و«ليلى» هنعدي عليك.

قلت بعد المكالمة: ملعون أبو الحفلات.

بعد لحظات اتصل بي «عيسى» أيضًا وقال: ضروري تيجي عشان تحضر، هستناك أنا و«طه»، بعدها قال «رؤوف» في تواصل هاتفي مزعج: إحنا تحت، لبست ولا نطلع لك؟

ارتديت ملابسي غير عابئ بتعليمات «رؤوف» الخاصة

بالدوش واللبس الشيك، ونزلت غير راغب في الحديث إليهما، وخصوصًا «ليلى» التي باتت تعرف عنى أكثر من نفسي، وتقيم تحالفات - تخصني- دون علمي في فيلا والدها بالمعادي.

كنت غاضبًا منها أشد الغضب، فمنذ بداية مشكلتي مع «مليكة» لم تتصل بي، أو تخبرني بشيء، على الرغم من علمها بقلقي ورغبتي في تنفيذ طلب «مليكة» بالابتعاد ولو قليلًا، ولم أستبعد أن تكون «فريدة» قد اتصلت بها؛ لتخبرها بأمر «خالد الجارحي».

دخلت إلى سيارة «رؤوف» بعد أن تأكدت أن «مليكة» ليست معهما دون كلام، ولم يفاتحني هو في شيء، حاول في البداية أن يخبرني بأن «نديم» سيفاجئ الجميع الليلة بعد توعكه الأخير، فلم أعقّب، مدّت «ليلى» يدها تربت على يدي الباردة وفي عيونها أسف بالغ، مما حدث مع «مليكة» وهي تردد: معلش معلش كل حاجة هتبقى كويسة، فقلت بأسى: ولا يهمك.

ساد الصمت من جديد، فحاول «رؤوف» تلطيف الجو، ووضع أغاني ألبومنا الأخير في الكاسيت، وقال: اسمع شغلك

يا نجم يا كسلان، مش هنعمل شغل جديد بقى، ولا هنركن على كدة؟ فقلت: ربنا يسهل.

شعرت لأول مرة في حفلات «نديم الراوي» وزحامها المعتاد بأني لا رغبة لي في الحياة، لا رغبة في النظر في وجه الزاحفين إلى ساحة الأوبرا الذين لا يجمعهم سوى الشغف وحب «نديم»، لا رغبة لي حتى في التواجد الآن هنا في تلك السيارة، فقلت لـ«رؤوف» فجأة: عايز أنزل أتمشى شوية، مخنوق، اسبقوني أنتم وأنا هلحقكم، قال: بس يا مجنون إنت عشان ترجع تقعد في السرير تاني مش هاسيبك تنزل، أقسمت له أن يتركني وسوف ألحق بهم، قالت «ليلى»: سيبه ينزل يتمشى شوية في الهوا يروّح عن نفسه.

تمشيت في اتجاه الأوبرا غير عابئ بما يدور حولي من أحداث، فكرت أن أصعد إلى البار في الشيراتون للشرب مرة أخرى، ثم سخرت من الفكرة، وقلت إن «مليكة» ليست معي، ضحكت حين تردد صوتها بداخلي: باريس لَبَارَحْ بالليل كُلْهَا سَمْعَاتْ بِفضيحة الشاعر المصري السّكْرَانْ، شَوَّهْتينا في باريس يا «كَحَّال».

عبرت كوبري الجلاء وأنا أقول: ليتهم تركوه باسم كوبري

بديعة(26)، دخلت إلى الأوبرا متجهًا إلى الساحة، ثم إلى باب كبار الضيوف، وجدت «رؤوف» و«ليلى» و«طه» بانتظاري، سلمت على «طه» الذي لاحظ وجومي، وسأل بصوته الرخيم: أنت كويس يا شاعر؟ قلت: الحمد لله.

كانت فرقة «نديم» قد بدأت في «دوزان»(27) الآلات، حيث الأصوات متفرقة وكل عازف يجرب آلته في فردية تامة، قلت: سبحان من ألّف بين القلوب، فهكذا حال البشر، ولأول مرة أجد نفسي وحيدًا بينهم، أدوزن آلتي (قلبي) دون رفيق، لم أشعر بحاجتي لا لـ«فريدة» ولا لـ«ريما» ولا حتى لـ«مليكة»، التي غادرت كوكبي منذ ساعات، قلت سأعزف الليلة بقلبي «صولو»، سأتكلم إلى نفسي، سأحكي لها عني، لن أحكي عن «طه» ولا عن «ليديا» ولا عن «الصواف» ولا حتى «نديم»، سأكون وحدي على الخشبة، فلتسقط أضواء المسرح عليّ من بعيد، فليهتف الجمهور باسمي: سبعاوي، سبعاوي، سبعاوي.. سأبدأ في عرض «مونودراما» بعيدًا عن قصصي التي ملّها الجميع، سأقوم بدور عازف الكمان الذي أحبه الجمهور ليس كعازف ماهر، بل كلاعب سيرك، متجاهلين عزفه الفريد على آلته المحببة، تبدأ فقرة العرض بالطبول الموترة، يبدأ اللاعب فى القفز لأعلى حيث يلتقط حبلاً يدور به في فضاءات السيرك محلقاً في الهواء، فتزداد

ضربات الطبول توتراً مع كل حركة خطيرة يقوم بها اللاعب فى الهواء طوال العرض، وتعلو معها دقات القلوب، يقفز اللاعب لأعلى في حركة غير متوقعة، ثم يدور، ويدور ويدور فى الهواء عدة دورات إلى أن يلامس الأرض في رشاقة مدهشة، يبدأ الجمهور في تحيته رويداً روايداً حتى يعلو التصفيق إلى ذورته وحين يقف الجمهور لتحيته يختفى العازف فجأة، ثم يظهر من جديد مع بؤروة الضوء الساقطة على وجهه، لكنه يظهر هذه المرة بكمانه السحري وهو يعزف مقطوعته الأخيرة، ويقول في نفسه سأعزف لنفسي، لنفسي فقط هذه اللية حتى ولو لم أعجبكم، وهنا يعلوا تصفيق الجمهور مرة أخرى من فرط سعادتهم بالعزف، هم يهتفون باسمه الحقيقي: كحال، كحال، كحال، ينحني لتحيتهم بينما تتساقط دموعه كحبات اللؤلؤ على خشبة المسرح وهو لايزال يحاول أن يمسك بطرف ابتسامته.

نبهني «رؤوف» فجأة إلى أن الدخول قد بدأ، جلست بجوارهم تاركًا بيننا فاصلًا من عدة كراسي خالية في الصف الأول أمام «نديم» وفرقته، لاحظت «ليلى» ابتعادي، لكنها لم تتكلم، بعد قليل دخل «خالد الجارحي» الذي تفاجأ بوجودنا، متجاهلًا «طه» الذي جلس في شموخ واضح، حيا «ليلى» و«رؤوف»، وترك مكانه بالصف الأول في توتر بدا واضحًا

عليه، عندما تعثر في أحد الكراسي وهو يتجه للصف الثاني، بعد قليل دخل عدد من الكتاب والمثقفين والشخصيات العامة الدائرة في فلك «نديم»، قلت: أين «ليديا» و«عيسى» وهل سيتأخران أكثر، بدأ الحفل بعزف السلام الجمهوري، بعد دقائق ظهر «نديم» وبدأ في الغناء، بدأ بالقديم ومع كل غنوة كان يقول اسم «طه» بمحبة، وكنت أراقب «طه» في كل مرة وهو يمارس خجله المعهود، بعدها استدعى «نديم» أولى مفاجآت الحفل وقدمها وهو يقول: بسمعها من فترة طويلة، وصوتها بيشدني، وكنت جايب أقدم غنوة تجمعني بصوتها اللي بحبه من زمان أول مفاجأة ليكو النهارده هي: «رشيدة».. صاح الجمهور بشدة، تمنيت وقتها أن أرى ردة فعل «خالد الجارحي» الجالس خلفي مباشرة، فلم أتمكن من رؤية ملامحه.

بدأت «رشيدة» بموال قديم لها سمعته وأنا في الجيش عدة مرات، وكان العساكر يعشقونه، ثم دخلت الفرقة بالإيقاع، وغنى معها «نديم» طويل يا سفر الحبايب ولإمتى الغياب هيطول» قمت وقتها واقتربت من «طه» وقبّلت يده ورأسه، ثم أرسلت نظرة انتصار لـ«خالد» وأنا أقول بفخر: نحن هنا، جلست في كرسي «ليديا»، قلت إن «طه» يحتاج دعمًا إنسانيًا احتياطيًا في هذه اللحظات، ثم ضحكت عندما

دخل «عيسى» يرفل في جلبابه البلدي الأنيق، فقمت وأجلسته بجوار «طه» حتى تكتمل الصورة، حياه «نديم» بقبلة من أعلى المسرح، وهدأت الموسيقى فغنى «نديم»: «محبوس في عتمة غربتي وألمي وحيطان بتطرح نار وشوك وهموم»، قلت لـ«عيسى»: أيوه يا سيدي هو دا الكلام الحلو، همس في أذني: «ليديا» مستنياك برة قوم دخّلها، خرجت على عجل، ولم أجد «ليديا» وحدها، وجدتها بصحبة «فريدة» في انتظاري، والأغرب أن أجد «مليكة» كانت معهما، شعرت وقتها بغضب شديد، وهممت بالانصراف من الحفل كله، لحقتني «ليديا» وأمسكت بيدي وهي تخاطب فيّ ابنها المحبوب: «مروان» يا ابني كلنا بنحبك، وكلنا عملنا كدة عشانك، وعارفين إنك هتغضب، «مليكة» هناك واقفة وخايفة من ردّ فعلك و«فريدة» لما روحنا لها فهّمناها إن اللي حصل كله مكانش مقصود، وهي كمان فهمت إنها كان لازم تديك فرصة، وحاسة بندم شديد إنها خسرتك، وكمان حست بخوفك عليها يوم الجريون وندالة «خالد» معاها، وجت تشكرك على موقفك معاها، حتى لو إنت مش عايز ترجع، كانت مُصرة إنها تيجي، و«عيسى» كمان استسمح والدها وقال له: أنا هاكون أبوها مكانك الليلة دي بس، اقتربت «مليكة» بعد أن هدأت قليلًا وقالت: سمح ليا يا «كَحّال» هاد هو لي كان خاصو يحصل من زمان أنا هاكدا غاد نكون

مرتاحة أكثر.

ثم جاءت «ليديا» بـ«فريدة» التي أصبحت في مواجهتي تمامًا، وأنا أقاوم النظر في عينيها من جديد، قاطعتني «مليكة» وقالت: نسبقكم أنا و«ليديا» لحفلة، بغيت نكمل حفلتي السابقة مع نديم غاد نشد ليكم كرسيين جنبي.

ساد صمتنا على خلفية أغاني «نديم»، فاقتربت «فريدة» وقالت في دلال أعرفه: كدة تسيبني أمشي يوم النادي اليوناني من غير ماتقولي استني وتمسك فيا.

قلت في توتر:

- المهم إنك كويسة.

- محسيتش إني كويسة واطمنت يومها إلا لما سمعتك بتقول «ارفعي راسك محصلش حاجة». وتابعت: عارفة إنك زعلان مني أوي، وإني مهما عملت مش هتسامحني، وعارفة إني ماستهلش الفرصة دي، ولا مجهود الناس دول اللي عرفت قد إيه هما بيحبوك.

- إنتي ضيعتي فرص كتير أوي يا «فريدة».

- صح، بس فرصة المرة دي مش هاضيعها، على الأقل فرصة إني آجي أعتذر لك عن أي تعب كنت السبب فيه، وبشكرك تاني على موقفك معايا يوم الجريون، صمتت قليلًا، وقالت بصوت دامع: قبل ما أمشي عايزة أقولك إني عمري ما حبيت ولا هاحب حد قد ماحبيتك، ضحكت ساخرًا وقلت: تعرفي أني دي أول مرة تقولي فيها «بحبك» من يوم ماعرفتك؟ كنتي دايمًا بتخبيها في وسط كلامك.

أمسكت بيدي وقالت:

- كنت بخاف أقولها أتكسر بعدها.

- ومش خايفة وإنتي بتقوليها دلوقتي؟

- لا لأنك لو عايز تكسرني كنت علمت كدة من كام يوم.

- «فريدة» إنتي عارفة أنا بحبك قد إيه؟

تبدلت ملامحها وقالت: قد إيه؟

- قدّ غضبي منك دلوقتي، ومش قادر أعمل لك حاجة، وقد بعدي الكبير عنك، وقد ما اتجاهلت كل حاجة كنتي بتحبيها أو بشوفك فيها، حتى إنك تيجي في بالي واتكلم معاكي أو أحكي لك أو حتى أحاول أشوفك، أو أرجع أتصل بيكي.

قالت هي تهم بالانصراف:

- آسفة لكل دا ومرة تانية باتمنالك التوفيق أنت تستاهل كل خير.

قلت لها: استني، ثم اقتربت منها أكثر ورفعت وجهها المنكسر، مسحت دمعة ساخنة كانت بالفعل قد نزلت من عينيها، رفعت بعض خصلات الشعر محاولًا البحث من جديد عن عينيها ولمعتهما السحرية، ابتسمت، جذبتها لحضني وضممتها في شوق بالغ وأخذت نفساً عميقاً من عطرها الطاغي فقالت وهى تضحك وتخترق ماتبقى لدى من قوى: بتشمّني؟

قلت: آه.

بعد قليل دخلت متأبطًا ذراع «فريدة» وهي تغالب دموع

فرحتنا إلى الحفل، فصفق الجميع في فرحة عارمة، تلقينا التهاني من «عيسى» و«طه» و«ليديا»، وزغردت «ليلى»، وقالت: أخيرًا نجحنا، وهي تحتضن «مليكة»، فقلت لها وأنا أمرُّ بجانبها: مش مسامحك برضه يا «ليلى». احتضنتني «مليكة» وهي تقول: مبروك أولدي، ثم هنأت «فريدة» وقالت لها: خلي بالك منو واهتمي فيه، وقال «رؤوف»: بقالي كتير ماشوفتش ضحكتك دي يا فلاح أنت.

التقط «نديم» فرحتنا، فاستدعانا جميعًا للصعود على المسرح، صعدنا جميعًا عدا «خالد» الذي تسلل مدحورًا، رغم سماعنا من الخارج لغنوته «وعد قديم» التي كانت خلفية لقبلتنا الأولى بعد القطيعة.

ضجّت الساحة بالتصفيق، فقال «نديم» للجمهور: دعوني أكرِّم شركاء نجاحي منذ البداية، شريكي الأول ورفيق رحلتي ومسيرتي من يوم ماغنيت، أخويا العظيم «طه القاضي» اللي لو اتكلمت على أهميته في حياتي هفضل اتكلم لبكرة، ومعاه هكرم رفيقة مشواره العزيزة «ليديا» الست دي اللي وقفت معانا سنين أنا و«طه» وياما غلّبناها، وشريكي التاني «عيسى الشرقاوي» اللي لولاه مكناش هنا النهارده، صاحب القلب الدافي والروح الصافية المناضل اللي

طول عمره مؤمن بكلمته وبصوته حتى في لحظات كفر الآخرين بيه، ومعاهم أحب أقدم موهبتين عزاز على قلبي جايين بكلمة جديدة ونبرة روح مختلفة «مروان الكَحّال» الشاعر و«مدحت كامل رؤوف» الملحن، واسمحوا لي أسمعكم أول غنوة عملتها معاهم.

هدأ الجميع على المسرح، ودخلت الموسيقى في نعومة، فغنى «نديم»: «يا اللي إنتي آخر الحب وإنتي أوله، مفيش ملل في الحب ممكن يقتله، ولو الزمان عدى علينا معشناهوش، بالحب نقدر نوصله ونكلمه». تقدمت «مليكة» في هدوء، وفتحت علبة من القطيفة الزرقاء بها خاتم، وقرّبتها مني وهي تهمس لي في أذني: ألم أقل لك هناك من يستحقه أكثر مني، وقالت: قدمه لـ«فريدة»، أمسكت الخاتم بيدي، وابتسمت عندما علمت أنه خاتم الحال، ألبسته لـ«فريدة» وقبّلت يديها وأنا أقول: «حالي كَحّالك» من جديد يا «ديدة».

«الدنيا تبقى حلوة لما الناس تحب الناس»

٢٤

عادت «فريدة» من جديد ترفل في بيتي فى فستانها الأبيض بعيونها السحرية اللامعة وخدوها الحمر، تنظر إلى نظرات واثقة لم أعتدها من قبل وعلى وجهها ابتسامة حلوة، تردد فى كل لحظة أناشيد الحب وتسمعني إياها صراحةً دون موارة، تتابعني في شغف، تقرأ كل ما أكتب باهتمام، تواصل الليل ساهرة معي حتى تنام على الكنبة كطفل بريء، أوقظها فترجوني في غنج أن أحملها إلى السرير في كل مرة، تتواصل في صباحات المنيل مع «ليديا» و«ليلى» بروح لم أعرفها من قبل، ترسل رسائل عبر الإيميل لـ«مليكة» التي غادرتنا إلى باريس وتذكرها بكل خير وتقول إنها لم تقابل أحدًا بهذا النقاء الإنساني الفريد والتصالح مع النفس والآخرين.

قالت إنها ولدت من جديد وأن ما حدث ليلة الجريون كان محض مخاض، فجعلتني برقتها المتزايدة أشكر لـ«خالد الجارحي» ماتسبب فيه من وقيعة أعادتها إليّ.

عادت «فريدة» تضع رأسها في حجري كالأطفال من جديد

وهي تسمعني وأنا أمارس لعبتي القديمة وأحكي لها لأول مرة حكاية «ريما وسميرة وليلة» وحكاية «الشال وكرامات سيدي الكحال» وحكاية «أمي وتعاليها على الأغراب والنفور منهم، وحدتها الدائمة مع من اعتبرتهم بنات ملوك».

ظلت «فريدة» لأيام طويلة تثور غاضبة مني لأنني لم أحك لها تلك الحكايات الحلوة من قبل، وتسألني في عتب شديد لماذا لم تستبدل تلك الحكايات بحكايات «نديم وطه والشرقاوي وليديا»، ثم تعاقبني وتختفي تحت شعرها الناعم وأنا بدوري أظل أبحث عن وجهها تحت خصلات الشعر، خصلة، خصلة، حتي تعود ابتسامتها من جديد فأغني لها: حالي فيك يا صاحب الحال هو حال ولاّ محال؟ ولاّ الحب بيغيّر الأحوال؟

تمت

شكر خاص لـ:

الكاتب والسيناريست أحمد مراد

الشاعر والسيناريست نبيل عبد الحميد

جميلة رضوان

الهام بنعودة- محمود عمر - هادي الطحان

دعاء سليط - نور الدين

ولكل من ساهم في إخراج هذا العمل للنور.

---

(1) جميع المواويل الصوفية منقولة عن تراث الشيخ شرف إبراهيم التمادي المشهور بكروان السكرية وبلبل الساحات الأحمدية، وهي منسوبة للتراث الشعبي في مدح آل البيت، أو لمؤلفيها الأصليين دون تدخُّل من المؤلف.

(2) الدراويش.

(3) الجسور هي ضفاف عالية من التراب لحماية بيوت الفلاحين من الفيضانات.

(4) قشعريرة

(5) حذاء

(6) صاحبات مقام، وبعضهن من آل البيت رضي الله عنهم.

(7) بها جن.

(8) حادي الأبل: الذي يسُوق الإبَل بالحُداء ويوجها في رحلة الحج ويتميز بصوته القوي.

(9) اسم يوناني، ويعني الفتاة المهذبة أو القديسة.

(10) اسم «بيجماليون» ورد في قصيدة أوفيد السردية بعنوان التحولات، والتي يصف فيها كيف أغرم النحات «بيجماليون» بالتمثال الذي نحته.

(11) مطعم شهير بالمندرة بالإسكندرية.

(12) غنوة شهيرة لوديع الصافي من كلمات ميشال طعمة، وألحان فريد الأطرش.

(13) صاحب أشهر عربية فول بوسط القاهرة، وكان له محل صغير بالممر.

(14) من قصيدة «الحلزونة» لفؤاد حداد.

(15) مسجد صغير.

(16) من اللهو.

(17) الله يخليكي ليا.

(18) الغضب.

(19) ميت من الحب.

(20) هبلغهم.

(21) أزرار.

(22) من أشهر استديوهات الصوت في مصر.

(23) مثل يقال للحد من تكرار الإنجاب.

(24) حظ.

(25) مطعم وحديقة في شارع قصر النيل.

(26) رفض المصريون تسمية الكوبرى الذى تم تشييده عام ١٩١٤ بكوبرى الإنجليز، مفضلين عليه اسم كوبرى «بديعة»، حيث كان يقابل كازينو الفنانة الشهيرة «بديعة مصابنى» الذى كان محل فندق شيراتون القاهرة حالياً،

ليحتفظ الكوبرى بذلك الاسم الفنى، حتى عام ١٩٥٢، حيث أطلق عليه كوبرى الجلاء بعد ثورة ٢٣ يوليو.

(27) دوزن العازفُ آلةَ الطَّرب: شدّ أوتارها المرتخية.